الطبعة الثانية

JALAL BARJES

جلال برجس

رواية NOVEL

أفاعي النّار

حكاية العاشق علي بن محمود القصّاد

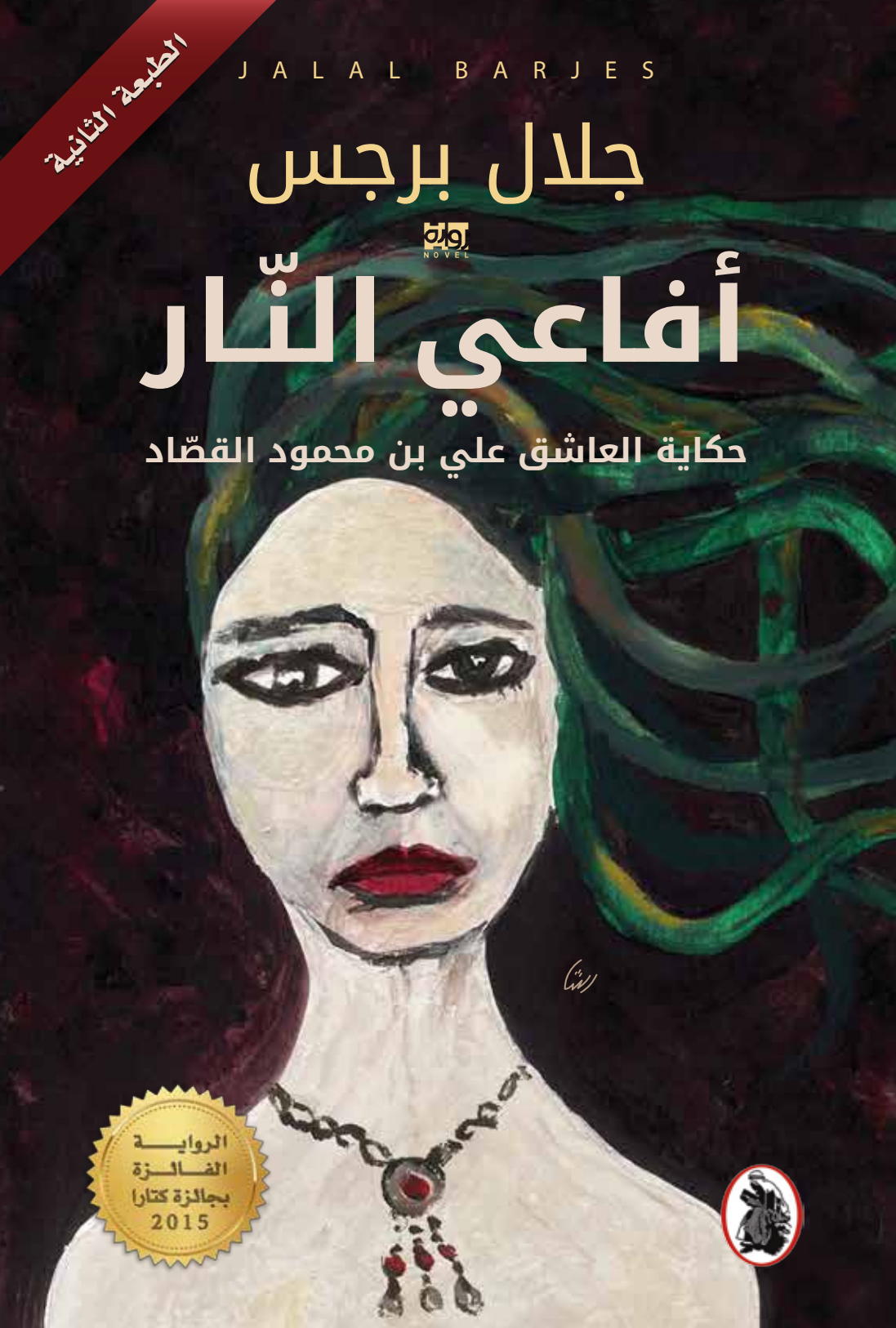

الرواية الفائزة بجائزة كتارا 2015

أفاعي النّار

حكاية العاشق علي بن محمود القصّاد

الطبعة الثانية

أفاعي النّار.. حكاية العاشق علي بن محمود القصّاد/ رواية
جلال برجس / مؤلف من الأردنّ
الطبعة الثانية، 2021

حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بـيـروت – لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

رسم وتصميم الغلاف: **رشا حلاب**/ لبنان rashahallab@gmail.com
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

رقم الناشر الدولي: ISBN: 978-614-486-249-0

رواية
NOVEL

جلال برجس

أفاعي النّار

حكاية العاشق علي بن محمود القصّاد

الطبعة الثانية

الإهداء

إليكم، إن كنتم تحلمون..

أفاعي النار

ثقيلةٌ أنتِ يا ذاكرةَ الحُب!
في دخانكِ أُغنّي وأحترق
أمّا الآخرونَ فلا يرونَ فيكِ إلا لهباً
يُدفئُ أرواحهم الباردة.
«آنا أخماتوفا»

مدخل

الآن وبعد كل ما جرى، وفي غمرة هذا العشب والأزهار البرية، التي غمرت المقبرة، تحرس سكينة الموتى. الآن قبالة نشيج هذا الناي الذي يتهادى من مكان خفي، كأنه خلفية موسيقية لفيلم بدايته نهاية الحكاية ذاتها، وقبالة هذه السماء الزرقاء الصافية، كذاكرة عاشق أفرغ ما فيها واستراح من سطوة الذكريات.

الآن في لحظة العصاري هذه، والشمس تلملم شعرها، وتحشر في العروات أزرار قميصها الذهبي، ترشق الأشياء بماء الشفق، فتبدو الكائنات أسيرة رتم حزن شفيف، يعبث بالقلوب فيجهشها. الآن في لحظة الصمت هذه حيث تخلو الشوارع من عابريها، إلا من بنت ترافقها قطة تتقافز في الهواء، تتبع فراشة يغريها خيط ضوء يتسلل عبر ثقب في جدار المقبرة. الآن أمام هذه الشاهدة التي تحمل اسمك، وتشير إلى اليوم الذي نطقتِ فيه كلمتك الأخيرة، حينما كان الفصل ربيعاً، والسماء زرقاء صافية، حيث كانت عيناك تراقبان بارتخاء، طائراً، ظل يعلو وينخفض إلى أن توارى، فسقطت يدكِ من يدي، بينما عيناك بقيتا تراقبان السماء، التي أرى روحك الآن فيها، تحلق دون توقف.

الآن في هذه اللحظة، وبعد كل ما حدث، بإمكان ذاكرتي أن تستعيد كل التفاصيل، دون عناء، فتكون الحكاية...

-١-
ليلة ناقصة

«عندما ترحل الأمهات، اتركوا باب القلب مواراباً، إنهن يأتين ليلاً، ويرتبّن ما خلّفته يد الخسارة»

خاطر

(وأخيراً اكتملت روايتي)

قلت كمن أغلق عليه باب بيته الذي انتظر اكتمال بنائه سنين، ثم نظرتُ إلى خانة الوقت في الحاسوب، وقد أشار إلى الساعة الحادية عشرة من مساء ليلة الخميس، الليلة الوحيدة لي بعد عامين من الكتابة، دونما كلل أو ملل، والتي لولا هول ما حدث فيها، لنِمْتُ هانئاً، متبرئاً من أي قلق، قرير العين، أغفو بعمق، كطفل أوغلت مخيلته بسحر حكايات ما قبل النوم، فاستسلم ذاهباً إلى لذة الإغفاءة.

في تلك الليلة، وفي حيّ خلا من صراخ الأطفال، وصدى مطارداتهم لبعضهم، في الأزقة والطرقات، ومن صوت العربات والباعة المتجولين، وحديث الجارات لبعضهن من الشرفات والنوافذ، وصوت مذياع جاري وهو يرفع كعادته من حدة الصوت، نكاية بي، مستمعاً

لخطبة تتحدث عن عذاب القبر، وعن عقوبة الكتّاب على ما يكتبونه من فجور، ويَعِدُ الناس بالعودة لزمن سالف، ويهدد الكفار بالموت. في تلك الليلة بعينها، حيث مُنيت بما لم أتوقعه، كنت قد انتهيت من كتابة روايتي وتدقيقها، مستخدماً حاسوباً نقالاً، اشتريته بالتقسيط، رغم ضيق اليد، واتساع ثقب الجيب.

حينما أيقنت أنني أنجزت الرواية، ثم ختمتها بمفردة (تمّت)، عبأت رئتيّ بكمية من الأوكسجين، وحشرتها قليلاً، ثم زفرتها، وارتخيت في كرسيي، كمن وصل قمة جبل، وألقى ببدنه على التراب.

هممت بتحميل الرواية على البريد الإلكتروني، لأرسلها إلى الناشر، فأضع آخر نقطة في جهد عامين. لكني وجدت رصيد وصلة الإنترنت قد نفد، فأغلقت الحاسوب، وفي نيتي أن أرسلها صباحاً.

شعرت برغبة عارمة في تدخين سيجارة، غير كل تلك السجائر التي أتيت عليها بتوتر، طيلة فترة الكتابة، ما إن أشعلتها، وشربت ما تبقى من فنجان القهوة، حتى تناهى لمسمعيَّ صوت أم كلثوم قادماً من الصالة؛ إذ أعدت زوجتي «رحاب» باتفاق مسبق بيننا، لليلة حب، بعد شبه جفاء إجباري، شاب علاقتنا طيلة أيام كتابة الرواية، كما حدث أثناء كتابة الروايات السابقة. جفاء تحملتْ تبعاته، ووفَّرت لي، فوق ذلك، كل ما تستطيعه امرأة، من ظروف لروائي يحلم بكتابة رواية تحقق رواجاً.

كأن شيئاً بي كان يتنبأ بما سيحدث، كابدتُ خفقاً مباغتاً في قلبي، فأرخيت بدني لحضن الكرسي، ورحت أراقب الجدار الذي عُلِّقت بصدره صورة وحيدة لأمي، ضمها إطار خشبي مزركش، وغطاها

لوح زجاجي. بدت أمي كما يحدث لي كل مرة، تحدثني، فأُصاب بحالة لا تتحقق لنا، إلا ونحن نرخي رؤوسنا على صدور الأمهات، فيحملنا طير الأمومة، لنرانا في سماوات لم توجد إلا لصدى لثغاتنا الأولى. تذكرت وأنا أراقب الصورة، أنني طالما خططت للذهاب إلى معمل الصور الفوتوغرافية، لأقتني نسخة أخرى منها. لكن ذلك لم يحدث.

كان الجدار المقابل فارغاً، لم تملأه صورة، ولا لوحة كالتي كانت ستعلقها رحاب ذات يوم. عندما قالت لي وأنا أثنيها عن ذلك: (أنت تترك هذا الجدار لصورة أبيك الذي لا تعرف ملامحه يا خاطر.)

لم يكن قسوة ما لمسته من أمي، حينما كان وصفها لأبي شحيحاً في مرات قليلة حدثتني عنه؛ بل كان هروباً من صورة قاسية له، حاولت أن تبقيها بعيداً عن مخيلة لم تسعفني برسم ملامحه، حتى إن أهل الحي الذي عشت فيه سنينَ من عمري، في بيت جدي لأمي، بعد أن باعته – رحمها الله – لتسدد ديوناً تراكمت على جدي قبل مماته، لم يخبروني عنه شيئاً. لذلك توقفت أسئلتي عنه تماماً، من دون أن أتحقق من إحساسي، هل أحبه أم لا، رغم ما اعتراني من مشاعر في الليلة التي سبقت موت أمي، حينما روت لي الحكاية كاملة، وأخبرتني بما حدث لنا بسببه.

لم أسمع صوت طفليّ، وصدى مشاكساتهما، ورحاب تقمعهما بصوتها الهامس (إشششش بابا يكتب). أدركت أنهما انصاعا لحكاياتها المسلية عن شخصيات خرافية، مثل (نص انصيص، والغولة، وقرنزح وبرنزح)، وغرقا في بحر النوم، العميق.

بدا لي فضاء الغرفة مكتوماً، فوضعت السيجارة في طرف المنفضة، ثم نهضت أفتح النافذة، وأطرد سحابة دخان تحوم في المكان، ثم نظفت الحاسوب الذي جنّبني كثيراً من العناء فيما يخص الكتابة ومراسلة الناشر، ووضعته في حقيبة معدة له، وتركته على الطاولة يستريح من أصابعي، وهي تنقر في لوحة مفاتيحه، فتسطر أحلامي بهذه الحياة، وترسم بالكلمات شكلاً للوجع والفرح.

من الداخل سمعت رحاب تدندن بصوت جميل، كلمات الأغنية بمعية صوت أم كلثوم، الذي كان بادئة معرفتي بها، وحبي لها ومن ثم الزواج، قبل خمس سنين، من ذلك اليوم:

(هذه ليلتي وحلم حـــــيـــــاتي
بين مـــــاض من الزمـــــان وآت
الهـــــوى أنت كله والأمـــــاني
فـــامـــلأ الكأس بالغـــرام وهات)

شعرت وأنا أغلق الباب ورائي، بتوق شديد لها، كأنني في اللحظات الأولى لليلة الزفاف. عجّلت من خطواتي، فوجدتها عند باب غرفة الحمام، بكامل زينتها المتجددة، تماماً كوردة تتجه بوصلتها للماء دوماً. ترتدي بروتيلاً أبيض يكشف نصف صدرها، وتنورة زرقاء قصيرة، ارتفعت فوق ركبتيها، وفخذيها السمراوين المتناسقين مع خصرها، وطولها الذي طالما رأيته كلذة كلمة حب في فم عاشق لا يود الصمت.

فتحتْ لي باب الحمام، ثم طوّقت عنقي بيديها الناعمتين، وبدلال لم أحفل به طوال أيام كتابة الرواية الأخيرة.

حدقتْ بي بعينيها الناعستين، كشمس خدرة قبيل سقوطها في

جحر المغيب، وطبعت قبلة بشفتيها السمراوين، على فمي، فارتطم عطرها بجبين قلبي:

– سنحتفل هذه الليلة بقرب ولادة روايتك الجديدة، يا عين قلبي.

طوقتُ عنقها الطويلة بيدي، ولثمت فمها:

– بل سنحتفل بصبركِ الطويل، على زوج لا يرى منافذ للحياة سوى الكتابة، يا جناحيَّ الواسعين.

مررتْ خصلات شعرها على وجنتي، ثم همست ممازحة، فازداد توقي لها:

– شارف صبري على النفاد يا طفلي المدلل. اعبرْ إلى الحمام، وتخلص من روائح سجائرك، واحلق ذقنك الشوكي هذا، أنا بانتظارك.

خرجتُ من الحمام منتعشاً، بفعل زخَّات الماء الدافئ، والملابس النظيفة المعطرة، وعبق عطر جديد فاجأتني به، عندما وجدته قرب مرآة الحمام، ترفقه بورقة كتبت فيها عبارة لن أنساها:

(لمن يختار العطور، براءة اختراع لا تقل أهمية عن براءة ابتكاره. وللجسد الذي يستقبل العطر، براءة عظمى، بينما مسامه تتلقفه، وتصنع من إيقاعه عطراً جديداً، تماماً كشاعر يكتب قصيدة حرفها الأول في قصيدة يتداولها الناس).

على طاولة متوسطة الحجم، وضعت الأطباق وجهزت وجبة عشاء دسمة، مكونة من دجاج متبل بالزعتر البري، مشوي في الفرن، ونوعين من السلطة، وحساء من مرق الدجاج والخضار. أشعلت شمعة وقفت في منتصف الطاولة كنصب تذكاري لليلتنا، وسكبت لي الطعام:

– كل يا حبيبي، لقد خسرت كثيراً من وزنك أثناء الكتابة. وأنا

هنا مرسولة الطيبين، لأعيد لك صحتك، فأعيدك لنفسك كأنك ولدت للتو.

ضممت رأسها إلى صدري، أستزيد من مسرة كونية حظيت بها، وأتبرك بامرأة منحتني حباً، لا يساوي استمتاعي به، سوى متعتي بالكتابة. أكلت في ذلك المساء، حتى كدت أصاب بالتخمة. وضحكنا كثيراً، بينما رحاب تقلد شكلي أثناء الكتابة، وطريقة كلامي في تلك الأيام.

في السرير، بدت لي كأنها عذراء، ورأيتني عريساً يحظى بشرف العبور بها نحو مرحلة أخرى من الأنوثة. تضاجعنا لثلاث مرات، حتى توردت خدود الجدران من تأوهاتنا، فنمنا عاريين يحتضن كل منا الآخر، بعد أن همستُ في أذنها:

(الحب كفيل بإعادة العذرية للمرأة في كل مطارحة للغرام. إنه حري بأن يجعل الرجل يحظى بتلك النشوة، وهو يأخذ المرأة نحو آفاق جديدة، دون أن يعي أنه هو الآخر يذهب نحو فضاء جديد)

لكن ضجيجاً وقرعاً متتالياً على الباب، سَرَقَنا من نومنا الهانئ، أصبت إثره في بادئ الأمر، بذهول شديد. إلا أنني أدركت ما الذي يحدث وأنا أرى، وأشم الدخان القادم من الغرفة المخصصة للكتابة، والمقابل بابها لباب غرفة نومنا، والمجاور لغرفة نوم أطفالي. أدركت بفعل ثقل في حركتي، وضغط على صدري، وضيق في نفسي، أن حريقاً شب في الغرفة، فتذكرت من دون عناء، أنني نسيت السيجارة في طرف المنفضة، فطوحها الهواء وسقطت على الأرض، وحدث ما حدث.

دفعت رحاب بيدي، إلا أنها كانت في حالة إغماء، فحبوت بصعوبة نحو باب البيت، ساتراً جسدي بملاءة، وفتحته، أملاً بأن يجيء الهواء فينقذ النيام. وبالفعل تدفق الأوكسجين، وعبر المنقذون إلى الداخل.

أول شيء ما خطر في بالي بعد أن أخرجوا أطفالي ورحاب مغمى عليهم فاستفاقوا، صورة أمي الوحيدة، المعلقة في الغرفة، والرواية المخزنة في الحاسوب، دون احتفاظي بأي نسخة منها في قرص مدمج، أو أي مكان آخر من الأمكنة التي لم أسمع بأمرها، من قبل.

بعد أن استجمعت قواي، وجدتني أهذي وأنا أحاول التملص من أياد منعتني من العبور نحو البيت، (أمي....الرواية... أمي... الرواية). حتى أنني لم آبه بجسدي العاري وأنا أغير على البيت مرات، ثم أعود بفعل من كانوا يمنعونني من تهور، كان يمكن أن يودي بحياتي التي لم تكن تساوي شيئاً في تلك اللحظات العصيبة.

أحضر لي الجيران ملابسَ فستروا عريي، بينما النساء أخذن رحاب والأطفال، وزودنها بملابس، وأسقينها الماء.

عندما وصل رجال الإطفاء، كانت النار قد أتت على نصف مقتنيات البيت، بشراهة جائع لم يذق الطعام منذ دهر. أنفقوا ساعة من الوقت، قتلوا فيها ألسنة النار، فأنقذوا ما تبقى من الأثاث، وغادروا. حينها ركضت مسرعاً إلى الداخل، فعبرت الباب إلى الغرفة حيث كانت سوداء بالكامل، يجتاحها الرماد والدخان، ورائحة مواد الإطفاء مختلطة برائحة الحريق.

تهالكت على الأرض مذهولاً، عندما رأيت النار قد أتت على

صورة أمي كاملة، كأنها ماتت للتو، حينها شعرت بأن حقلاً من عشب يابس أخذ يحترق داخلي، وأنا أرى الصورة قد استحالت إلى رماد، فالصورة رديف ما تخبئه الذاكرة من تفاصيل وملامح.

ثمة صراخ لطفل، كان يجيء لحظتها من مكان خفي في الذاكرة، هو صوتي. وثمة صوت أم تهدهد طفلها بتلك الأغنيات التي تجيء محملة برتم حزن الأمهات، هو صوت أمي.

لملمتُ رماد الصورة، كأنني أشيع أمي للتو، وحملته بيدي، وأنا أرى الحاسوب قد تحوّل لقطعة بلاستيكية، منكمشة على بعضها، تشبه رأساً مشوهاً بعين واحدة، ليس فيه شَعْرٌ، سوى القليل من جهة اليمين، وبعض الخصلات الشعثاء من أعلى الرأس. وجه مخيف، رغم بشاعة شكله، إلا أنه كان يضج بالحزن والأسى والخسران.

يا إلهي أي قدر ذاك الذي حلّ بي، حين خسرتُ صورة، كلما وجدتني تائهاً احتضنتها، فيلملمني صوت أمي، الذي يشبه يداً تربت على كتف قلبي المتعب. أي قدر ذاك الذي منيت به، فتلاشت رواية، كانت يدها تمسك بيدي، وأصابعي تنقر لوحة مفاتيح الحاسوب، انتصاراً لحياة لن نمل من البحث عنها.

كنت أعتقد أن ما رأيته في تلك الليلة، أقسى ما يمكن أن يحدث لي، لكن ما حدث لم يكن إلا البداية، فقد كان الكلمة الأولى في كلام النار القاسي.

-٢-
كابوس غريب

«اعلمْ، أن وراء قفصك الصدري، عصافير لا يحس برفرفتها سواك، إنها حصيلتك من الأحلام الخضراء، في زمن تأكل فيه النار كل شيء. لذا كن صديقاً دائماً للماء»

خاطر

في اليوم التالي للحادثة، تبرع لنا أهل زوجتي وعدد من أهل الحي، بأثاث وأوان، وملابس ومبلغ مالي استعنت به فيما بعد، فرممت البيت وأعدت له شيئاً من حياة، كانت رغم بساطتها سر صبري على ما يحدث حولي من تقلبات. لكن ما من شيء كان له القدرة على ترميم بيتي الداخلي الذي طالته ألسنة النار أيضاً، والتهمت عصافير فيه، ربيتها سنين طويلة.

قام بعض من هم حولي بأكثر من محاولة لأتجاوز أثر ما حدث، كزوجتي وصديقي الشاعر زيدون المطاري، الذي قال لي وأنا أشرب العرق لأول مرة بمعيته، في حانة (أبو سحر):

– الصورة محض ورقة تعكس شيئاً من الطيف الأصلي يا خاطر. صورة أمك هنا في قلبك.

أزاح إصبعه عن صدري، واحتسى ما تبقى في كأسه، ثم أضاف:

– أما الرواية، فستكتبها من جديد لا محالة، فهي في ذاكرتك.

رحت في نشيج مر، بعد أن قلت، ويدي تضرب على الطاولة:

– لم تفهمني يا زيدون المطَّاري، لم تفهمني.

أمسك بيدي خوفاً عليها من شظايا كأس تناثرت على الطاولة:

– أفهمك يا صديقي، أفهمك. وأفهم لماذا كتبت تلك الرواية، ولماذا كنت تغامر بنفسك لإنقاذها، وإنقاذ صورة أمك.

ليلتها، شربت كثيراً، غير آبه بمحاولات زيدون في إثنائي عن شرب المزيد؛ إذ اعتقدَ أنني ثملت، حينما رآني أغني في الشارع بصوت عال، غير مهتم بمن عرفني، ومن لم يعرفني من المارة. كل تلك الكؤوس التي دلقتها في جوفي، لم تجعلني أحس بنشوة أي حزين ذهب بكل قواه لسلطة الخمر، وهي تقصي كل السلطات، وتأخذ البدن والعقل والقلب إلى فضاءات عبثية. بل على العكس من كل ذلك، فقد ازددت صحواً، وصرت أرى ما لم أره من ذي قبل، فرأيتني أجلس إلى طاولتي وأعكف على كتابة الرواية، لكنني لم أر في الصفحات سوى البياض.

عند باب البيت، غادرني زيدون المطاري، مطمئناً ومستغرباً، من أن الخمر لم يفعل بي فعله، ولم يفقد خطواتي اتزانها، فلم أتلعثم بالكلمات، ولم تترنح ذاكرتي.

كانت رحاب وطفليّ نياماً، لا يُسمع في صمت البيت سوى

صوت أنفاسهم. عبرت إلى المطبخ وشربت كأس ماء بارد، أطرد به نوعاً من العطش، اكتشفت أن الإفراط في شرب العرق يصيب الجسد به. بدلت ملابسي بحذر حتى لا أزعج نوم رحاب، التي تبدي استياءها لما يحدث لي، منذ ليلة الحادثة. تمددت على السرير أحاول النوم، لكنه تمنع عني، فذهبت إلى غرفتي حيث أثثت من جديد بمقاعد مستعملة، (وتربيزات) وزعتها رحاب في زوايا الغرفة.

ذُهلت لِما رأيت، عندما أشرعت النافذة وجلست في مقعد قربها، فتدفقت منها نسمة هواء لطيفة، فقد شاهدت ما تبقى من الحاسوب الذي تحول إلى شكل رأس مشوه، قد انتقل من خزانة المطبخ إلى غرفتي، وتحديداً، على (تربيزة) في الزاوية المقابلة لي.

نهضت من مكاني مفزوعاً، وأيقظت رحاب من نومها، وسألتها عن بقايا الحاسوب، فأخبرتني أنها في خزانة المطبخ، ثم عادت لنومها. حينما عدت إلى الغرفة وجدته ما يزال في مكانه، في الزاوية المقابلة لي حيث جلست.

قلت في نفسي: ربما أكون قد سكرت، ووصلت إلى مرحلة لم يصلها سكير من قبل. ألقيت ببدني تحت صنبور الماء في الحمام، ورشقته بزخات ماء بارد، ثم صنعت كوباً مركزاً من القهوة، وجلست في المطبخ فشربت نصفه، ودخنت عدداً من السجائر. ثم عدت إلى الغرفة، وإذا بي أجد الحاسوب قد انتقل إلى (تربيزة) أخرى، فتملكني الخوف ليلتها، وصرت أحلل ما يجري، وأعدّ من الواحد حتى المئة، وأختبر نفسي بتمييز الألوان، وأمشي في البيت أتعرف على تفاصيله، متأكداً من سلامة عقلي، فكانت نتائج الاختبار كلها جيدة، إلا من

كتلة الحاسوب المنكمشة، التي كادت تصيبني بالجنون، دون أن أصل لنتيجة تفضي إلى حقيقة حولها، فتمكن مني الخوف أكثر، من ذي قبل.

أطفأت ضوء الغرفة، وهرعت إلى السرير أحتضن رحاب، فضمتني إلى صدرها، وغفوت، وأصابعها تحك جلد رأسي القلق.

صبيحة اليوم التالي، اتجهت نحو الغرفة، وإذا ببقايا الحاسوب لا تزال هناك، كزائر ثقيل الظل لم يبرح مكانه. قلت لرحاب حينما كانت تعد الفطور، وتدندن بمعية كلمات أغنية فيروز، تحاول أن تضفي شيئاً من البهجة على البيت:

– أرأيت كيف اتخذت بقايا الحاسوب بعد الحريق، شكل رأس مشوه؟

ضحكت بطريقة لم تنه بها غناءها، ثم التفتت نحوي:

– يا حبيبي أنتم الروائيين ترون ما لا نرى.

– وما الذي ترينه؟

وضعت الأطباق على الطاولة، وقالت جادة:

– إنه محض كتلة بلاستيكية متفحمة يا خاطر.

قلت أفاجئها بما حدث لي البارحة:

– تعالي أريك ماذا حدث.

اقتدتها من يدها نحو الغرفة. هناك رحت أشير نحو (التربيزة):

– أترين؟

التفتت نحوي، بملامح غاضبة ومستغربة:

– ماذا أرى؟

حينها صعقت:

– لقد كان هنا البارحة. الحاسوب كان هنا، لهذا سألتك وأنت في السرير.

اقتادتني إلى المطبخ وفتحت باب الخزانة، وأشارت إلى حيث يوجد ما تبقى من الحاسوب:

– هذا ما كنت ستريه لي.

تعطل دماغي لحظتها عن التفكير، فاقتربتْ مني ثم احتضنتني، وقالت بصوت آسف:

– حبيبي، أرجوك لا تلق بالاً لهذه الهلوسة.

في ذلك اليوم التقيت زيدون المطاري، في حانة (أبو سحر)، وأخبرته بما حدث، لكنه هو الآخر، نصحني بأن أمنح بدني شيئاً من الراحة، حتى أتعافى مما أنا فيه.

***

غاب زيدون المطاري بعد ذلك اليوم، وما عدنا نلتقي، فقد أخذته الحياة في لجتها كما أخذت الكثيرين، فنسوا حتى أنفسهم. وعُيّنت رحاب معلمة في مدرسة الحي، بعد انتظار طويل على قائمة ديوان الخدمة المدنية، الذي شاب شعر بعض من أسماء قوائمه، ولم يصلهم دور التعيين. أصبحت تخرج صباحاً، وتعود بعد الظهر، تمر ببيت أهلها، تصطحب أطفالنا الذين تودعهم عند أمها كل يوم، ما عدا أيام نهاية الأسبوع، مبررة ذلك بمزاجي الذي تحول إلى سوداوي مفرط، عجزت عن مداواته. ليس بسبب سوء حظي في العثور على وظيفة، بعدما

كنت محرراً للأخبار في القسم الثقافي من صحيفة يومية، تخلت كمثيلاتها، عن أكثر من نصف موظفيها، لما لحق بالصحف من خسائر مالية، جراء إقبال الناس على الصحافة الإلكترونية، المتوفرة حتى على صفحات الهواتف النقالة، إنما أيضاً لخسارتي صورة أمي الوحيدة، التي ليس لها نسخة أخرى، ولفقداني رواية بينها وبين الصورة علاقة أمضيت سنتين أنتقي الكلمات، وأصنع المشاهد للقارئ، لأوضح شكل ذلك الرابط، وطبيعة مساهمتي بمداواة جرح غائر في نفس أمي، وفي نفسي.

مضى شهر، واستجمعت رحاب آخر قواها، فأمضت ليلة كاملة، بعد أن حاولت الترويح عني، فغنت ورقصت وقالت نِكاتاً، وتضاجعنا، ثم راحت تقنعني بضرورة تجاوز ما حدث، وبضرورة إعادة كتابة الرواية.

وبالفعل وجدتني ممتلئاً بطاقة الكتابة، فانعزلت في الليلة نفسها، وجلست إلى طاولة المطبخ، أجهز أمامي رزمة من الورق. وضعت رأس القلم في أول الصفحة، أستعيد بداية الرواية، وإذا بي لا أتذكر من أحداثها شيئاً، إلا عنوانها. استجديت ذاكرتي مراراً وتكراراً، لكنني وجدتها صفحةً بيضاء، فيما يخص أحداثها ومزاجها وكلماتها. تعجبت من ذاكرتي، ومما يحدث لها. تملكني الغضب والصراخ حينها، فرحت أهشم كل ما احتوته غرفة المطبخ من أثاث، وأوانٍ، إلى أن غفوت على صدر رحاب أنشج كالأطفال.

مضت الأيام وقد أصبحت أسيراً لمزاج حاد، تسيطر عليه الكآبة، وسجيناً في بيت أمضي فيه جل وقتي مستلقياً على الصوفة، عيناي تراقبان دونما إحساس، شاشة تلفاز لا تبث نشرات أخبارها، سوى

مشاهد من الموت في البلاد العربية وهي تحترق بنار الاقتتال والقمع، وولادة جماعات متطرفة تزداد كل يوم شهوتها للدم، ولجز الرؤوس، من دون الإمساك بالخيط الذي يمكن له أن يزيح الستارة عن زمن جديد، كفيل بأن يمنح البشر حق الحياة.

تملكني في تلك الأيام إحساس بأنني مفرغ من الداخل، وأنني مجرد كائن كرتوني، إن لم تطله النار ذات يوم، سيتفتق ويتهشم، جراء أي محاولة لدفعه أو لمسه. فازداد نحولي، وضاقت رحاب بي ذرعاً، فبات وجودي في البيت محض عقبة في درب حياتها؛ لذا قررت أن أغادره كل يوم، تماماً في اللحظة التي تعود فيها هي والأطفال، لأرجع في أواخر الليل، ألقي ببدني في السرير، وأغفو غير مبال بكلماتها وهي تردد (أنت تُضخّم الأمر يا خاطر).

وبالفعل رحت أمضي ذلك الوقت في حديقة بائسة بأطراف الحي، ساهماً، لا أفكر بشيء. لكن نومي لم يعد كما كان لرجل مثلي لفرط التعب، ما إن يلقي جسمه في السرير، حتى يروح في نوم يشبه الإغماء، بل أصبحت مستباحاً من قبل كابوس مرعب، أرى فيه ألسنة النار استحالت إلى أفاع مخيفة، بت أخشى النوم جراءها، وهي تأكل جسدي، ولا تترك له بقايا سوى الرماد، وأنا أصرخ، وأستغيث السماء أن ترسل أمطارها لتطفئ النيران، فتهرب تلك الأفاعي.

أصبحت رحاب في مزاج حزين لما يحدث لي، فلجأت لشيوخ قرؤوا علي كثيراً من آيات القرآن والتعاويذ، وعلقوا في ملابسي بعض التمائم. كما وأتت سيدة من أقاربي لسقايتي من طاسة الرعبة، التي يُسقى منها من يُصاب بأثر الرعب المفاجئ، لكن كل ذلك لم يمنع

أفاعي النار من تبديد نوم طالما هنئت به.

واظبت على الصلاة وقيام الليل، وقراءة القرآن الكريم، أملاً في أن أشفى من الكابوس، ومن شبح الكآبة، لكن الله لم يقيض لي شفاءً، فلجأت بعد أن ساءت حالتي إلى طبيب نفسي، أعطاني أكثر من نوع من العقاقير، أخذت تخدرني وتجعلني كالثمل، دون أن تفعل شيئاً إزاء آثار أفاعي النار وشبح الكآبة، فألقيتها في سلة المهملات.

تذكرت ذات ليلة، وكأن جزءاً من ذاكرتي احترق مع مقتنيات غرفتي، ونهض منها طائر الرماد فجأة، أن مشهداً قريباً من شكل أفاعي النار وفعلها بي، قد صغته في الرواية. بل دهشت لحال ذاكرتي، وأنا أتيقن أن الرواية حملت الاسم نفسه، (أفاعي النار). لذا سألت رحاب بلهفة عن اسم الرواية التي كتبتها، هل حقاً اسمها (أفاعي النار)؟. فردّت متعجبة:

(اسم الله عليك يا حبيبي من وين جبت هالاسم. روايتك اسمها «حكاية العاشق علي بن محمود القصاد»).

قالت ذلك، وضمتني إلى صدرها، تغالب دمعات سقطت على خدها الذي لم يعد متوردا كما كان من قبل، حسرة على حالي المتردية. لم أقتنع بما قالته، وبي يقين أنني كتبت رواية بعنوان (أفاعي النار)، خاصة بعد أن تذكرت طيفاً لشخصيتها الرئيسية، وهو رجل تعرض لحادثة حريق في منزله، فعاش عمره مشوهاً.

سألتها مختبراً ذاكرتي، هل حقاً أن اسمها رحاب. وسألتها عن أسماء أولادي، وأسماء الشوارع والأحياء، والجيران، وأصدقائي، وأسماء كتب قرأتها، وتواريخ حروب، وأسماء جماعات دينية متطرفة،

وأرقام لقرارات مجلس الأمن، وتواريخ استقلال لعدد من الدول، ثم عن كلمات قصائد مشهورة. فردت بالإيجاب. فأيقنت حينها أن ذاكرتي بخير، إلا من اسم الرواية، وأحداثها، وما يتعلق بها.

قلت في نفسي، ربما أن ما يحدث لي، ما هو إلا شيء من الآثار السلبية، لشبح كآبة فقدان الرواية وصورة أمي، ولما يفعله بي كابوس أفاعي النار؛ لذلك قررت أن أجهد نفسي، حتى أنام بعمق، لعلِّي أقصي ذلك الكابوس، الذي ما تهاونت أفاعيه في أكل عصافير نومي. فلجأت لعادة المشي، وقد انقطعت عنها منذ أن أخذتني دوامة الكتابة، التي ما توقفت عن رؤيتها كنافذة مطلة على الحياة.

أغلقت باب البيت، ويممت شطر مدينتي، التي لا تبتعد كثيراً عن الحي الذي أعيش فيه. لكنني لم أكن أعلم أنني سأمشي نحو أغرب ما يمكن أن يحدث لواحد مثلي.

-٣-
ما حدث تحت شجرة التوت

«لا تبتئس، الشيء الذي فقدتَه، لم يتلاش، فقط هو في مكان أنت لا تعلم عنه، وعثورك عليه مرهون بمدى حبك له»

خاطر

دخلتُ المدينة من جهتها الشرقية، فوجدتني في نهر زحام طالما جرّ روحي، بسلطة تياره الذي عادة ما يؤول إلى معنى استثنائي، في فوضاه الغريبة، حيث الأسواق الشعبية تعج بروائح عديدة، كروائح خضار تُعرض في بسطات على جادات الطرق، وروائح التوابل، ورائحة قلي الفلافل، وعبق العطور الرخيصة، وروائح تبغ (المعسل)، ورائحة عوادم السيارات الحريفة.

بدت الأصوات القادمة من فم الزحام، محض توليفة غريبة من نداءات بائعي الخضار، وأصوات كاسيتات ينذر المتحدثون فيها، بيوم القيامة وبالعذاب الأليم، وأصوات موسيقى أغنيات شعبية راقصة، وصدى مزعج لأبواق سيارات، ما عاد في الأيام الأخيرة لسائقيها صبر يتفادون به كثيراً من العراكات الاجتماعية، التي حدثت لأسباب

تافهة، فمات جراءها شباب، وترسخت ثارات بين آخرين، لا تنتهي بالعادة إلا بضحية، وبفاجعة.

ذرعت الشوارع مشياً، أطلب الإجهاد لبدني، عبر سيل من وجوه متعبة، متسائلة، وعيون ترصد اهتزاز مؤخرات النساء، وانحسار قميص ربما يكشف عن نهدين، أو جزء منهما، بينما أجساد تقوم باحتكاكات عفوية، وأخرى مقصودة، وشباب يطلقون علناً تأوهات تشي بعطش أبدي، وآخرون بلحى طويلة وثياب قصيرة، يستغفرون الله ويسرعون الخطى.

بعد ساعات من المشي، مالت الشمس عن مستقرها في نصف السماء، حيث أخذت حالات الظهيرة تتراجع، وراح عدد من أمّوا شوارع المدينة وأسواقها وحاراتها يتناقص؛ إذ عبرتُ الشطر الغربي منها، فوجدتني في حي بدت بيوته قديمة، يترامى حولها الظل والهدوء.

أخذ التعب من جسدي حصته الوافرة، وبدأتْ خطواتي تترنح يميناً وشمالاً. ثمة فسحة صعدت منها شجرة توت معمرة، كأنها تعود لأول لحظات الحياة، تمدد ظلها على بساط من العشب، وعانقت أغصانها جدار بيت قديم من بيوت الحي، له طابقان، وشرفة سيجتها قضبان معدنية، رغم الصدأ الذي هاجمها وبدل لونها، إلا أن تشكيلاتها الفنية البسيطة بدت جميلة.

تملكني إحساس بأنني أعرف هذه الشجرة، وهذا البيت، أو أنني زرته من قبل، فشككت بأمر ذاكرتي التي ما عاد يعجبني حالها؛ إذ إن أصواتاً مبهمة كانت تصارع صخرة كبيرة في ذاكرتي، لتخرج للعلن، ورأيتني عبر مخيلتي، عارياً أطارد ورقة سقطت من شجرة التوت، وأخذ

الهواء يهبط ويعلو بها، ثم وجدتني أستر عورتي بيدي.

أرخيت بدني على جذع الشجرة الضخم، متجاهلاً ما شعرت به، فأشعلت سيجارة، ورحت أراقب البيت الذي خلا من أي أمارات على الحياة، إلا من كرسي وطاولة صغيرة، وضعت عليها منفضة سجائر، إلى جانبها كأس ماء بدت نصف ممتلئة.

راحت عيناي تنوسان شيئاً فشيئاً، كأن تعب كل وقت كتابة الرواية، وأيام ما بعد حادثة الحريق، قد استباح جسدي مرة واحدة، فما عاد له حيلة على احتماله، إلى أن غفوت متلذذاً بتلك اللحظات الأولى للنوم، غير آبه بنومي قرب شجرة في حي هادئ، لا أصوات فيه سوى أصوات عصافير دوري، بنت أعشاشها بين فتحات أحجار ذلك البيت القديم. لكن تلك الإغفاءة لم تطل،كما كنت أمني نفسي المتعبة، فاستيقظت على صوت عدد من الفتيات والفتية، وهم يقتربون من الفسحة التي نَمَت فيها الشجرة. أسندتُ ظهري على جذعها، وفركت عيني بظاهر يدي، لأرى امرأة نحيلة الجسد، بيضاء البشرة، بدت لي في أواخر الأربعين من عمرها، غزا الشيب، على غير أوانه، شعرها المعقوص خلف رأسها، ترتدي نظارة بإطار سميك أمام عينين رغم ذبولهما، إلا أن جمالاً خفياً لاح فيهما واضحاً، تلبس فستاناً، وردي اللون، تجلس أرضاً، ويتكئ جسدها على الطرف الآخر من جذع الشجرة، وترخي يديها على عكازها، الذي لم يبد لي مناسباً لعمرها.

جلت ببصري المكان والصمت يحتله، فرأيت تسعة من الفتية والفتيات والفتية يراقبونني بحذر، وخلف عيونهم ضحكات كبيرة تكاد تتفجر مرة واحدة. لكنني قدرت أن ذلك لن يحدث، لخشيتهم من

المرأة التي كانت تنظر إلى ظاهر يديها المنبسطتين على مقبض العكاز. تنحنحتُ لعلي أشعل فتيل الحديث وأفهم ما الذي يجري، لكن ما من أحد تفوه بكلمة واحدة.

حدقت بي المرأة من وراء نظارتها بعينين فيهما نوع غريب من الغضب، كأنها تتوعدني بمصير ما، جراء فعلة لم أدر ما هي، ثم أشاحت عينيها عني، وأخرجت من جيبها كيساً قماشياً مطرزاً بكلمات لم يسعفن بصري لقراءتها، حيث فقدت نظارتي في حادثة حريق بيتي.

على مهل فكت وثاق الكيس، وأخرجت دفتر ورق للسجائر، وثنته بين إصبعيها، الشاهد والوسطى، ونثرت فيه قليلاً من التبغ، ولفّته مستعينة بإبهامها، ثم بللته بقليل من ريقها، فاستحال إلى سيجارة أشعلت رأسها بولاعة فضية اللون، تعمل بالكاز، وهي تتمتم، مخاطبة نار الولاعة:

(تبّاً لك أيتها الشرهة).

ألقت بنزق الولاعة في الكيس، وشهقت من السيجارة نفساً عميقاً، ثم زفرته في الهواء، بينما الفتية والفتيات يراقبونني تارة، وينظرون إلى وجهها تارة أخرى.

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟

جاءني صوتها الناحل، كأنه صوت راع أدمن الصياح على شياهه. فلم أستطع إجابتها في البدء، ليس لغرابة السؤال لرجل أضناه التعب، فانتبذ مكاناً ليستريح به، بل لشيء غريب لم أفهمه في شخصية تلك المرأة، جدد بي نزعة الفضول التي عادة ما تراود الروائيين.

قالت تبدد سهوي:

– هل أنت أصمّ؟ لماذا لا تجيب على سؤالي؟

رحت أعدل من هيأتي في الجلوس، وأنظر إليها بعينين مستكشفتين:

– تعبت فأرحت بدني في ظل هذه الشجرة.

أرخت رأسها على مقبض العكاز، وقالت، غاضبة:

– ألا تعلم، كسائر أهل هذا الحي وهذه المدينة، أن هذه الفسحة في ظلال هذه الشجرة التي تقع في حرم بيتي، لا يطؤها أحد في هذه الساعة؟

قلت معتذراً:

– لم أقصد أن أنتهك حرمة هذا المكان.

التفتت إليَّ ومن عينيها يتطاير شرر الغضب:

– ومن أنت حتى تنتهك الحرمات، الحرمات مصونة أيها الرجل الخرف، أنا أتحدث عن اللباقة.

هممت بالاعتذار مرة ثانية، لكنها قاطعتني:

– يبدو أنك لا تعرفني، ولا تعرف بأمر هذه الشجرة، وأمر هذه الساعة.

صمتت برهةً من الوقت، ونظرتْ في وجوه الفتية والفتيات، الذين كانوا يجلسون قبالتها بشكل نصف دائرة، ثم أضافت:

– في هذا الوقت من كل يوم، وفي هذا الحي تحديداً، ألتقي بهؤلاء الفتية والفتيات منذ سنين طويلة، لا نفعل شيئاً سوى سرد الحكايات، لكنها ليست أية حكايات. عرفتهم منذ كانوا أطفالاً، فرويت لهم كثيراً

من حكايات الأولين، والحاضرين، من العرب والعجم، وها هم الآن قد كبروا.

أصابني الفرح لما سمعت، لكني أخفيت ملامحه، فما بان في وجهي. فهي لا تعرف بأنني روائي، أدمنت الحكايات منذ كنت طفلاً، بسبب البيت الذي عشت فيه.

زحفت نحوها، أنوي التحدث إليها، لكنها أومأت لي بيدها:

– لم يتجرأ أحد على تعكير صفو مجلسي قط، وها أنت اليوم تعبث بما اعتدنا عليه منذ سنين. هذا اليوم الذي قررت فيه أن أنهي مجلسي هذا، بأول جزء من أجزاء حكاية سوف تكون خاتمة ولعي بالحكايات.

– لكنني لست غريباً، أنا ابن هذه المدينة.

بدا صوتها عاتباً أكثر مما هو غاضباً:

– كيف تصف نفسك بابنٍ لهذه المدينة ولا تعلم بأمري؟

غادرتني الإجابة التي كان من الممكن لها أن تجعلها تقبل بي مستمعاً في جلسة، أيقنت أن كثيراً من المتعة والاستفادة لروائي مثلي، قد فاتتني وأنا بعيد عنها.

قالت لي بلهجة آمرة، وهي ترفع إصبعها بوجهي:

– غادر الآن. لن نسمح لك بتعطيل جلستنا.

كدت أخبرها بأنني روائي وحكّاء مثلها، لكني خشيت من غضبها، فقلت متوسلاً:

– أرجوك يا سيدتي، أنت لا تعرفين مدى حاجتي لجلسة مثل هذه، سأبقى مستمعاً من دون مقاطعة، أعدك بذلك.

حدقت مستغربة في عيني هذه المرة، وبنظرة غادرها الغضب، الذي لمسته في أول الأمر، كأنها تفتش في دفتر وجهي عن دليل يشير إلى صدق حاجتي لجلستها. مدت يدها الموشى ظاهرها بنقوش خضراء بدت على شكل تمائم، ومسحت رأسي أكثر من مرة، وهي تغمض عينيها، بحيث استحال وجهها إلى وجه طفلة بريئة:

– حسناً يا خاطر، أقبل بك مستمعاً في جلستي، في مثل هذا الوقت من كل يوم، شرط أن تبعد عن هذه الجلسة أي شيء من نتائج هذا العصر، الذي لم يعرف من التطور سوى القشور.

صعقت عندما سمعتها تنطق باسمي، ورحت أتساءل بسري، كيف عرفت هذه المرأة اسمي؟ ثم رحت أفكر بأمر شروطها، إذ لم أفهم ما عنته، لولا تبرع فتاة بدا لي أن عمرها شارف على السادسة عشرة، حين أخبرتني أنني يجب أن أغلق هاتفي النقال، أو أي حاسوب متنقل، أو (تابلت)، وأضعه في سلة قش علقت في خطاف معدني في سور البيت. وبالفعل أغلقت هاتفي على عجل وألقيته في السلة، وعدت أجلس وراء الفتية والفتيات. حينها أشارت الحكاءة بعكازها:

– لا، لا تجلس في الخلف، بل أكمل الدائرة. فللآدمي دور إكمال الدائرة، ومن هو خارجها فهو هامشي. لا تكن ذكورياً متسلطاً يجلس أماماً، أو مهزوماً خانعاً يجلس في الخلف.

جلست كما طلبت مني، مكملاً دائرة من الفتيات والفتية، بلغ عددهم بالإضافة لي عشرة. بينما يسود الحي سكون لا يتخلله صوت سوى صوت عصافير الدوري، وهي تطير من الشجرة إلى أعشاشها، في ثقوب في بيت الحكاءة.

لفت سيجارة أخرى، وأخذت تدخن بعد أن أشعلتها، ثم قالت:

– سأمهد هذا اليوم لأول جلسة في حكايتي الأخيرة، لكنها ستكون حكاية مختلفة، مغايرة، لا تشبه الحكايات التي مضت. هذه المرة سأسرد لكم ما لم يسمعه أحد، حكاية لم أر أحداثها بعيني، لكنني رأيتها في منام من مناماتي الكثيرة.

كنت أنام يومها على سطح البيت، هرباً من الحر الشديد الذي بات يداهم العالم لاتساع ثقب الأوزون كما يزعمون. فقد رأيت في منامي ناراً تشتعل في بيت، ورأيت رجلاً يحترق. كنت، كما رأيتني، بهيئة وحالة لا تأكلها النار، كأنني ملاك خلق من طيف لا حيلة لشيء على تبديده. فعبرت البيت خلال ألسنة اللهب والدخان، وحملت الرجل الذي كان قد تشوه محترقاً، ووضعته خارج البيت، ثم عدت لأطفئ ناراً وجدتها لا تأكل مني شيئاً، كأنني أصبت ببركة أبينا إبراهيم.

عندما فرغت من دحر ألسنة النار، وجدت دفتراً للرجل كان قد دوّن فيه كلاماً، أدركت فيما بعد أنه يكتب حكايته. لكن ورق الدفتر لم يحترق كاملاً لتراصه فوق بعضه البعض، إلا أطرافه، فضاع جزء من كلماته، وعدد قليل من صفحاته الأولى والأخيرة، إضافة إلى تشوه الكثير من الكلمات بفعل الحرارة والرماد، وسوء خط ذلك الرجل. حملت الدفتر وخرجت لأفاجأ بأن الرجل قد اختفى، كأنه لم يكن.

فتشت عنه حول البيت، وفي الأماكن القريبة فلم أجده، حينها غادرت، فرأيتني في بيتي أعيد كتابة حكايته، وأعبئ الفراغات الكثيرة، بما يمكن أن يجعل الحكاية متماسكة، مستعينة بما اكتسبته من

خبرة في الحكايات، لما تربيت عليه، ولقراءاتي الكثيرة، في ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والتراث السردي العربي، وقراءاتي لدستويفسكي، وموبسان، وتشارلز ديكنز، ونجيب محفوظ، وحنا مينا، وغالب هلسا، وفيكتور هوجو، وألبير كامو، وآخرين. ومبتعدة عن أجواء من كتبوا الحكايات، وهم ينظرون إلى الحياة عبر النافذة، دون أن يكونوا في عمق الحياة ذاتها.

الغريب في الأمر يا أبنائي، أنني عندما استفقت من ذلك المنام الطويل، متعرقة وعطشى لكأس من الماء، وجدتني قادرة على سرد الحكاية كأنني كتبتها. أو كأنني أقرأ من الورق الذي رأيته في المنام. اختبرت ذاكرتي أكثر من مرة، فرحت أسرد لنفسي أحداثاً من صفحات متفرقة، فلم أخفق. لذلك سأبدأ غداً بسردها عليكم، كما رأيتها في المنام، لكن ليس كما كتبها ذلك الرجل الذي كان يتحدث عن نفسه بصوته هو، كما لو أن آلافاً من الناس يطلّون من وراء كتفه ويقرأون ما يكتب، فيستمعون له. بل كما أعدت كتابتها وكأنني جزء من تكوينه. وكما أضفت إليها، ما ملأ فراغات في سطور سرقتها النار، فأصبحت حكاية متماسكة.

سألتْ فتاة:

– هل هنالك من اسم لهذه الحكاية؟

صمتت الحكاءة برهةً، ثم قالت بعد أن تنهدتْ، وملامح حزن عتيق في عينيها، كاد أن يُخرج الدمع من مآقيه:

– الحكاية يا أبنائي عنوانها (أفاعي النار).

كدت أجنّ حين سمعت عنوان روايتي التي فقدتها في حادثة

حريق بيتي، ولم تصدقني رحاب عندما أكّدتُ لها ليلة أن سألتها، أن هذا هو عنوان الرواية. وكـدت أنهض وأركل بقـدمي تلك المرأة التي ستروي أحداث روايتي. لكنني تحليت بالصبر وطول البال والحكمة، وأنا أجد ضالتي، لاستعادة أحداث روايتي من جديد.

بعد أن أنهت جلستها، وغادر الفتية والفتيات، وبقيت جالساً في مكاني أحاول استيعاب ما يجري، رمقتني الحكاءة، بنظرة غريبة لم أستطع فهمها، عندما كانت تتوكأ على عصاها لألم في قدمها، وتغادر نحو بيتها.

لحقت بالفتيات والفتية الذين لم يبتعدوا كثيراً، وعرفتهم بنفسي من جديد، ثم أكملنا طريقنا، نمشي ببطء عبر زقاق الحي الذي أخذت الأصوات تعود له، كأنها توارت إلى أن تنتهي جلسة الحكاءة.

سألتني إحداهن وهي تعيد تشغيل هاتفها النقال:

– ما طبيعة عملك؟

– كنت صحافياً في جريدة، استغنتْ عني وعن عدد من الزملاء، بعد أن تراجعت نسبة مبيعاتها. فرُحت إثر ما ربحته من وقت الفراغ، أمضي جلَّ وقتي في كتابة روايتي.

أشـاحت بصـرها عن هاتفـهـا النقـال، وحـدقت فيّ بعـينين مستفسرتين:

– أنت روائي، أيضاً؟

– نعم روائي، أصدرت عدداً من الروايات.

قال شاب من أولئك الذين التزموا بجلسات الحكاءة منذ سنين:

– قرأت الكثير من الروايات، لكني وجدت ضالتي، في جلسات

الحكاءة. ثمة روح حية أحسها أثناء سردها لما تقول، وروح محلقة فيما ترويه من حكايات.

قالت الفتاة ونحن نتجاوز الحي ونوغل في الزحام، بعد أن غادر الآخرون:

– لكننا على ما يبدو سنحظى بحكاية مختلفة هذه المرة.

فكرت قبل أن نفترق، أن أسأل الفتاة أوالشاب عن سر تلك المرأة وما وراءها. لكنني أقلعت عن تلك الفكرة التي لم تكن صائبة، لأن سؤالي كان يمكن أن يصل لتلك الحكاءة الغريبة، التي أمضت معهم سنين بحجم عمرهم، وبالتالي ربما أخسر فرصة استرداد روايتي.

***

عندما وصلت البيت، أخبرت رحاب بما حدث لي، وبدت غير مصدقة ما قلته، حتى إنها اعتقدت أنني قد جننت. لكنها تراجعت عن نظراتها المشفقة، وراحت تبتسم بوجهي بعد أن جهزت الغرفة لأعتزل فيها، بعد عودتي من كل جلسات الحكاءة، وأنقل ما أسمعه منها على الورق. فساعدتني على نقل طاولة المطبخ وأحد مقاعدها إلى الغرفة. وضعت لي الورق على الطاولة، إضافة إلى دواة حبر وريشة، كانت هديتي لها عندما تخرجتْ في الجامعة.

مكثت في ليل ذلك اليوم في غرفتي لساعات، خرجت بعدها وبيدي ورقة كرتون مقوى، عندما رأتها رحاب قالت فرحة:

– هذه أمك يا خاطر. ها أنت رسمتها.

أخذت رحاب اللوحة التي رسمتها بالرصاص، مستثمراً موهبتي

في الرسم، وعلقتها في مكان صورة أمي نفسه.

– الآن كل ما عليك، هو الكتابة يا خاطر.

المبهج في الأمر، أنني نمت دون أن يهاجمني كابوس أفاعي النار. فقرّت عيني، وأصاب الهدوء أهل بيتي.

حكاية العاشق

علي بن محمود القصّاد

يلمع الحب، كلؤلؤة في ظلام القلب البشري.
طاغور

-١-
مَرابح الخاسر

النار لا تأكل إلا مـــا تراه العين، لذلك تصاب بالجنون، حينما لا تجد سبيلاً إلى ما نداريه في دواخلنا

علي بن محمود القصاد

كنت أول من وصل شجرة التوت، حيث استلقت على الأرض ظلالها، وأخذت شكلاً شبه دائري. ما هي إلا دقائق حتى أطلت الحكاءة، من بوابة (حوش) بيتها، تغذ خطواتها بتمهل، وتستعين بعكازها العتيق ذي اللون البني، المزركش بنقوش حفرت في بدن الخشب.

من طرقات تفرعت من الحيّ، أطلَّ الفتية والفتيات. ذهبوا إلى سلة القش، ووضعوا مقتنياتهم من أدوات اتصال العصر الجديد، وجلسوا تحت الشجرة، يشكلون نصف دائرة.

في طريقي نحو الحي، فكرت في أن أستخدم هاتفي النقال لتسجيل ما سترويه الحكاءة، خوفاً من لحظة شرود يفوتني فيها شيء من الحكاية، لكنني خشيت افتضاح أمري، وبالتالي خسارتي لاستعادة

الرواية، فنهضت وأودعت السلة هاتفي النقال بعد أن أغلقته، وعدت إلى مكاني أتهيأ لتلقف الحكاية.

أشعلت الحكاءة سيجارتها، بعد أن جلست متكئة على جذع الشجرة، تمد قدميها إلى الأمام، وتمسك عكازها بيد، وباليد الأخرى تمسك السيجارة، ونحن نراقبها، وننتظر أن تنطق بأولى كلمات حكاية، زرعت في أرض مخيلتنا أولى بذور الشوق لها.

عدلَت من جلستها، مسندة ظهرها إلى جذع الشجرة، وراحت تمسح المدى المترامي وراء البيوت، بنظرة عميقة من عينين يتوارى وراءهما حزن عتيق، وقالت:

كان الوقت ليلاً، والأوان صيفاً، تشتعل فيه عمّان مصابيحَ، وزحاماً، وضجيجاً. فقد عجّت الشوارع والطرقات، بالسيارات وبالمارة وبالمصطافين هروباً من درجات حرارة ملتهبة، تكاد في النهار تسلق البيضة، وتجفف ماء العين، فترتبك سنّة الوقت، ليصبح النهار ليلاً والليل نهاراً.

سطع اللون الأحمر في شاشة إشارة ضوئية نصبت في وسط البلد، فتوقفت السيارات تنتظر انبلاج الأخضر.

نحو أول سيارة تقف على أهبة الانطلاق، مشى رجل يشارف عمره على الخمسين، بثياب رثة، وبخطوات مترنحة ثملة، ثم توقف عند نافذتها التي جلس وراء مقودها رجل بثياب زاهية، فاح منها عطر فاخر، ينفخ ما بين الحين والآخر دخان سيجار من ذلك النوع الثمين، يحدث امرأة عشرينية تجلس إلى جانبه، ويعبث بسلسلة ذهبية تدلت من عنقه، بينما كانت المرأة تطلق ضحكات مغناجة، وهي تداعب

خصلة شعر انسدلت من وراء أذنها، حيث هوى منها قرط ذهبي، يهتز لحركاتها الكثيرة.

مدَّ الرجل يده المرتعشة متسولاً، فانطلقت صرخة رعب مفاجأة من فم المرأة، ومن ثم بصقة من فم السائق، ودفعة قوية من يده للمتسول، قبل أن تشتعل الإشارة بالأخضر، فتنطلق السيارات ميممة شوارع المدينة المزدحمة، ومحركاتها تطلق أناتها المتفاوتة.

تحت مصباح الشارع الساطع، كان المتسول ما يزال على أرض الرصيف متهالكاً على نفسه بفعل السقطة المباغتة، عندما التفت إلى اليمين يتفقد كوعه الذي جرح، بأصابع لم تكن متسخة كباقي المتسولين، والتي لم تستطل أظافرها بل شذبت بعناية، بان وجهه المرعب تحت الضوء أكثر من ذي قبل، فبدا جلد وجهه منكمشاً على بعضه، ليس له سوى عين واحدة بلا حواجب ولا رموش. لا وجود لعينه اليمنى، فانثناء الجلد طمر ما تبقى منها، فبدا أعورَ. لم يَنْمُ شعر ذقنه إلا من أعلى صدغه الأيمن، ومن أسفل صدغه الأيسر. فتدلى ما نما من شعر الذقن حتى وصل صدره، مبروماً كأنه حبال كتانية غمرت باللون الأسود. ليس في رأسه شعر، سوى قليل هبط حتى كتفيه من جهة الرأس اليمنى، وبضع خصلات في مساحة ضئيلة من أعلى رأسه، تدلت على ظهره حتى وصلت خصره. فبدت بشعة وهي تنمو في جلد رأسه المشوه، كحال رقبته الذي كان جلدها منكمشاً هو الآخر كقطعة بلاستيك شوهت ملامحها النار.

توقف سيل السيارات الهادر مرة أخرى عند الإشارة. ثمة ولد سأل

أباه بصوت مرتعد خائف عن ذلك الرجل، فأجابه بعد أن أشاح بوجهه عنه بعيداً (يلقبونه يا ولدي بأبي حُطَمة. يقال إنه تعرض لحريق، نجا منه بأعجوبة).

(أبو حُطَمة)، لا أحد يعرف من أطلق عليه ذلك اللقب المزعج، الذي ما هو إلا أحد أسماء النار. إنه ضحيتها، فكيف تُربَط الضحية باسم من آذاها، إلا إذا قُصد المفهوم الشعبي لها، كمن يطلقون على من تعرض لمصيبة، (أبو المصايب). عرفته عَمان منذ أن أتى إليها بهيئته الغريبة، وجسده الذي أكلت منه النار الكثير، فسطت على ملامحه، في حادثة لا يعلم أحد عنها شيئاً. فلا أصدقاء له ولا أقرباء في هذه المدينة، التي خبرته صامتاً لا يتحدث إلى أحد، حتى خاله الناس أخرس. ورغم بشاعة شكله الذي لا يقوى الكثير على النظر فيه، ومنظر ملابسه الرثة القديمة، إلا أنَّ أحداً لم يعب نظافته؛ ففي قبحه شيء جميل خفي، لم يلحظه إلا من تخطى الخوف من منظره، ودقق بطباعه وحركاته. فلم يحدث يوماً أن ألقى بشيء في عرض الشارع، حتى لو عقب سيجارة. ولم يحدث أن خالف قانوناً ما، حتى إن عمال المطعم الوحيد الذي يرتاده، سخروا منه وهو يشير لهم طالباً شوكة وسكيناً، وورق (كلينيكس)، عندما قدموا له أول وجبة، بعد فترة من ظهوره في المدينة.

رآه البعض يحمل صحيفة ويعود إلى مكان إقامته، وآخرون شاهدوه يقف عند بسطات الكتب وأكشاكها، لأكثر من مرة. وهنالك من صادفوه في مرات أخرى يشتري كتباً ومجلات. وقيل إن أناساً رأوه يمشي خلف مظاهرة قرب المسجد الحسيني، يرفع قبضته ويحرك شفتيه

المشوهتين، بكلمات هتاف تنتصر لشهداء فلسطين، في ذكرى هزيمة ٦٧ . إلا أن كل ذلك لم يشفع له، فقد لفظته المدينة ورفضته كما لم يتوقع. قيل إنه حاول إيجاد عمل يعتاش عليه، لكن ما من أحد كان يقوى على النظر في وجهه ويقبل له طلباً.

سخر منه البعض، وضربه البعض الآخر. شتمه عدد من الأطفال، وطرده آخرون من أكثر من مكان، خوفاً على النساء والأطفال من شكله وهيئته، إلا (أبو أحمد) صاحب كشك الكتب، الذي تدبر له عملاً لا يتطلب الظهور أمام الناس، حينما رآه يقرأ صحيفة بالفرنسية، فعلم أنه يتقنها، فطلب من صحفي يتردد على الكشك لاقتناء الكتب، أن يساعد (أبو حطمة) فعاد الصحفي بعد أيام يحمل أوراقاً باللغة الفرنسية، كان على (أبو حطمة) أن يترجمها، ومنذ ذلك اليوم صار له عمل، لكنه لم يدم طويلاً. فقد اعتذرت الصحيفة عن عمله، لتردي حالها، كباقي الصحف. فلم يجد حينها سوى أن يمتهن التسول لساعات قليلة في بعض الأيام، راضياً بما يجنيه. رغم الصراع الذي كان يعانيه جراء مهنة وضيعة قاسى بسببها معاملة ازدادت سوءاً، خاصة عندما أخذ يشم (الآغو)، طالباً النسيان والابتعاد عن حالة حزن تقيم في قلبه، وعما رآه في مدينة لم ينكر حبها.

نهض بصعوبة من الرصيف، وعبر الشارع مترنحاً بين صدى أبواق السيارات، وصرير كوابحها، وصهيل راديوهاتها، التي تبث أغاني صاخبة بأكثر من لغة. كانت ذاكرته تنفتح على مشاهد له، وهو يدخل جامعة فرنسية، وفي يده حقيبة جلدية من طراز رفيع، يرتدي بذلةً

بربطة عنق، وينتعل حذاءً جلدياً لامعاً. سمع صدى خطواته وهو يتجه نحو مكتبه، في ممر ترددت عبره أصداء عدد من التحيات (بونجور مسيو علي، بونجور دكتور علي، بونجور).

ما إن استقر على الرصيف المقابل، حتى تفقد جيبه، وإذ به يحتوي عدداً من الدنانير وبضع قطع نقدية جمعها طوال ساعات تسوله. أعادها إلى مكانها، ثم أخرج من جيبه الآخر كيساً بلاستيكياً، فيه كمية من سائل (الآغو)، وضعه عند أنفه وفمه، وراح يستنشقه بعمق لمرات، ثم مشى بخطوات مضطربة أكثر من ذي قبل.

مر بالمطعم الوحيد في المدينة، الذي يقبله كزبون يأكل ما تبقى من الطعام، على طاولة قصية في مخزن مؤن المطعم، دون أن يتقاضى منه صاحب المكان أي ثمن لما يأكل.

استخدم الباب الخلفي للمطعم كعادته للدخول. وقف إلى صنبور الماء في حمام يستخدمه عمال المطعم. رشق وجهه بقليل من الماء، ومسح رأسه بشيء منها، ثم نظر إلى وجهه في صفحة المرآة المتسخة. عبأ يده بقليل من الماء ثم نظف المرآة وجففها، بورقة من صحيفة كانت هناك.

نظر في وجهه متأملاً ملامحه، مكابداً أمواجاً من الحزن تتلاطم على صخرة يقينه بهذا العالم.

على طاولة وضعت قرب نافذة صغيرة تطل على الشارع، وضع عامل المطعم صحن أرز سكب عليه شيئاً من صلصة الطماطم بالفاصولياء، إلى جانب كأس من الماء، وملعقة، وغادر.

جلس إلى الطاولة، ثم غرف بالملعقة قليلاً من الأرز، لكنه أعادها

إلى مكانها، بعد أن اقتربت من فمه. وفي دواخله يحس بصوت مستمر لزجاج يتهشم. نهض وأعاد الكرسي إلى مكانه دون أن يحدث ضجيجاً، ثم غادر.

عَبَرَ الشارع الذي يقع فيه المطعم، ثم تجاوز ما تبقى من الزحام، فوصل الحي حيث يعيش في غرفة أسفل عمارة، يملكها رجل مقيم خارج البلاد، عندما رآه ذات ليلة ينام قرب جدار البناية، مستخدماً صندوقاً كرتونياً في ليلة باردة، أعطاه مفتاحها دون أن يطلب منه أجراً، بل وتبرع له بسرير وفرشة وغطاء يستخدمها للنوم، وغادر بعد أن منحه بعضاً من نقود اعتاش عليها لأشهر قليلة.

في الزقاق الذي يقتاده نحو غرفته، أخرج كيس الآغو من جيبه وشمه بعمق، ثم أعاده إلى مكانه، أحس بأن الدنيا تدور به، ليس لما يفعله ذلك المحلول الكيميائي برأسه فقط، إنما لحزن يتفجر في داخله لأول مرة مذ وطئت قدماه قبل سنين، تلك المدينة. بقي صدى البصقة التي تلقاها عند الإشارة الضوئية، يدوي في نفسه، كأن يداً تحطم زجاجاً في غرفة واسعة فارغة، كامرأة تنوح ممزقة ملابسها فقداً.

فتح باب الغرفة بيدين مرتعشتين، بقيتا لدقائق تحاولان إيلاج المفتاح في ثقب القفل، إلى أن استقر في مكانه، أغلق الباب وراءه، فصرّ صريراً يشبه بكاء امرأة ثكلى، ضغط على مفتاح الكهرباء، فتلاشت العتمة من الغرفة، حيث بدت مرتبة رغم سوء حالها. مقتنياتها نظيفة ومستقرة في مكانها الطبيعي، إلا هيئته العبثية التي لا تتطابق مع اعتنائه بمخدعه.

جلس على سرير قديم طوي غطاؤه بعناية، سكن لدقائق، وبقي

يتنفس بهدوء مفتعل، ثم فتح درجاً لطاولة صغيرة آيلة للسقوط، اصطفت عليها بضعة كتب، بالعربية والفرنسية والإنجليزية، وقلم وبضع أوراق، ومسجلة صغيرة، ونظارة قراءة.

أخرج صورة نظر فيها عميقاً، بعد أن وضع النظارة على مقدمة أنفه المشوه، فبان الحزن على ملامحه، ثم أعادها إلى مكانها. من جيبه أخرج النقود وعلبة سجائر، أشعل واحدة منها، وأسند ظهره إلى الجدار الذي حفل بكثير من آثار رطوبة، بدا أنه حاول إزالتها سابقاً.

نفث من سيجارته لمرات متتالية، ثم تنهد أسيراً لتيار أسى يعصف به، استسلم لشروده بضع دقائق، ثم أخذ يفكر بعمق، لكنه استفاق على لسعة السيجارة بين إصبعيه، بعد أن احترق تبغها وما تبقى منها إلا الرماد.

شعر بأصوات غامضة، وتراتيل جنائزية، وصرير رياح موحش في رأسه، فسحب من جيبه كيس الآغو، وفتحه وهم بوضعه قرب فمه وأنفه، لكنه ركض فجأة كالممسوس نحو النافذة وطوحه بعيداً، وهو يهمهم، كما لو أنه يكابد تيار نهر جارف، سيختطفه إلى قاع بحيرة عميقة. ثم تمتم بصوت باك:

– كفى.

أشعل سيجارة ثانية، وبتوتر بادٍ في ملامحه وبعض حركاته، أخذ يجوب الغرفة جيئةً وذهاباً، ويدور حول نفسه، كأنه يحاور طيفاً آخر لا يراه غيره. توقف عن المشي والدوران، ثم مسح ببصره الغرفة متفحصاً حالها: سرير قديم بفرشة متهرئة، صنبور ماء صدئ، حمام متصدع لا باب له، جدران حفلت بآثار العفن والرطوبة، وقليل من أواني الطعام

البالية، وغرفة رغم عنايته بها، إلا أنها لا تصلح للحياة.

وقف إلى النافذة واقتنص نظرة طويلة لبنايات عمان المترامية على جبالها، وقد جنّت بها المصابيح، وصعدت من بعض جهاتها ألعاب نارية، رسمت أشكالاً عشوائية في الأفق، تنافسها أضواء (بوليفارد العبدلي).

تسللت أغنية باكية من نافذة لإحدى الطوابق العلوية للبناية، تحكي قصة امرأة أضحت غريبة حتى في مرآتها. أصاخ السمع جيداً للأغنية، وكلماتها تتهادى إلى مسمعيه عبر حقل ذلك الليل الغزير، ثم غادر النافذة منسحباً حتى من ذاته، التي ما عاد يدرك أين تستقر ملامحها.

أمام مرآة مشظاة تلتصق بالجدار، وقف يراقب وجهه، تحسسه بأصابع تكاثرت في شظايا المرآة، كما لو أنها إخطبوط، مسح بيده على الأماكن التي لا ينبت فيها شعر في رأسه، ولمس شعره الطويل الذي تدلى من جانب رأسه الأيمن، ومن المساحة الضيفة في أعلى رأسه. مسد لحيته الطويلة، ولامس عينه المطمورة تحت انثناء جلد وجهه المحروق، ثم راح يقاسي مشهد البصقة، وهي تستقر في وجهه المشظى في المرآة، قائلاً في سره:

(تطاردني الغربة، كأنها قدر لا فكاك منه. من أنا؟ هل هذا الوجه الماثل في هذه المرآة، بعد أن أتت عليه نار شرهة، فأحالته إلى ملامح ليست لي، هو لي؟ أين وجهي، هويتي، كلمتي الأولى قبل أن أشرع بقول أي كلام. ها أنت محض ناج فاشل، من حرب بين النار واللحم، بين النور والظلام، بين الكلمة التي تعرف دربها، وبين الكلمة المخاتلة.

أنت محض كائن بقيت المدن تتقاذفه ككرة، ترتدُّ من جهة إلى جهة، دون أن تستقر، فتداوي جراحك. يا الله،كل ذلك الحب، كل تلك الكتب، كل تلك المحاضرات والرؤى والمقالات، كل تلك الأضواء التي بقيت مسلطة عليّ لسنين، كل ما مضى فأربح بصقة. إنها مرابح الخاسر).

تنهد عميقاً، ثم انتزع المرآة من مكانها، وألقى بها في سطل معدني استخدمه كسلة للنفايات.

تمدد على سريره وراح يراقب سقفاً تدلى منه مصباح، تجمعت على حبله مخلفات الذباب والحشرات، أخذ يتنفس بهدوء، حتى سكنت أنفاسه المضطربة، ومدّ يده للمسجلة وضغط مفتاحها، فتدفقت أغنية edith piaf (Non, Je ne regrette rien) :

(لا، لا أندمُ على شيء. لا، لا شيء من لا شيء. لا، لا أندم على شيء...

لا ما أحسنوه إليّ ولا ما أساؤوه

كل هذا عندي سيّان)

(لا، لا أندمُ على شيء. لا، لا شيء من لا شيء. لا، لا أندم على شيء...

فكلّه مضى.. وقضي.. ونسي

لا أبالي بالماضي

مع ذكرياتي أوقدتُ النار)

أخذته الأغنية لزمن بعيد، استعاده على شكل مشاهد خاطفة،

تتوالى في مخيلته، ومن ورائها يتهادى صوت (إديث بياف) ذو الحزن الشفيف.

أخذ دفتراً سميكاً من درج الطاولة، وراح يقلب صفحاته التي بدت حافلة بالكلمات، فاستقر عند صفحة، وأخذ يقرأ فيها:

«إنه اليوم الأول لي في باريس، مدينة لم أكن في ذلك اليوم أعرف عنها، غير زادي مما قرأته في الكتب، فتلاشى حينذاك، كأنه أخلف وعده بأن يكون مصباحي لاكتشاف مدينة مثلها، تجبرك على أن تلقي كل ما في جعبتك من أخبار عنها، وتأخذك من يدك كامرأة جميلة، إلى غرفها السرية، وتعطيك مفاتيح أسرارها.

أقف إلى نافذة الفندق، وأطلق البصر عبرها نحو عالم أتهيب منه. كل شيء هنا يعتمر قبعة الصحو. كأنني في عالم لا ينام، عالم خلق ليبقى يقظاً. أحدق ملياً بالمارة، وهم يغذون الخطى على الرصيف المحاذي لنافذة غرفتي، ثمة وجوه هي الأخرى تشارك المصابيح إنارة المكان، فتقهقه الدنيا.

في البال ما يزال أثر الرحيل متصدراً بهو ذاكرتي، وما يزال وجهكِ وأنت تنوحين يجهش قلبي، لبكاء لم يحدث لرجل قط. يطل وجه أختي فاطمة، ووجه أبي، ووجه أمي، فأصاب بأثر ناي حزين يخضب الروح بتباريحه التي تُبكي عين القلب، أعبئ رئتي بالهواء، وأزفره فأسمع صوت أبي في الليلة التي كانت ظلمتها تتكاثر على نحو مفرط، حينما هربت من المدينة، ودخلت البيت لاهثاً، وأرخيت اللثام:

– من قتلت يا علي؟

– لم أقتل أحداً يا أبي، لكنهم حاولوا قتلي.

قال بعد أن سمع الحكاية كاملة، والأسى يصارع شكيمته التي افتقدها الآن:

– ما عاد لك في هذه البلاد مقام، لا بد أنهم سيجهزون بنادقهم من جديد، نار الحرب ستشعل بين العشيرتين.

من داخل البيت كان صوت أمي يجيء ناحباً بوتيرة منخفضة، وهي تضع رأسها بين كفيها، متهزهزة كبندول ساعة، إلى أن سمعت صوت أبي زاجراً:

– اسكتي يا (مره).

أشرب من كأس ماء كان على الطاولة، وأرمي بصري خارج نافذة الفندق، حيث يجلس رجل وامرأة في الأربعين من عمرهما، على أحد مقاعد الرصيف، يتعانقان ويتبادلان قبلة عميقة، ثم يأكلان من ساندويشة واحدة.

ثمة صوت لناي صوفي يمرغ قلبي بأناته، أنصاع له فيصفعني حزن عتيق، أترك النافذة، وألقي ببدني في كرسي يواجه النافذة ذاتها، أفتح حقيبتي وأتفقد أوراقي التي سوف أقدمها غداً لمكتب شؤون طلبة الدراسات العليا في الجامعة من مغلف ورقي أخرج منديلك.

آه، يا ريق القلب، ويا وردته الغضة، آه يا سمائي ويا جناحاي الواسعين.

ما زال عبق عطرك متشبثاً به، كطفل قروي يقبض على يد أبيه في زحام المدينة. شكل الزهور الوردية ما يزال هو الآخر ناصعاً، يحتفظ بإيقاع ذكّرني بلون خديك حينما داهمها الخجل ذات يوم وأنا ألثم

يدك، كمن يعبئ رئتيه بالهواء، قبل أن يهبط إلى قبو يخلو من الأوكسجين.

أن نحبّ، يعني أن يطلّ سؤال الحياة من فمنا. الحب هو السؤال الوحيد الذي لا ينتظر إجابة، إجابته هي السعي إليه، تماماً كمتعة دربنا نحو الفردوس.

أقرّب المنديل من أنفي، وأشهق برائحة مليّاً، فتتمطين داخلي. رائحة لم تغادر روحي وأنت تحرسينها، وتقاومين فيها احتمالات الانكسار، تبددين عتمة بقيت أصارعها في غيابك، وأكابد وحشتها الجليدية. في غمرة من حضورك وغيابك، الذي يفعل بي ما تفعله الحمى بالجسد، أطبع قبلتي على ذاك المنديل كأنني أطبع قبلة على خدك.

في السرير وأنا أستعطف سادن النوم، أهجس:

ربما يحن علي ضوء هذه المدينة، ويطرد سواد الأسى، ربما أجدني هنا، أعثر علي بعد كل ذلك التيه، فأنمو بعيداً عمن لا يرون بي سوى كائن مؤهل للوقوع بالخطيئة، وأي خطيئة حينما تغدو الحياة بحد ذاتها خطيئة كبرى. ربما أنمو وبيني وبين من يستلون دوماً خناجر العيب، ويجبون خطواتي.

يأخذني سادن النوم محمولاً على كفيه، نحو ذلك الموت اليومي. ترى هل أراك وأنت تشيعين لي رسائلك، عبر عينيك اللتين لا تفارقان شرفة قلبي الوليد.

(ماء النعاس يغرقني، شيئاً فشيئاً، ف أ ن ا م)

عبّ أبو حطمة نفساً عميقاً، ثم أطلقه بحشرجة كأنه على أهبة

البكاء، وأعاد الدفتر إلى مكانه، ونهض فمشى بخطوات متعبة نحو باب الغرفة، ثم جلس على عتبتها المطلة على جهة من جهات عمان، حيث الأضواء والضجيج، والوحدة التي يقاسيها.

شعر بأنه محتل من قبل خوف غريزي يودعه سجيناً في غرفته، فتمتم وهو يشعل سيجارة بيدين مرتعشتين:

– مكثت في هذه المدينة لزمن، لخوف يعشش بي، وأنكرتني.

أرخى رأسه لبرهة بين كفيه، محدقاً بعتبة الباب كأنه يفتش عن شيء ما. ثم قال كأنه يخاطب أحداً يسمعه:

– سأعود إلى حيث ولدت، غير آبهٍ بما يحدث.

نهض واقفاً بباب الغرفة، وصرخ بصوت عال تجاوز بحر الإسمنت الذي دشن البنايات، مشرعاً ذراعية على اتساعهما:

– سأعود، سأعود، سأعود.

من صنبور الماء ملأ وعاءً، ثم تعرى من ملابسه، ليستحم. راقب جسده الذي شوهته النار، ثم تجاهل أساه المُلحّ. استحم جيداً، وارتدى ملابسَ، وحذاءً لم يرتدِها مذ عاد إلى عمان. حشر كل أغراضه في حقيبته، وكتب لصاحب الغرفة رسالة قصيرة شكره فيها على كرمه، وأقفل الغرفة وغادر متجهاً إلى قريته.

***

بقينا لدقائق ننظر في وجه الحكاءة، وقد لاذت بصمت عميق، بعد أن توقفت عن سرد الحكاية. كان ذقنها يتكئ على ظاهر يديها، وهما تمسكان بمقبض العكاز، وتنظر بعينيها الحزينتين، مطلقة بصرها في

مدى أخذ يميل إلى الاحمرار الشفقي، والشمس تهيئ المدينة لانقضاء نهار آخر. ثمة ملامح لدمعة كادت أن تغادر محجريها، لولا أن تداركت الأمر، وأقامت بين ما تحس به، وبين ما لا تريده أن يحدث، جداراً من قسوة مفتعلة بحق نفسها، بانت في توترها وهي تشعل سيجارة، وتحشر الولاعة في جيبها بكل اشمئزاز منها.

غادر الجميع، وبقيت جالساً في مكاني، أحاول أن أجد طريقة، لأفهم كيف انتقلت روايتي لتلك المرأة، بكل تفاصيلها، كأنها كانت هي القلم الذي كتبت به، إلى أن لفظت الشمس أنفاسها الأخيرة، وغرقت المدينة بعتمة تقاومها المصابيح.

***

في بيتي أطفأت مصباح الغرفة، واكتفيت بمصباح الطاولة الذي منح رزمة الورق بقعة كافية للكتابة، وسط عتمة اعتدت العمل فيها. أعطيت نفسي وقتاً لاسترداد ما قالته الحكاءة في ذلك اليوم، فرحت أدون ما سمعته من أحداث الرواية بنهم، وأنا أرى أحداثها تعرض قبالتي في الصفحات، واضحة كشعاع لا تنكره العين، إلى أن انتهيت، فاسترخيت أعيد قراءة ما كتبت.

من زاوية الغرفة أتى صوت بنبرة ناهية:

– توقف.

ذهلت وأنا أسمع صوتي، يخاطبني. خلتني توهمت فعدت لرأس الصفحة مرة ثانية، أنوي مراجعة أحداث الرواية، لكن الصوت أتاني مرة أخرى وبنبرة ناهية أكثر من ذي قبل:

– قلت لك توقف.

لقد كان صوتي. نعم صوتي أنا، فرحت أهذي بتمتمة من أصيب بالرعب:

– هل غادرني صوتي، وبات يحدثني من بعيد؟

لكن الصوت أتى مرة أخرى، ضاحكاً:

–لا ليس بعيداً كما تتوهم. إنه بُعد المسافة بين طاولتك، وزاوية هذه الغرفة.

نهضت أجري نحو مفتاح الضوء، وأشعلته، وإذا بي أجد ما تبقى من الحاسوب، يحدثني من زاوية الغرفة حيث يستقر على الطاولة.

شربت كأس الماء مرة واحدة، وفركت عيني، أحاول تبين ما يحدث، فجاءني الصوت مرة أخرى:

– لست وهماً، بل حقيقة.

بقيت محدقاً به، أراقب انكماشه البلاستيكي، الذي اتخذ شكل رأس مشوه، يشبه رأس (أبو حطمة). ثم قلت بصوت مرتجف وخائف، تخلص من ارتعاشه فيما بعد:

– وعن ماذا تريديني أن أتوقف؟

– عن تدوينك لما استرجعته من روايتك.

– لماذا؟

– لأن ما دونته، ناقص.

– وما الناقص؟

على غير عادتها، قرعت رحاب الباب، ودخلت:

– اعذرني حبيبي، هل كنت تتحدث إلى نفسك؟

عدلت من جلستي، وعدت أقلب الأوراق التي دونت فيها ما سمعته من الحكاءة:

– لا يا حبيبتي، كنت فقط أراجع ما كتبت، بصوت مسموع.

أطفأتُ ضوء الغرفة، وأغلقت الباب وخرجت، وأنا أنظر إلى ما تبقى من الحاسوب، ساكناً في زاوية الغرفة.

-٢-
ليلة ظهور الغول

الغـربة فم رياح عـاتيـة، كلمـا أوقـدتَ ناراً
لتـدفئ قلبك هبَّ جنونُهـا، فتـموت النار،
مخلفة وراءها خشباً نواحه، الدخان.
علي بن محمود القصاد

استقرت الحكاءة في مكانها المعتاد، تحت شجرة التوت المعمرة، بعد أن أطلت من بوابة حوش دارها، فمشت بخطوات كسولة، بقيت تغذها، إلى أن أرخت جسدها على الأرض مستعينة بيديها، فجلست وهي تكتم أنيناً، رشح بعض من ملامحه، كما ترشح حبات الماء، من مسام جرة فخارية.

كانت ملامح الأرق بادية على وجهها، حينما تلفتت تراقبنا، وتتفحص وجوهنا. ونحن في شوق لما ستتلقفه مسامعنا، من الحكاية في ذلك اليوم.

نَبَشت ألوانُ ثوبها الأبيض الموشى بورود بنفسجية، شيئاً في ذاكرتي، كأن آدمياً سقط مغشياً عليه في الصحراء لفرط العطش، فسمع الرعد يدوي في السماء. رحت أدقق بملامحها التي شعرت بأنها

ليست غريبة عني، كأنني أعرفها من ذي قبل، وكأن ذاكرتي فقدت ملامحها هي الأخرى مع ما فقدته من روايتي.

أمعنت النظر أكثر من مرة، وبي صوت ينبئني، بأنني حقاً التقيت تلك المرأة في مكان ما. وتيقنت من ذلك الأمر، والصوت ذاته يلح علي، لأحس أن روحها ليست غريبة عني، بوجعها الذي يلوح على وجهها، كما يلوح الدمع في العينين الحزينتين وهما على أهبة البكاء. فكرت أن أسر لها بما أفكر به، لكن نظرة عميقة متفحصة من وراء نظاراتها، جعلتني أقلع عن سؤالي. بصوت متوازن، سألتْ عن فتاة لم تنضم لمجلسها في ذلك اليوم، فأخبروها أنها مريضة تلتزم الفراش.

تمنت لها السلامة، وشرعت بسرد نصيبنا من الحكاية:

{بدت القرية كجمر متناثر في بقايا نار بعيدة، في ذلك الليل حالك السواد، والسيارة تكابد الطريق البائسة، المليئة بالحفر والعقبات. التفت (أبو حطمة) عبر زجاج العربة الخلفي، مشيعاً نظرة عميقة إلى المدينة، حيث عمل سنين فيها، بينما بناياتها (تتعربش) تلك الربوة، حيث لا زالت بقايا أضوائها تتمطى في الأفق، رغم إيغال السيارة في بحر المسافة الليلي. أرخى رأسه على بدن العربة الجانبي، واستذكر تفاصيل أول يوم عمل له، مدرساً فيها قبل سنين طويلة. بينما سائق التاكسي، الذي أقله من وسط البلد نحو الجنوب، مخلفاً وراءه الضجيج والأضواء، يتذمر من دون أن ينتظر جواباً منه، وهو الذي يعرفه كسائر أهل المدينة، لا يكلم أحداً:

– (شو هالقرية المقطوعة يا أبو حطمة، مش عارف شو بدك تجني منها، كان خليتك بعمان على الأقل بتلاقي ناس تعطيك قروش، هاي

قرية شكلها مش موجودة عالخارطة أصلاً، بقطع إيدي إذا عمرو مسؤول وصلها).

نظر السائق مستعيناً بضوء غرفة السيارة مرة أخرى في الورقة التي كتب فيها أبو حطمة العنوان، دليلاً للمسير وأعطاها له بصمت، وعاد يحدث نفسه بصوت مسموع، ويوغل في تذمره، من الطريق التي بالكاد كانت سيارته تحتملها، ومن رجل مشوه وأخرس:

- كمان بتعرف تكتب، وخطك حلو!

كان أبو حطمة طوال الطريق التي أنفقوا عبرها ساعة من المسير، يستعيد لحظة مغادرته القرية قبل خمسة عشر عاماً، مسافراً في بعثة للدراسة العليا في فرنسا:

«حمل سعدون الغاني، الحقيبة وأودعها صندوق السيارة الخلفي، ووقف يضع يديه في جيوبه يراقبه، بقامته الطويلة نوعاً ما، وشعره الأسود الناعم الذي كانت الريح الخفيفة تعبث به من حين لآخر، وفي عينيه العسليتين، وضوء البيت الباهت يمسح وجهه، حزن لم يستطع مداراته، حينما وقف قبالة عائلته يودعهم، وفي باله تتردد كلماته، وهو يوصي سعدون الغاني بأهله؛ فقد عرف سعدون أن ابن القصاد لن يعود من فرنسا، بعد ما رآه من ظلم وجور في بلاده، وبعد تلك الحادثة الشهيرة، إثر افتضاح أمر حبه لابنة عاهد المشاي، وما جرى حولها من توترات وشائعات، ستشعل نار الحرب بين عشيرتيهما.

عانق والده وقد نفرت من صدره حشرجة البكاء، واحتضن أمه التي لم تتوقف دموعها عن الجريان على خدها، منذ عرفت بأمر السفر، ثم احتضن فاطمة فلاذت بصمت وراءه بكاء مرير، بعد أن عاتبته:

- (أدري إنك منت راجع يا علي).

كان كثير من أهل القرية يتجمعون قرب بيت محمود القصاد لوداعه، صافحه البعض وعانقه البعض الآخر، ولوَّح له آخرون وأخريات أغرم بعضهن به، حينما صعد في السيارة، وهو يأمر صديقه سعدون بأن يزيد من سرعة السيارة لإحساسه بالاختناق، ثم نظر خلفه ولوح لهم فأجهش بالبكاء. بينما فتح سعدون زجاجة الويسكي، وتجرع منها أكثر من مرة، وهو يغالب دموعاً شوشت وضوح الطريق أمام السيارة).

قبل أن تدخل السيارة القرية، حيث بدت المسافة قريبة، غادر ابن القصاد - الذي عرفته المدينة باسم أبي حطمة - استغراقه بأيام ماضية، ثم قال يقدم للسائق أجرته:

- تفضل أجرتك، أريد أن أنزل هنا.

توقفت السيارة مرة واحدة، كأن سائقها تفاجأ بهاوية، ثم التفت إلى الوراء:

- (هيَّك بتحكي يا أبو حطمة، وإحنا بنفكرك أخرس طول هالسنين).

أخذ السائق نقوده وغادر مستغرباً أمر ذلك الرجل، الذي أمضى زمناً في عمان، من دون أن يتحدث لأحد، فيعود في ليلة دهماء إلى قرية منسية، ويهبط من السيارة على مشارفها في ليلة ظلماء موحشة.

***

لم يكن قد تبقى سوى مسافة قصيرة للوصول إلى القرية، التي

كان بلوغها سيأخذ منه عشر دقائق مشياً، صاعداً طريقاً متعرجة، فالقرية تقع على جبل ضمن سلسلة الجبال الصحراوية، ذات التربة الصفراء، حيث لا يعمر العشب فيها، حتى لو هطل المطر لأيام متتالية، إلا أسابيع، فينتشر على استحياء بشكل مترامي الأطراف هنا وهناك.

نظر في ساعته فوجدها تجاوزت التاسعة مساء ببضع دقائق، ثم نظر للقرية فبدت كما لو أنها خلت من سكانها، رغم وجود مصابيح الشارع الباهتة، وعدد قليل منها مضاء، بينما أصيب الآخر بعطب لم يصلحه أحد، ورغم إنارات البيوت المتباينة بشدة إضاءتها.

لم تتغير القرية كثيراً، إلا من بيوت قليلة شيدت هنا، وأخرى هناك، ومن ثلاثة مساجد رأى مآذنها مضاءة، في قرية يكفيها مسجد واحد، بكل رجالها ونسائها وأطفالها.

لم يسمع صوتاً، سوى صوت حذائه يتعثر بطريق إسفلتي، رآه كما مر به مغادراً قبل خمسة عشر عاماً. ما إن انتهى من صعود الطريق، فاتضحت له القرية أكثر، حتى جلس على صخرة تقف بجانب الطريق، وأرخى حقيبته جانباً.

تذكر الرسالة التي وصلته قبل عودته من فرنسا بعام، من أخته الوحيدة فاطمة، تنبئه بأن أمه ماتت، وتطلب منه المجيء، لكنه لم يستطع، لما تبدل في شكله، فما عاد يمكن أن يُعرف. عاوده الحزن الشديد حينما رأى بيت والده، وقد أطبقت عليه العتمة، فراح في نحيب سرى على أجنحة نسمة هواء صيفية كانت تلاطف التراب الذي ما انفكت الشمس عن تحديقها المليّ به، أثناء النهارات الملتهبة.

قال في نفسه كأنه يؤنسها من تلك الوحشة القاسية:

(ها أنت تعود، رغم كل ما حدث، أنت الآن في قريتك، مسقط رأسك، ومرتقى قلبك، حيث عرفت قدماك أول ملمس للتراب، يوم كان الأطفال يمشون حفاة. الغربة هي أن تموت في بلاد لا تجد فيها أحداً، ينهض رأسك، وأنت قريب من نَفَسك الأخير، ليسقيك جرعة ماء، ويطبع قبلة على جبينك، بعد أن يهمس بأذنك، سلّم على الحبايب، الله معك).

بكمِّ قميصه، جفَّف خط دمع سح يتيماً من عينه الوحيدة، وعاد يفكر فيما سيفعل، هل يكمل خطاه ويقرع باب البيت، بعد كل تلك السنين، بوجه غير ذلك الوجه الذي عهده أبوه وأهل القرية؟ هل سيصدق أبوه أن هذا الوجه هو وجه الدكتور علي بن محمود القصاد، أستاذ الفلسفة في جامعة السوربون لعشر سنوات؟ والذي غادر القرية مهزوماً، في ليلة مظلمة وهاهو يعود إليها منكسراً، مشوهاً على جنح الظلام؟ كيف سيقتنع أهل قريته، بأنه هو ابن محمود القصاد، الذي كان يمضي نهاره على رأس الجبل المجاور للقرية، يقرأ الكتب، وينظر إلى الطائرات حين تمر في السماء، ووجهتها البلدان البعيدة، ويحلم بالاخضرار، وبالحرية، والفرح؟ كيف سيصدقون بأنه هو ذاته، بوجهه المشوه، وشعره القليل، الذي تدلى كأفاعٍ على كتفيه، وعين مُطفأة، سرقتها النار مع ما سرقت من هوية جسده، فنجا بأعجوبة؟

اشتعل في الطرف الشرقي للقرية ضوء سيارة، وتمدد بطوله يميناً وشمالاً، يكشف ملامح أشياء ارتطم بها، داهم الارتباك ابن القصاد، فحمل حقيبته وصعد منحدراً، أخذه بعد مسير ربع ساعة نحو بستان مهجور، لم تنم أشجاره جيداً، فيبس بعضها، وتشابك البعض الآخر

بالشوك والأشجار الحرجية التي صمدت أمام حرارة الشمس، وشح المياه.

في مساحة بين أشجار زيتون ناشفة، وسرو، وعوسج، افترش الأرض وجلس متكئاً على حقيبته التي ضمت كل ما تبقى له. أحس بأنه مطرود من كل شيء وهو يأوي إلى تلك العتمة، فتح زجاجة ماء بحوزته، وشرب منها، يطفئ عطشاً جفف حلقه، تلاشى ضوء مصباح السيارة الذي تمايل قبل قليل في عتمة القرية، تلفت بعد أن اطمئن، يستكشف المكان فبدا له، مشروع بستان لم ينجح. فقدر أن ما من أحد يدخله، ليس فقط لوحشته التي تمنحها له عتمته، وتشابك أشجاره وحشائشه، بل لوجوده أيضاً على أطراف القرية.

نهض من مكانه، وسار ببضع خطوات مبتعداً عن مكانه، وبال قرب شجرة ناشفة، اكتشف قربها عندما فرغ من حاجته، بئر ماء، ما إن فتح بوابته الحديدية الصدئة، حتى أنَّت أنيناً ركض بين الأشجار في صمت الليل، حتى وجد به حبلاً لدلو استقر في قاعه العميق.

تذكر نصائح أمه وهي تشدد على أن يتجنب النظر في الآبار العميقة، والغرف المعتمة، والأماكن المهجورة، وخاصة في الليالي المعتمة؛ تفادياً لصفعات الجن المفاجئة. وخطرت بباله قصة عبد الله الذي سمي فيما بعد بعبد الله (الأجقم)، عندما تسلل ذات ليلة باردة ليدخن سيجارة بعيداً عن أنظار أبيه، فالتوى حنكه، فأُرسل إلى رجل في قرية أخرى، بقي يبصق في وجهه، طرداً لجن تلبسه، ويضربه بالنعال على الجهة التي أصابها الالتواء، معاودين زيارته لأكثر من مرة حتى استعاد شيئاً من شكل وجهه.

تذكر أيضاً ما قرأه في فرنسا عن التهاب العصب السابع، وأسبابه، فضحك بسره، وسحب الحبل الذي رُبط في نهايته دلو بلاستيكي، امتلأ بماء بارد، رشق وجهه بحفنات منه فأحس بشيء من الانتعاش وعاد أدراجه.

داهمه الإحساس بالجوع، فأخذ من حقيبته قطعة بسكويت وراح يقضمها بتمهل، ويراقب العتمة كيف تتدفق من الشعاب والوديان والأفق، وهي تخضب الأشياء بسلطتها، وترسخ تلك الوحشة التي عبرها تفكر الكثير من العرب بالأجرام السماوية، وبالأشياء البعيدة، فقدسوها بعد أن اتسعت مخيلاتهم ونمت أدواتها، فصنعت كثيراً من الحكايات.

لم ير للقرية، عبر تشابك أشجار البستان، سوى ملامح باهتة بالكاد تُرى. أتاه صوت نباح كلب كسول، جاء متقطعاً من بعيد، قدر أنه في الأطراف الجنوبية لها، حاول استعادة أسماء رفاقه، وأسماء أهل القرية، وملامحهم، قدر من بقي منهم على قيد الحياة ومن فارقها، وقدر أنه عاد للقرية ليلاً فلم ير منها شيئاً، فربما تكون حالها قد تبدلت للأفضل، رغم رؤيته الطريق التي لم تتغير ملامحها، ورغم تناثر عدد من مصابيح الشارع الشحيحة التي تطرد العتمة.

أحس بالنعاس يداهمه، وقد شارف الوقت على منتصف الليل. قال في نفسه:

– سأنام هنا الليلة وغداً أذهب إلى البيت، أقرعه وأقول لأبي إنني أنا علي، ابنك يا محمود القصاد، وأخبره بحقيقة ما جرى. في البدء سوف يعجز عن استيعاب ما يحدث، لكنه سيتماثل للهدوء، ويقتنع

بأنني أنا ابنه الذي فارقه قبل تلك السنين الطويلة.

استخدم حقيبته وسادةً، وأرخى رأسه عليها، فهجمت السماء عليه موحشة تخلو من النجوم ومن النيازك والشهب. ثمة صوت لأقدام أخذ يقترب من مكانه شيئاً فشيئاً، ففر من مكانه يفتش عن شيء يتمترس وراءه، فلا يراه أحد، قفز خلف صخرة قريبة من مكانه، وأخذ ينتظر ما الذي يمكن أن يحدث. قال في نفسه إن ذلك الصوت ربما يكون لحيوان مفترس، أو دابة ضلت طريقها. فكر بأمر ضوء السيارة الذي رآه عند دخوله حدود القرية، وخمن بأن ثمة أحداً رأى ضوء السيارة التي أقلته للقرية وعادت من أطرافها، وهاهم الآن يبحثون عمن أتى.

قال في نفسه:

- أعلم أنه من الصعوبة إن عثروا عليّ، أن أقنعهم بأنني علي بن محمود القصاد بملامحي الجديدة المرعبة، وفي ليلة حالكة السواد مثل هذه.

فكر في أن يحمل حقيبته ويهرب إلى مكان آخر يداريه، إلى أن يغادروا، لكن ملامح لشخصين اتضحت له، وهو يسرق النظرات من وراء الصخرة، قادمين نحوه، ما إن اقتربا حتى رأى بصعوبة رجلاً وامرأة يمسكان بيد بعضهما، ويمشيان بتمهلٍ من تأكد بأن ذلك البستان لا يمكن أن يطأ أرضه إنس غيرهما. ثم أخذا يغنيان:

لاقعد بتالي الليل يا عنيِّد يا يابا   والله وأذكر وليفي
وبحجة الحلمان يا عنيِّد يا يابا   والله لابكي عكيفي

في تلك الليلة كان الهواء ساكناً يحمل إليه حتى أصوات

الزواحف والحشرات الليلية. هدأ ابن القصاد قليلاً، وتخلص من بعض توتر انتابه. على مقربة أمتار منه رأى بصعوبة كيف فرش الرجل غطاء بين شجرتين، فجلست المرأة وخلعت غطاء رأسها، ثم فكت أزرار ثوبها، بينما فتح الرجل حقيبته، وأخرج منها شيئاً خمن ابن القصاد أنها زجاجة حينما جاء صوت ارتطامهما بكأس زجاجية. راح الرجل يخرج أشياء أخرى من حقيبته سمعه ابن القصاد يقطعها بسكين استلها من خاصرته، ثم سكب له كأساً وللمرأة كأساً أخرى، شرب الرجل من كأسه ثم أخذ يقضم ما قطعته سكينه. قال بنبرة ضاحكة:

– آه لو أن هذا المكان يصلح للقاءاتنا في الشتاء يا حنة.

أطلقت حنة ضحكة شهوانية، ثم أمسكت بكأسها وشربت منها وهي تميل على كتفه:

– حينها سنموت هنا من شدة البرد يا سعدون.

مدّ سعدون قدميه أماماً ثم طوق عنقها بيديه:

– لكنه مكان آمن.

عندما سمع علي بن محمود القصاد اسم سعدون، دقق النظر بما يمكن له في ليلة مظلمة مثل تلك، فعرف أن سعدون هو صديقه سعدون الغاني، الذي كان ما يزال على حاله، أعزبَ يعاقر الخمر والنساء، ويتلذذ بعبثية عرفها أهل القرية منذ سنين شبابه.

تلفتت حنة حولها ثم قالت وشيء من الخوف يعتريها، رغم ارتيادها ذلك المكان لمرات عديدة بمعية سعدون الغاني:

– أحقاً ما يتناقله الناس حول هذا المكان، وحول سالم الأسمر وحميدة الشقرا؟

– أخبرتك سابقاً يا حنة، أن ما يتناقله الناس حول المغارة التي لا تبتعد كثيرا من هنا، محض هراء. منذ سنين آتي إلى هذا البستان أتدارى فيه، عن عيون الناس وأشرب الخمر وأغادر، فلم أر شيئاً. أصل الحكاية، على ذمة الناس، يعود لسنين قديمة. إذ قالوا إن رجالاً تربصوا بامرأة اسمها حميدة، ورجل اسمه سالم، يحبان بعضهما فقتلوهما، بعد أن وُجدا يتضاجعان في المغارة، فصارا يلقبان بسالم الأسمر، وحميدة الشقرا، تفاديا لذكر أنسابهما.

تلك الحادثة جعلت الناس يهابون هذا المكان، خاصة بعد أن تناقلوا خبراً مفاده أنّ شبحين للمقتولين يخرجان في الليل، ويفتكان بمن يمر من هنا.

قدم سعدون لحنّة قطعة من الفاكهة، وضعها في فمها:

– احتل الكسل الناس في هذه القرية، بحيث صاروا عديمي الهمة إلا من القيل والقال، رغم أنها ما كانت على هذه الحال سابقاً، كثير من الحكايات التي تدور على ألسنتهم لم تحدث في الأصل، ألم تلاحظي كيف نسجت حولي الحكايات، بحيث صار من يراني يهرب من الطريق التي أسلكها، وبعد أن التقينا لأول مرة، تعجبتِ لما كنت تحملينه عني من أفكار.

زحفت حنة نحوه وارتمت على صدره:

– لا أبالي يا حبيبي بما يقال عنك، يكفي أنك الرجل الوحيد الذي جعل جسدي يخضر من جديد، بعد أن اعتقدت أنه مات.

لامست وجهه بيدها:

– إنك تتفجر رجولة، أيها الشقي.

وضع كأسه جانباً، وضمها، فاستسلمت بين ذراعيه. كانت تأوهاتهما، تحوم في فضاء البستان المهجور، وتشعل في صدر ابن القصاد، وهو يسمع أنينهما، ناراً لم يعهدها منذ سنين طويلة. إلى أن أطلقا أنينهما الأخير فلاذا بسكون وخدر العناق، بينما كان ابن القصاد، يدير ظهره لهما، غير قادر على تفادي صوتهما الذي سكن كأنه لم يكن، فساد الصمت إلا من صدى نباح ذلك الكلب، حين أتى كسولاً من أطراف القرية.

سعل سعدون مرّات، يبتلع دخان سيجارته مستلقياً، يتلذذ بلحظة استرخاء لا تأتي إلا بعد نشوى آسرة مثل تلك.

نهضت حنة، ومشت نحو البئر، فانتشلت منه دلو ماء، واغتسلت. ثم أعادت الدلو للبئر وأغلقته.

ما إن سمع سعدون صرير بوابة البئر، حتى تبعته صرخة لحنة، قد تجاوزت القرية وربما وصلت القرى المجاورة، ثم قالت بعد أن ركضت وارتمت بحضن سعدون، مصابة بالرعب:

– لقد رأيت غولاً.

احتضنها سعدون مرتبكاً ومذهولاً لما يسمع، بينما حنة تهمهم، بذهول وارتعاش، بكلمات متفرقة:

– سالم الأسمر، الغول، حميدة الشقرا.

نهضت من حضنه، وهمت بالفرار لولا أنه منعها، فراح يساعدها على ارتداء ملابسها، ثم ارتدى ملابسه متعجلاً.

كانت خطواتهما مرتبكة وخائفة، وهما يغادران البستان جرياً، وأقدامهما تقاسي الشوك والحجارة، والحشائش اليابسة، وحنة تصف

لاهثة، ما استطاعت في تلك العتمة أن ترى من شكله:

– غول يا سعدون، لقد رأيت غولاً، هذا الغول سيأكلنا، ويأكل كل أهل القرية انتقاماً لما فعلوه بسالم الأسمر وبحميدة الشقرا.

كان سعدون في حيرة من أمره، فهو لم ير في البستان شيئاً منذ سنين، لذا فكر بالعودة، بعد أن وصل سيارته التي ركنها قريبا من الوادي حيث الطريق تصعد نحو البستان، فجلست حنة بداخلها، لكنه لخوف استغربه، تراجع عن تلك الفكرة.

بقيت حنة تهذي وسعدون يسلك طريقه إلى القرية، ليقلها إلى أقرب مكان بعيد عن أنظار الناس فتعود إلى بيتها. شعر بتشتت بأفكاره، خوفاً من أن يفتضح أمرهما لخوف حنة الشديد، وهذيانها الذي ربما يسمعه أولادها النيام في بيتها، بغياب أبيهم الذي يعمل حارساً لمصنع في المدينة.

قريباً من بيتها، هبطت من السيارة بعد أن نصحها سعدون بأن تتمالك أعصابها، مطمئناً لها بأن ما رأته ما هو إلا خيال شجرة أو ما شابه.

لم يدرِ علي بن محمود القصاد، ما الذي عليه أن يفعله. هل يبقى في مكانه، هل يذهب إلى تلك المغارة التي يخاف الناس الاقتراب منها، احتماء بها مما يمكن أن يحدث له؟ حمل حقيبته واستعاد حديث سعدون الغاني، وحركات يده تشير إلى جهة المغارة، التي يعرفها هو أيضاً، فسار إليها يفتش عنها، إلى أن وجدها.

لم يعترِه الخوف حين عبر بوابتها المغلقة بالشوك والحشائش، فأعادها خلفه، بل شعر باطمئنان حينما استعان بنار ولاعته، فتبين

المكان، وجلس مطمئناً نفسه بأن ما فعله خياراً آمناً، خاصة بعدما رأته حنة التي قدر أنها ستذيع النبأ في القرية، وحقاً هذا ما حدث.

قال بصوت خفيض، حينما وجد نفسه يجلس وسط عتمة مطبقة، وصمت قاس:

(ليتني عدت، حينما جاءتني رسالة فاطمة، تخبرني فيها أنكِ رحلتِ يا أمي، الأمهات لا يتُهْن عن معرفة أبنائهن، فقلوبهن دليل وفيّ، كقلب المؤمن. كنت لحظتها سأطبع قبلة على جبينك، وأعتذر عن كل ذلك الغياب، وعن دموع خضبت وجهك طيلة تلك السنين التي ابتعدت فيها عنك. ها أنا حبيس مغارة تؤثثها العتمة كقلب بعض البشر، حينما يعتقدون أنهم وحدهم من يمتلكون الحقيقة، فيطل عليّ وجهك كقمر ينتصر لتائه في ليلة دهماء. ها أنا أعود لقرية غادرتها حتى لا تشتعل نار الحرب لفتنة ليس لي فيها ذنب، غير أني أحببت كما ينبغي لأي آدمي وراء ضلوعه قلب ينبض بتوقه للحياة، لكنني أخاف من أن لا يعرفوني، فأخسر رهاني الأخير، بعد كل ذلك التيه).

***

في الصباح لم تنتظر حنة قدوم جاراتها اللائي اعتدن مجلسها الصباحي، يسمعن أخبار القرية، وكل شاردة وواردة، بناء على مصادرها الكثيرة التي تنقل لها ما وقع من أحداث، وما لم يقع منها، بل شيعت ابنتها واستعجلت جاراتها.

حين قَدِمْن، واتخذت كل واحدة مكانها عند عتبة الدار، وأديرت عليهن فناجين القهوة السادة، وكؤوس الشاي، قالت حنة، وعلى وجهها

تتضح ملامح السهر والخوف والقلق:

– البارحة وبينما خرجت لأتبين سبب ثغاء عنز من ماعزنا، أفزعني من نومي المبكر، رأيت ما لا يصدقه عقل، وما لم تره عين.

قالت زوجة مختار القرية، ووجهها يرتخي لخوف مفاجئ، وتضطرب حركاتها لفضول غريزي:

– ليه يا حزينة، وش شفتي من غير شر؟

بينما الأخريات تساءلن بذهول وفضول، وأخذن يزحفن على مؤخراتهن نحو حنة التي أرخت مؤخرتها العريضة على صخرة اتخذتها كمقعد فتهدلت أطرافها اللينة:

– رأيت غولاً.

بصوت شبه جماعي وتلقائي، قالت النسوة:

– يا ربي سترك، غول؟

– نعم غول، والعجيب في الأمر أن هذا الغول هو سالم الأسمر بعينه، الذي قُتل في المغارة الغربية، هو وحميدة الشقرا.

تمكن الخوف والفضول من النسوة، وطالبن حنة بسرد المزيد. وبالفعل قامت بوصف ما رأته في تلك الليلة، إلا من المكان الذي شاهدته به، خوفاً من افتضاح أمر علاقتها بسعدون.

لكن الحكاية لم تبق كما هي، بل أخذت منحى آخر، فقد صارت لها أنيابٌ كأنياب دراكولا، وأظافر طويلة أقوى من المعدن، وعينان تتطايران شرراً، فأعيا الخوف النسوة، إذ غادرن بعد أن سمعن شقي الحكاية عن الغول الذي رأته عيني حنة، والذي رأته مخيلتها.

***

كان مختار القرية جالساً بظل بيته، المكون من غرفتين تصطفان جنباً إلى جنب بشكل طولي، وقبالتهما شيّد مرحاض خارجي، ومطبخ منفصل عن بنية البيت، ينكش التراب متكئاً على كوعه، يدندن بلحن قصيدة تحكي عن فارس قتل أربعين رجلاً بأربع ضربات من سيفه.

جلست زوجته نعايم على طرف الفرشة الأسفنجية التي استلقى عليها، وسلّمت ذقنها لكفيها، فبدت منزعجة من أمر ما.

– وش في يا مره؟

قال المختار بصوت متحشرج.

– غول، في غول بالقرية.

استغرب المختار مما تقوله زوجته:

– غول؟

– نعم غول.

لاحت في وجهه ملامح توتر، مقرونة بملاح الضحك:

– إن شاء الله غول يوكلك، هو ظل بالدنيا غول يا حرمة!

– غول، سينتقم لسالم الأسمر وحميدة الشقرا.

صوَّب جلسته عندما سمع اسم سالم الأسمر، وبدا مهتماً بالاستماع لما تقوله نعايم. فقصت عليه كل ما سمعته من حنة، ثم صمتت قليلاً، وقالت له بأن الغول ابتلع على مرأى من حنة، التي كادت تجن، عنزاً بأكملها. وسمعته وهو يغادر القرية، بأنه سوف ينتقم لنفسه، ولحميده الشقرا، وسوف يأكل كل أهل القرية. أكملت نعايم حكايتها وأجهشت بالبكاء خوفاً ونهضت تلوذ بالبيت.

ذهل المختار وهو يسمع اسم سالم الأسمر، وراح يستذكر ما قالته نعايم، وتلك الحكاية التي مثلما سخر منها، أشعلت في داخله بداية لنار الخوف من المجهول الغائب. فقد سمع بحكاية سالم الأسمر وحميدة الشقرا، منذ أيام طفولته، لذلك هو مثل البعض، لم تطأ قدماه أرض المغارة، ولم يمر حتى قريباً من البستان.

بلمح البصر انتشرت حكاية الغول كما تنتشر أشعة الشمس في السماء، وصارت حديث الناس، الذين أخذ الكثير منهم بإضافة مشهد لها، حتى وصل الأمر إلى أن الغول بدأ بحصد ضحاياه. ازداد الأمر سوءاً عندما فُقد (عواد أبو الدفاين)، الذي أفنى عمره يفتش عن الدفائن الذهبية ولم يجد شيئاً. فقد جاءت زوجته للمختار تولول وتصيح، وتقول بأن زوجها لم يعد إلى البيت، وإنها خائفة من أن الغول قد أكله. صبيحة اليوم التالي، وجد أحد الرعاة جثة عواد في واد في الجهة الشرقية للقرية، ممزقة ودماؤه تسيل، فارتوى منها التراب. حينها ملأ القرية صراخاً، وهو يقول بأنه شاهد الغول يأكل عواد أبو الدفاين، فهرع عدد من الرجال وحملوا جثة عواد ودفنوه، ثم انفضوا سريعاً بينما الخوف يسيطر عليهم، ويقض مضاجعهم التي تقلبوا بها، وهم يتوسدون أسلحتهم، خوفاً من غول سالم الأسمر.

***

نفد ماء الشرب، والقليل من البسكويت الذي كان بحوزة علي بن محمود القصاد، وهو يمكث يومين في المغارة، محتاراً بما يمكن أن يفعله، والأحداث – دون أن يدري – تتسارع وتصير عقبات في طريقه نحو

قريته، غير راغب بالعودة إلى مدينة لفظته.

لم يأت أحد إلى البستان منذ أن شاهدته حنة، فاطمأن وخرج ذاهباً نحو بئر الماء فاغتسل، وملأ زجاجته، وعاد للمغارة.

من حقيبته أخذ دفتره واستلقى بباب المغارة، والقرية هذه المرة تلوح أمامه واضحة، بحيث استطاع أن يميز بيوتها القديمة، والبيوت القليلة التي بنيت في غيابه، فلم يجد أي تغيير طرأ عليها. إنها القرية ذاتها التي غادرها ذات يوم، بل إنه لم ير حقول الشعير في مرتفعات القرية، ولم ير بيادر، ولا قطعان ماشية ألفها.

سمع صوت مكبرات المساجد الثلاثة تنادي للصلاة، ورأى من بعيد عدداً من الناس يؤمونها، بينهم رجال بثياب قصيرة ولحى طويلة.

استلقى ماداً جسده على الأرض، يكابد أحاسيسه المتشابكة، ثم فتح دفتره وراح يقرأ:

«مرت سنين علي هنا في بلاد الحرية. كل شيء هنا حرّ، حتى الحجارة طاوعت نحاتين، جسدوا أفكارهم، وأخرى لم تفعل. الحب هنا، حرف أول في صفحة حياة، أمشي فيها كقلم لا يقوى على خط كلمته الأولى لأنك لست معي، فأعتزل في ليل كل يوم، وأكتب لك، خاصة بعدما تيقنت أن رسائلي لا تصلك. ها أنت تصيرين السطر، والحبر والدواة، ففي الحب تصبح الأشياء،كل الأشياء رهينة من نحب، كأن نرى شجرة خضراء على ضفة النهر، تتلذذ برشقات الماء على جذعها، وتبتهج الأوراق بالاخضرار، فنتذكر وجنتيّ من نحب، حينما تصبح وردية إثر خجل أولى القبلات.

أكتب لك، وأنا على يقين بأنك تنصتين لي، العيون والآذان

ليست هي الوسيلة الوحيدة، لتسمع عاشقة همس معشوقها وترى ملامحه، بل إن القلب سيد تلك الوسائل، ياجناحيّ الواسعين.

أكتب لك وأنا أعي أنك تسمعينني الآن، كما لو أن خيطاً لا يُرى يصل بين روحي وروحك، فتنتقل الذبذبات. أنت معي، هنا في شقتي الصغيرة، والتي استقررت فيها بعد أن بدأت أيام دراستي في جامعة السوربون، قبل سنين من الآن.

باريس مدينة جميلة، تثير فيكِ رغبة غريبة للبكاء، من ذلك النوع الذي يداهمنا حينما تلامس جبين القلب يدُ الجمال. لكن المدن الجميلة لا تستقر في رف القلب، إلا بمعية امرأة مثلك، تعرف كيف تسوس خيل القلب، وترتب فوضاه.

لا تبعد شقتي التي تقع في الحي اللاتيني كثيراً عن الجامعة. في كل خطوة لي نحوها، أجدك تمشين بقربي،كطيف وفيّ، بل إن إبهامك يلامس شريان قلبي، فيحصي كم نبضة أطلق القلب يوم رأيتك للمرة الأولى في تلك السنين، التي قطعوا فيها بخنجر عيبهم وبمقص حرامهم، شجرة حلمنا بالحياة.

أراك يا شمعة القلب، مع كل حرف أقرؤه، ومع كل كلمة أكتبها. أراني بكل ذلك النهم لعالم جديد يصالحني مع ذاتي.

ها أنا الآن استلقي في سريري. سأنهي حديثي لك هذا اليوم. فلقد بدأت أتداعى للنوم، ويدك التي لامست وجهي في تلك السنين، تلامس وجه قلبي، فأهدأ، وأرخي بدني للجة النوم العميق.»

أقفل ابن القصاد دفتي الدفتر، ورمق القرية بنظرة عريضة، بينما عتمة الليل أخذت تستشري بها، وتحيل الأشياء إلى أصلها السرمدي.

فعاد إلى حضن المغارة، الذي أخذ يحس به آمناً أكثر من أي مكان آخر.

***

ركن سعدون الغاني سيارته قرب حدود البستان، التي تنتهي عند الوادي، وبقي جالساً فيها، بعد أن أطفأ محركها وأضواءها. فتح زجاجة ويسكي وبقي يشرب منها، إلى أن تمكنت منه الثمالة. فترك السيارة مترنحاً، وبقي يصعد المنحدر، إلى أن وصل حيث التقى تلك الليلة بحنة. وأخذ يصرخ بأعلى صوته الباكي:

– أين أنت يا سالم الأسمر. أينك أيها الغول. تعال واخرج إليّ لتأكلني.

تناهى صوت عدون لمسامع ابن القصاد، عندما كان يضطجع في المغارة، فنهض منزعجاً يفكر مرة أخرى بالهروب. لكن الصوت أخذ يقترب منه، غاضباً:

– أين أنت يا سالم الأسمر. اترك حميدة الشقرا قليلاً وتعال لأراك، تعال حاكمني أنا، وخذ مني حقك المزعوم.

كان ابن القصاد يقف متأهباً في المغارة، حينما رأى سعدون الغاني يحمل بيد زجاجة ويسكي، وبالأخرى مشعلاً يستضيء به ويدخل المغارة:

– أينك يا سالم؟

ما إن عبر باب المغارة بخطوات غير متزنة، ورفع المشعل عالياً، حتى بان له علي بن محمود القصاد واضحاً، فسقطت الزجاجة

والمشعل من يده، لفرط الخوف الذي دبّ به عندما رآه، فانحنى ابن القصاد وحمل المشعل، وقال بصوت هادئ بينما سعدون يتسمّر خوفاً وأطرافه ترتعد:

– أنا لست سالم الأسمر يا سعدون الغاني. أنا علي بن محمود القصاد.

لم تصدر عن سعدون سوى همهمات، مردها رعب سرى ببدنه سريعاً، رغم كمية الويسكي التي شربها.

كرر ابن القصاد كلماته:

– نعم، علي بن محمود القصاد، وسالم الأسمر محض شخصية ابتكرتها مخيلاتكم.

بقي سعدون الغاني لدقائق غير مصدق ما يرى، ثم قال بصوت خائف، وحركاته تدل على نيته بالفرار:

– لكني أعرف شكل ابن القصاد، رغم أني أسمع الآن صوته الذي لن أنساه.

اقترب ابن القصاد، فأخذ سعدون الغاني يتراجع للوراء خوفاً:

– هل نسيت حين أوصيتك بأهلي يوم سافرت إلى فرنسا؟

بدا الاندهاش واضحاً على وجه الغاني، فأكمل ابن القصاد حديثه:

– تعرضت لحريق وأنا في فرنسا، فوجدتني غريباً بملامحي الجديدة التي لم يقبلها مجتمع مثل ذاك. فعدت إلى الأردن، لكنني خفت من عودتي للقرية، وأنا أتساءل، هل ستقبلني بملامحي هذه المرعبة، وقد أنفقت عليها كل ما جنيت من مال طوال خمسة عشر

عاماً. فضلت أن أبقى في عمان التي جعلتني لسنوات، ليس غريباً عنها فقط، بل حتى عن نفسي.

أمضيت تلك السنين متسولاً يا سعدون، ومدمناً على الآغو، الذي كان فعله الكيميائي ينسيني شيئاً من وجعي. لكن بصقة من فم رجل جعلتني أحملني بكل بشاعتي، وأعود للقرية. تهيبت أن أدخلها نهاراً، فأتيتها ليلاً؛ إذ شاء القدر أن تراني حنة، حيث كنت على مقربة منكم ليلتها، فهربت للمغارة معتقداً أن أهل القرية سوف يأتون للبحث عني.

ثمة صمت احتل المكان لبرهة، كانا عبرها ينظران في وجهيّ بعضهما. حينها اقترب سعدون الغاني من ابن القصاد، وقال بصوت ناشج:

– يااااااااااااه يا علي، تركت هذه القرية محروق القلب، وها أنت تعود إليها محروق الجسد يا صديقي.

تعانقا بينما كان نشيج علي بن محمود القصاد، أعلى من نشيج صديق طفولته سعدون الغاني، وصداه يرتد عن جدران المغارة، ويفر عبر بابها.

بقيا ليلتها يتحدثان حتى بزوغ الشمس. أخبر علي صديقه سعدون بكل ما حدث له منذ رحيله من القرية. وسعدون لا يرف له جفن، ولا يشيح ببصره عن صديقه بملامحه الجديدة التي لها أن تثير الرعب في قلب أي إنسان يراه.

سأله ابن القصاد بعد أن انتهى من حكايته:

– كيف هي أحوال أبي وأختي فاطمة؟

صمت سعدون محتاراً فيما يقول، ثم عاود ابن القصاد السؤال مرة

ثانية، فأجابه سعدون والأسى يهشم صوته:

– لقد مات والدك يا علي، بعد أن ماتت أمك حسرة على غيابك بأيام.

أخذ جسد ابن القصاد بالارتعاش، وصوت آخر كلمات والده تحوم في مسامعه، ليلة سفره المظلمة، حينما نصحه بترك البلاد.

– وفاطمة؟

قال بصوت بدا كصوت من خارت قواه، إذ أشاح الغاني وجهه، يراقب ضياء يتسلل عبر بوابة المغارة:

– تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى استراليا.

بصوت مهزوم نطق ابن القصاد بسؤاله الأخير:

– ألهذا لم أر ضوءاً للبيت منذ أن أتيت القرية؟

قال سعدون مصاباً بأسى ربما وازى أسى علي، بفقدانه لعائلته:

– وأنت في فرنسا، ساءت الحالة الاقتصادية لعائلتك، كحال هذه القرية المنسية، فباع والدك البيت، وبقي فيه مستأجراً.

استشاط ابن القصاد لحظتها ببكاء مرّ، بقيت أصداؤه تتكاثر بين جدران المغارة، إلى أن صمت منكسراً، لا يقوى على النهوض. لكن سعدون أمضى وقتاً يتحدث إليه، ويحاول أن يحيي به أملاً جديداً للحياة. حينها اتفقا قبل أن يغادرا المغارة، أن يجمع سعدون أهل القرية، ويخبرهم بحقيقة ما حدث.

***

لم تقو الحكاءة، على مداراة دموع هبطت على خديها، حينما توقفت عن سرد الحكاية. لمحتُ وأنا أراقب وجوه الفتيات والفتية، تأهباً لدموع هي الأخرى، سوف تجري على وجوههم لما سمعوه، ففرحت لما لحكايتي من قدرة على إيجاد مكانها في قلوب من استمعوا لها. عاودني السؤال ذاته حيال حكايتي، وادعاء تلك المرأة أنها رأتها في منام من مناماتها. كدت أنفجر بوجهها وأطلق سؤالي، لكنني تعقلت وآليت الصبر لأجني باقي أجزاء الرواية.

جففت الحكاءة دموعها بكم ثوبها، وراحت تلف سيجارة بأصابعها المرتعشة، ثم أشعلتها وشتمت النار، كما تفعل في كل مرة، إذ نفثت دخانها، وقالت توجه حديثها لي، دون أن تنظر في وجهي:

– للحكايات يا خاطر أجنحة، أوسع من أجنحة الطيور الخرافية، التي قرأنا عنها في الكتب.

قالت ذلك ونهضت مغادرة، دون أن تنتظر مني تعقيباً على ما قالته. وبقيت تمشي بتمهل، إلى أن غابت وراء سور بيتها. حينها راودني خاطر بأن الحكاءة تقرأ أفكاري، وتعلم بأمر تساؤلي حول روايتي، فعاودني الشعور بأن هذا المرأة تعني لي شيئاً.

***

حينما وصلتُ البيت، لم تسألني رحاب كعادتها عن الحكاءة، وكيف كان مجلسها، بل غادرت لزيارة صديقة لها، بعد أن جهزت لي فنجان قهوة، وحثتني على الإسراع بتدوين ما سمعته في ذلك اليوم

من الحكاءة. دخلت الغرفة وجلست إلى طاولتي، فدونت الجزء الثاني من الحكاية كما سمعته. وحينما رحت أعيد قراءة ما دونت، جاءني صوتي عبر بقايا الحاسوب، هذه المرة غاضباً:

– ألم أقل لك إن هناك نقصاً في الحكاية؟ هناك أشياء لم تقلها الحكاءة، لماذا تغاضت عنها فما عاد يمكنك تدوينها، وذاكرتك فقدت الرواية بأكملها؟

أشعلت ضوء الغرفة فوجدته في زاوية أخرى من الغرفة:

– عليك أن تخبرني أنت بما نقص من الحكاية إذن.

من بيت جاري، أتى صوت المذياع، يبث صوت رجل غاضب يتوعد الكتاب والشعراء بعذاب أليم. أقفلت النافذة، وعدت لكرسيي قبالة ما تبقى من الحاسوب، وإذ بي لا أجده في مكانه، هرعت إلى خزانة المطبخ وإذ بي أجده هناك.

حينها سألتني رحاب حال عودتها للبيت:

– هل تريد شيئاً يا حبيبي؟

– لا يا حبيبتي، لا أريد شيئاً.

-٣-
ابن القصّاد

مثلما يطاوعنا العقل نحو دروب الحقيقة،
يطاوعنا نحو وحشة الخرافة، إنْ أهملناه.
علي بن محمود القصاد

(نعم أعرفها)، هذا ما قلته في نفسي مندهشاً، ورائحة الحكاءة تصفع وجه قلبي، بعدما جلستْ تحت الشجرة، وأطلّت بوجوهنا مبتسمة. نفضت رائحتها الغطاء عن ذاكرتي، فاستفاقت وأطلقت بي صرخة حنين لجهة مجهولة. إنها ليست الرائحة التي تنزّ عن رذاذ عطر يلامس الجسد، بل إنها رائحة الجسد ذاته، هوية لا تقل أهمية عن بصمة اليد.

زحفتُ قليلاً نحوها قبل أن تبتدئ بجزء جديد من الحكاية، وقلبي يأخذني إليها كقطعة معدن يجذبها مغناطيس. حينها لم تقل شيئاً، ولم تحتجّ على تجاوزي تسلسل أجسادنا، وقد شكلت نصف دائرة. رأتني بطرف عينها، فلمحتُ ابتسامة خفية، أخذتني هي الأخرى نحو جهة غريبة من حنين، غير حنين رجل لامرأة وقع في عشقها، لقد كان إحساساً غامضاً، راح على مهل يتشكل بي.

قالت فتاة هامسة:

- كأنها تعرفك.

كنت سأجيبها، لكن الحكاءة كعادتها هيأت صوتها، تتنحنح، فانطلق هادئاً، يأخذنا نحو باقي الحكاية:

{بسبب مقتل عواد أبو الدفاين، أخذ القلق والخوف ينتشران في القرية بسرعة مذهلة، فلم تمض أيام عزائه كما تمضي أيام أي عزاء متوفى آخر، يستغلها الناس لتعداد مناقب الفقيد والترحم عليه، مهما كانت سمعته، بل مضت في الحديث عن الغول وما يمكن فعله بصدده. رأى المختار أن من الضروري الذهاب في وفد للمحافظ، والتقدم بطلب للجهات الأمنية لحماية القرية من ذلك الخطر الكبير، فعارضه شيخ المسجد خضر المحمود، إذ قال وهو يحرك خرز سبحته:

- يا مختار، لا تتعجلوا، أعتقد أن هنالك لبساً في الموضوع، ليس هنالك من شيء في القرية، مما يتحدث عنه الناس، حكموا عقولكم، هل حقاً تصدقون حكاية الغول هذه؟

لكن المختار لم يعر الشيخ خضر المحمود انتباهاً، فأنصت لأستاذ المدرسة عبد الله المسكوب، الذي رأى أن الجهات الأمنية لن تفعل شيئاً بخصوص حادثة مثل تلك. فقد اعتبرت أن حيواناً قد افترس عواد أبو الدفاين، غير مقتنعة بما يتناقله الناس عن الغول، بينما رأي محمد القميحي الذي استقر في القرية بعد غياب طويل في أفغانستان، يحارب السوفييت، فعاد يرتدي ثوباً قصيراً ويطلق لحية كثة، أن ما يحدث هو عقاب إلهي سببه بُعد الناس عن الدين. فرأى أن على أهل القرية، أن يلتزموا المساجد، ويدعوا الله أن يجنبهم هذه المحنة.

- ديننا لا يعترف بالخرافات، يا شيخ محمد.

لم يعقب محمد القميحي على ما قاله خضر المحمود، وكأنه لم يقل شيئاً.

طُرحت كثير من الاقتراحات في أيام العزاء، لكن ما من أحد فعل شيئاً، بل سيطر الخوف أكثر على سكان القرية، فصارت حكاية الغول مدار أحاديث النساء الليلية، بينما الأطفال يرقدون في فرشات نومهم يستمعون لهن، وهن يسردن الحكايات بهمس خائف، فتأخذ كل امرأة دورها بإضافة شيء جديد على الحكاية. هذا الدور الذي لم يقتصر على النساء فقط، بل انتشر بين بعض الرجال، وباتوا يتناقلون الحكاية، فصارت ككرة ثلج كلما تدحرجت أكثر، كبرت أكثر. وليس ذلك فقط لمقتل عواد أبو الدفاين، إنما أيضاً لغياب سعيد الليلي، موظف شعبة البريد الهزيلة، والتي بالكاد يصلها أو تُرسل منها رسالة.

فقد سُمع في الصباح نواح أمه، وشاهدوها تشد شعرها حزناً عليه، شاتمة الغول، فخرج عدد قليل من الرجال الذين لم يتمكن الخوف منهم للبحث عنه، لكنهم عادوا دون نتيجة. وبالفعل فُقد سعيد الليلي، إذ قدّر الناس أن الغول قد اختار ضحيته الثانية، فالتهمها بأكملها، وما تبقى له أثر يدل عليه. فأصبح كل واحد يرى نفسه في قائمة الغول، وما المسألة سوى وقت.

***

توضأ سعدون الغاني، ودخل إلى المسجد، ثم نادى عبر الميكرفون:

– يا أهل القرية، من يرغب منكم بمشاهدة الغول، عليه أن يأتي إلى باحة المسجد.

تدافع عدد كبير من الناس من كل أطراف القرية إلى باحة المسجد الواسعة، رغم الرعب الذي تفشى في قلوب الكثير، منذ أن أذاعت حنة نبأ رؤيتها للغول، فتبعه مقتل عواد أبو الدفاين، وفقدان سعيد الليلي.

ما إن وصلوا حتى تعالت أصوات بعضهم، متسائلين عمن وجَّه لهم النداء، والبعض الآخر راحوا يجترون حكاية الغول وما فعله، منتظرين ما سيكشف عنه صاحب النداء.

من وراء الجدار أطل عليهم سعدون الغاني، تشوب حركاته ملامح ارتباك، رغم سطوته في القرية، ثم اعتلى زاوية السور، ملاحظاً استغرابهم:

– أنا من وجّه لكم النداء.

من بين صفوف المتجمهرين علا صوت محمد القميحي غاضباً، وهو يشق طريقه مرتدياً ثوباً قصيراً وحطة بلا عقال، غطت أطرافها جزءاً من لحيته الطويلة:

– وكيف تدخل المسجد أيها الكافر.

قال سعدون:

– أنا لست كافراً يا شيخ.

– شارب الخمر وتارك الصلاة كافر، والزاني كافر.

أشار أستاذ مدرسة القرية عبد الله المسكوب بيده مستهزئاً بسعدون الغاني، وملامح الخوف من الغول ما تزال بادية على وجهه:

– (بدنا) نلاحق العيار لباب الدار يا جماعة.

من بين تلك الأصوات نما صوت المختار نحيلاً، بالكاد يُسمع، كأنه يستسلم للنعاس:

– طيب وين الغول يا سعدون؟

ساد المكان صمتٌ حذرٌ تخللته همهمات، وأصوات تشبه الفحيح، حينما بدا على سعدون أنه يفكر بما سيقوله بشأن الغول:

– سأخبركم... لكن عليكم أن تصدقوا ما تراه أعينكم، وما ستسمعه آذانكم.

تعالت صيحات فضولية، ونداءات خائفة، تستعجل سعدون وما سيكشفه. بينما لاذ آخرون بصمتهم، مترقبين ما سيظهر للعيان. هبط سعدون من مكانه، ويمم الجهة الأخرى لسور المسجد، حيث ينتظر علي بن محمود القصاد، كما اتفقا.

ما إن أطل سعدون الغاني وابن القصاد على من تجمهروا في الباحة، حتى انفجر الضجيج الذي أتى خليطاً من صيحات الخوف والاستغراب والاشمئزاز، بينما وقف ابن القصاد يراقب وجوههم، يستذكرهم واحداً واحداً، ويلاحق ببصره من هرب من المكان، ومن تراجع للوراء بخطوات خائفة.

صعد سعدون الغاني زاوية السور مرة أخرى، بعد أن سمع أصواتاً لرجال يحملون بنادق، تطالب بالانتقام لعواد أبو الدفاين وسعيد الليلي:

– هذا ليس الغول... هل رأيتم غولاً بهيئة آدمي؟ هذا الدكتور علي بن محمود القصاد.

ساد الصمت المطبق مرة أخرى، بينما كانت العيون تحدق بابن القصاد، تحاول أن تجد رابطاً بين تلك الملامح الغريبة، وجسده المشوه، وبين ابن القصاد الوسيم، الذي وقعت سابقاً بحبه كثير من نساء القرية.

جاء صوت المختار مرتعشاً، من بين الأصوات التي أخذت من جديد تختلط ببعضها:

– هذه إحدى ألاعيبك يا ابن الغاني.

تبعه صوت محمد القميحي محرضاً:

– ألا يكفي أنك دنست المسجد أيها الكافر، وتريد أن تلوث عقول الناس أيضاً. أنا والجميع يعرفون ابن القصاد.

قال خضر المحمود، الذي بدا في الخمسين من عمره، والشيب ينتشر في لحيته المرسلة، فبدت خليطاً من اللون الأبيض والأسود، في وجه بشوش هادئ:

– يا شيخ محمد، ألا ترى أن كلمة كافر باتت تجري بسهولة على لسانك؟ هذا لا يجوز.

– وهل تعتقد يا شيخ خضر أنني سأنتظر رؤيتك، لأتيقن من هو الكافر ومن هو المسلم.

امتعض خضر المحمود مما سمعه:

– أنصحك يا ابن القميحي أن تتفقه في دينك أكثر مما أنت عليه الآن.

من طرف المتجمهرين مشت حنة بخطوات مرتبكة، تغالب خوفها وارتعاشها، تحاول أن تتأكد من أن من رأته في البستان المهجور، هو

نفسه من يقف في باحة المسجد صامتاً، لكن الأمر اختلط عليها، فهي ترى رجلاً مشوهاً، بينما من رأته في تلك الليلة المظلمة، يختلف عن هذا الشخص بشع الشكل.

قالت زوجة المختار وأسنانها تصطك لفرط الخوف:

– هذا من رأيتهِ يا حنة؟

حدق سعدون الغاني غاضباً في وجه حنة، خوفاً من أن يُفتضح أمر لقائه بها في البستان المهجور. لكنها تداركت الأمر:

– نعم هذا من رأيته، قرب حظيرة الماعز.

أصاب الذهول زوجة المختار، وفرت هاربة وهي تنادي:

– هذي خطية حميدة الشقرا، وسالم الأسمر.

ثم تبعتها حنة وعدد من النساء ولذن بالفرار، وهن يؤكدن أن ما يحدث للقرية، هو لعنة حميدة الشقرا وسالم الأسمر.

اجتمع حول محمد القميحي رجال لهم هيئته نفسها، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم، ثم أخذوا يحدثون المختار، بينما سادت فوضى الأصوات من ورائهم.

كان ابن القصاد في تلك اللحظات، يرزح تحت سياط حزن عميق موجع، تبين سعدون الغاني ملامحه في عينه الوحيدة، التي كاد الدمع يفر منها، حينما كان ينظر في وجوه عرف أغلبها.

قال المختار آمراً، بعد أن فرغ من الحديث مع القميحي وجماعته:

– اسمع يا سعدون الغاني، أنت سببت لهذه القرية كثيراً من المشاكل، وها أنت تأتي لها بمصيبة جديدة، لا نعرف ما غرضك من ورائها. عليك أن تأخذ صاحبك هذا وترحلا عن القرية.

هبط سعدون من السور، وراح يحدث المختار من مسافة قريبة، بكلمات تستعطفه:

– يا مختار، أقسم لك إن هذا ابن القصاد.

جاء صوت من وراء المختار لامرأة سمراء طويلة، في الأربعين من عمرها، بدا أنها تود قول شيء ما:

– أنا لدي الدليل أن هذا ابن القصاد.

لقد عرفها علي بن محمود القصاد، إنها (لمعة) التي لم تتبدل ملامحها، كما رآها قبل خمسة عشر عاماً.

قال القميحي مشككاً:

– وأنت ما معرفتك بابن القصاد يا لمعة؟

– أنت ابن القرية يا محمد القميحي، وتعرف أننا كنا عائلة واحدة. هل لأنك غبت لسنوات تقاتل في أفغانستان، وعدت بملامح جديدة، أصبحت تتساءل ما معرفتي بابن القصاد؟!

قال المختار هازئاً:

– هاتي دليلك يا لمعة.

قالت وهي تنظر في وجه ابن القصاد، آسفة وحزينة لما جرى له:

– في طفولته سقط ابن القصاد من أعلى جرف في الناحية الغربية للقرية، ومُني ظهره بجرح غائر، حشرته أمه بالكحل ليتوقف النزيف، وأنتم تعلمون أن لون الجرح فيما بعد يميل للاخضرار.

سارع سعدون الغاني بالكشف عن ظهر ابن القصاد، بينما أخذ الجميع كل يفتش له عن جهة ليرى الدليل. عندما كشف سعدون عن ظهر ابن القصاد، صاح القميحي مستغفراً:

– استغفر الله. هذا شكل صليب، يبدو أن هذا الرجل وشَم صليباً على ظهره. هذا الرجل نصراني كافر.

ثارت ثائرة سعدون الغاني لحظتها، يدفع القميحي بيديه، بينما راح جماعة القميحي يلتفون حوله:

– أي نصراني يا رجل، وأي كافر!؟ هذا شكل حفرته الصخور المدببة التي سقط عليها، وجاء الكحل ليمنحها هذا الشكل.

قالت لمعة وصدى صوتها تتقاذفه جدران المسجد:

– نصف بنات وأبناء هذه القرية ولدوا على يدي أم وليم المسيحية، يا محمد القميحي، وأنت أحدهم، لماذا لم يقل أهلنا أنهم كفرة من قبل؟! ثم إنني رويت لكم ما رأيته بأم عيني في طفولتي، عندما أوقفت أم علي النزيف بالكحل.

ستر ابن القصاد ظهره، وصعد إلى السور غاضباً ثم أخرج من جيبه هويته الشخصية:

– أنا علي بن محمود القصاد، وهذه بطاقة تثبت نسبي، تعرضت لحريق أثناء إقامتي في فرنسا، لهذا ترونني على هذا الشكل. أعرفكم واحداً، واحداً. صحيح أن جسدي طالته النار، لكن ذاكرتي وقلبي سليمان. من يريد أن يصدق، فقد صدق، ومن لا يريد فهذا شأنه، هذه قريتي وليس لأحد سلطة تخوله أن يمنعني من أن أمكث بها.

تدافع الرجال الذين يحملون بنادق، مقتربين من مكان ابن القصاد؛ وقال أحدهم بوجهه الغاضب:

– إذن أنت من قتل عواد أبو الدفاين، وسعيد الليلي.

حينها استل سعدون الغاني بلطة، خبأها تحت ثيابه:

– ابن القصاد لم يقتل أحداً، ومن يقترب منه سأقطع رأسه الآن.

وراح يلوح بالبلطة يميناً وشمالاً. كادت أن تنشب معركة، لولا أن المختار وعبد الله المسكوب والقميحي، فرقوا الناس فعادوا إلى منازلهم، وهم يتحدثون بأمر الغول، الذي أكل شخصين من أهل القرية، وعن ابن القصاد المزعوم.

***

انتصفت الشمس في السماء، فاشتعلت الأشياء حرارة، وتفجرت أنهار السراب في السهول الصفراء المقفرة، وفي رؤوس الجبال التي بدت كرؤوس آدميين طاعنين في السن. وخلت طرقات القرية من سكانها الذين لاذوا ببيوتهم قديمة الشكل والطراز، وتبقت الشوارع التي حفلت بحفر كثيرة، خالية إلا من أوراق ونباتات شوكية ناشفة، طوحتها الريح ليلة البارحة.

كان علي بن محمود القصاد يفترش التراب، ويتكئ بجسده على سور المسجد، يراقب بأسى البيت الذي ولد فيه، وصدره يعلو وينخفض من دون أن يقول شيئاً. اقترب منه سعدون الغاني، وربت على كتفه:

– علينا أن نغادر الآن يا علي. هناك غرفة في طرف القرية، كانت لعائلتي، سنجهزها لك، تقيم فيها ونرى ما يمكن أن نفعل فيما بعد.

صمت سعدون لقليل من الوقت ثم أضاف:

– ليتني يا صديقي أمتلك بيتاً واسعاً لأنزلك فيه. أنت تعرف أن بيتي عبارة عن غرفة واحدة أيضاً.

انحنت لمعة مقتربة من وجه ابن القصاد، وفي وجهها ابتسامة كالتي عهدها قبل رحيله من القرية:

– هل تتذكر يا علي يوم كنا نمتطي المكانس، ونغمض أعيننا ونسافر إلى بلدان قرأنا عنها في كتب الجغرافيا؟

قرفصت قربه، واضعة يدها على ركبته، محدقة بوجهه، كأنه وجهه الذي عهدته أيام كان النوم يفارقها لحبه الذي ما زالت تقتات عليه:

– هل تتذكر يا ابن القصاد يوم قال والدك قصيدته الشهيرة عنا، ونحن نتوسل المكانس لتطير، والدك الذي سمي بالقصاد لعذوبة كلمات قصائده.

نظر في وجهها ساهماً، مخطوفاً لجهة الأسى:

– نعم يا لمعة ، ما زلت أتذكر.

–إذن قم، واذهب مع صديقك إلى حيث ستقيم.

نهضت ثم وجهت حديثها لسعدون:

– لا تنس أن تمر بي، لأعطيك بعض حاجيات، تلزم بيت عائدنا الجديد.

وهما يغادران، رأى ابن القصاد عبر نافذة سيارة سعدون القديمة، مشية لمعة التي لم تتغير. كانت تغذّ خطاها كما لو أنها تمشي على ضفاف نهر، تحرسه الأشجار والأعشاب. فلمعة امرأة تعيش على مخيلة هونت عليها مرارة الواقع، وجعلتها تحافظ على جمال لم يتراجع، حتى بعد زواجها من محمد القميحي، الذي أمضت معه عدداً من سنينها موجوعة، إلى أن طُلقت، وأوت إلى وحدتها تتجنب ألسنة

الناس الذين لا يرون في المطلقة، سوى امرأة شبقة تتحرى الرجال أينما كانوا.

هبط سعدون الغاني وعلي بن محمود القصاد من السيارة أمام غرفة في طرف القرية الغربي، أنشئت كزريبة للأغنام ثم تحولت إلى مخزن للحبوب، أيام كانت الأمطار تسقط فتكاد تغرق القرية، فتزدهر الحقول بالحبوب وبالنباتات والحشائش البرية. قال سعدون بلكنة ممازحة:

– ما زالت لمعة تحبك يا ابن القصاد، رغم أنها تعلم أن قلبك رهينة عند ابنة عاهد المشاي. وما زالت تراك عليّاً، الذي غادر القرية وهي تقف إلى النافذة تغالب نشيجها الصامت، من دون أن تحظى منك ولو بالتفاتة واحدة.

لم يقل ابن القصاد شيئاً، إلا أنه شبك ذراعيه على صدره، وأخذ يمسح القرية بنظرة واسعة. تركه سعدون بعدما أخبره أنه سيعود حاملاً بعض ما يحتاجه للإقامة. جلس على عتبة الغرفة معاوداً النظر للقرية، ومن ذاكرته تنهض أيام كثيرة بتفاصيلها، وتنهض أسئلة جديدة. تذكر أمه وأخته فاطمة، وشعر بأسى أنها فقدت الأمل بعودته فغادرت البلاد، وتذكر أباه الذي كان أهل القرية يجتمعون عنده ليسمعوا قصائده وأحاديثه الشيقة.

عاد سعدون الغاني، يحمل فرشة صوفية وأغطية، وبعض الأثاث والأواني، التي استطاع الاستغناء عنها، بينما أرسلت معه لمعة (بابور كاز) وبعض الأطعمة والخضار.

مكث سعدون ساعات، كنس فيها الغرفة ونظفها بالماء. ثم

استخدم عدداً من طوب البناء، وضع عليه لوحاً خشبياً، اعتلته فرشة صوفية وأغطية ووسادة، فبدا سريراً صالحاً للنوم، جعل قريباً منه طاولة صغيرة، رتب عليها كتب ابن القصاد وأوراقه ومذياعه، وبعض حاجياته.

ثمة صنبور ماء خارج الغرفة أوصل به خرطوماً بلاستيكياً، ركب في نهايته علبة (شاور) للاستحمام، وثبته في زاوية الغرفة التي جهزها بالكهرباء، مستعيناً بسلك شبكه بعامود إنارة الشارع، وأوصله باللوحة الكهربائية.

على نافذتي الغرفة ثبت ستائر أرسلتها لمعة، وضغط بيده على مفتاح الكهرباء، فتلاشت عتمتها الجزئية، حينما كانت الشمس تتوارى وراء الجبال، فتسللت العتمة إلى القرية من جديد، وابن القصاد ما يزال جالساً خارج الغرفة، يرخي رأسه بين يديه اللتين اتكأتا على ركبتيه المنفرجتين، يحدق بالقرية وإنارات بيوتها الباهتة، وهي تضاء بحركة عشوائية، وسط ذلك الظلام الذي خيم على الأشياء، ومنحها أشكالاً موحشة.

تهالك سعدون قرب ابن القصاد متعباً، يحمل زجاجة عرق وكأساً وزجاجة ماء. سكب قليلاً من العرق وأضاف لهما الماء، ثم شرب من كأسه جرعة وأرخى بدوره جسده على جدار الغرفة:

– لك ساعات تحدق بهذه القرية المنسية يا علي، إنها قرية كسولة، استكان أهلها للكسل، كأن مخلوقاً فضائياً من تلك التي كنت قديماً تحدثني عنها، قد رشها برذاذ للكسل. حتى إن مسؤولاً لم يزرها منذ أن وعيت عليها.

أشعل سيجارة وقدمها لابن القصاد، الذي بدت ملامحه حقاً مرعبة، وإنارة الغرفة تسيل على جزء معين من عتبتها:

– قديماً كان هنالك ثمة بهجة في أرجاء قريتنا، لكنها تلاشت، كان الناس ينتظرون الأعراس من عام إلى عام، فيلتقون ويرقصون حتى الصباح. الآن ما من عرس إلا وتقع به معركة ضارية، رغم أن محمد القميحي وجماعته، يطوفون كل يوم بالبيوت ويدعون الناس للصلاة.

دوت في ذلك السكون ضحكة لسعدون بعد أن أنهى كأسه، وسكب كأساً آخر:

– طيب يا أخي (ليش القميحي ما يروح على العاصمة)، ويطرق أبواب بيوتها.

بدا على ابن القصاد الإعياء، لما سهره من ليلتين في البستان المهجور، حينها نهض سعدون وغادر، بعد أن تمنى عليه أن ينام.

بدا المكان لابن القصاد موحشاً، رغم أنه يتهيأ للنوم في قريته مسقط رأسه. لا أصوات تسمع سوى نباح كلب، وصوت صرصار يشكو الوحدة. كان يجلس قبالة باب الغرفة، يراقب القرية، ويستعيد مشاهد مما حدث له نهار ذلك اليوم. شعر بجرح جديد تسيل دماؤه في دواخله، فأرخى رأسه على الجدار، وأجهش بالبكاء وهو يحدث نفسه:

– لم يعرفوك يا علي. كأنك هذا اليوم محض شخص صور له عقله أنه ابن هذه القرية، وكأنهم رأوك محض مخبول عليهم أن يتخلصوا منه. هل كان عليك أن تروي لهم ذكرياتك معهم، منذ أن كنت طفلاً إلى أن غادرت القرية إلى القاهرة طالباً. هل كان عليك أن تنتزع قلبك من مستقره، وتجعلهم يرون صورهم وهي مطبوعة على

جنباته، ليوقنوا أنك علي بن محمود القصاد؟! أي أسى هذا الذي يطوق جيد قلبي، وأي مصائر علي أن أواجه؟؟

استلقى في سريره لكن الأرق سطا به كما سطا به الوجع منذ سنين بعيدة، فتقلب في فراشه لمرات، لكن النوم استعصى عليه، ففتح دفتر يومياته، وراح يقرأ به:

«مضت عشرة أعوام علي هنا في فرنسا، الشوارع، ومقاعد الرصيف، والأشجار، وحدائق العشب، حفظت اسمك. إن أكثر اللحظات جمالاً هي تلك اللحظة التي يعتقد فيها الناس أنك وحيد، وأنت تمشي في طريق تخلو من أي أحد، دون أن يدركوا أن طيفاً من لحم ودم، يغذ معنا الخطوات ذاتها.

البارحة عدت متأخراً من حانة قريبة لمكان سكناي، كان المطر كعهدي به في هذه المدينة الآسرة، أياد تمسح جبين القلب، بخفة يد لأم رؤوم. لم أفتح مظلتي، بل تركتها مغلقة ومقبضها في يدي كأنه يدك، بل حقاً كانت يدك بيدي، وكنت أستعيد لحظة رأيتك تقفين عند سور المدرسة في ذلك الزمن، مشرعة ذراعيك على اتساعهما، يومها كان المطر غزيراً، كأن خائط السماء، لم يَرْفُ ثوب المدى، فهطل المطر منحازاً لصرخات لا تطلقها إلا قلوب عطشى.

كنت الطالبة الوحيدة التي احتفت يومها بالمطر، اقتربت منك، ووجدتني أدس أصابعي بخصلات شعرك التي سرحها الماء بكل إتقان، حينما انحسر عنه المنديل، ثم قربته من أنفي وشهقت برائحته، التي لن تغادر ذاكرة شيدت لأجلك. لم تخافي في ذلك اليوم، ونحن نتبادل قبلة أمام مدينة لا يفهم الكثير من قاطنيها أن قبلة مثل تلك،

حرية بأن تعجل باخضرار شجرة على كتف حياة، كانت آنذاك رهينة لأياد تسد الطريق في وجهها.

أجلس الآن إلى طاولتي، قبالة النافذة، والمطر يقبّل وجهها بكل اشتهاء، تماماً كما أقف قبالة كل تلك الذكريات التي لا يعينني شيء على العيش أكثر منها. أكتب لك وأنا أعي أن الكلمات طيور محلقة، لها نَفَس طويل على اجتياز المسافات البعيدة. سأغلق الدفتر الآن ورأسك على مساحة خفق القلب، في صدر لن يهنأ إلا بدفء وجهك الذي يؤثث جدار الذاكرة».

***

مر سعدون الغاني بعلي بن محمود القصاد صباحاً، إذ كان يجلس تحت شجرة قرب باب الغرفة، يسند جسده إليها، ساهماً بالفراغ، فلم يحس بالسيارة وهي تقف قربه وتلفظ آخر أنفاسها. مشى سعدون الغاني نحوه بخطوات بطيئة، ثم جلس بجانبه بعد أن رأى كيف تصاعد الحزن من وجهه، والشمس تلقي أشعتها على جانب وجهه الأيمن، وقد حفل بانكماش ما بعد الحريق.

– بماذا تستغرق يا صديقي؟

– في لا شيء.

– لا شيء؟

عدل ابن القصاد من جلسته، وصار وجهه أقرب لوجه سعدون الغاني:

– يحدث لنا أن نحدق في لاشيء، وأن نسهو بالفراغ أحياناً.

لم يدر سعدون الغاني بماذا يعقب على كلام ابن القصاد، الذي عاد لسهوه لبرهة، ثم قال:

– هل لك أن تعيرني سيارتك لساعات؟

استغرب سعدون الغاني مما سمعه، لكنه ما ملك إلا أن يوافق على ما أراده ابن القصاد.

شعر ابن القصاد بارتباك وهو يترك القرية وراءه، يقود سيارة سعدون الغاني، ويتجه نحو المدينة حيث تقيم بارعة، كان وجهها ينمو من كل الأشياء التي يمر بها، وفي روحه يسمع طقطقة تشبه طقطقة الخشب إثر اشتعال النار به. كلما لاح له وجهه في مرآة السيارة، شعر بما يشعر به من يذهب نحو النهر، وهو يعلم أنه لن يجد صورته القديمة فيه، حرك المرآة إلى اليمين، فما عادت تعكس صورة وجهه، كان يعرف أنه يهرب من ملامحه، وكان يدرك أنه يهرب من صوت داخلي يثنيه عما هو ذاهب إليه، لكنه الحب، سيد في قراراته، فلا حيلة لنا قبالة أوامره النافذة.

ركن سيارته بأطراف المدينة، وعبر شوارعها مشياً، يعاني نظرات المارة، وهم يستغربون شكله وهيئته. سار عبر الشارع الذي تقع فيه المدرسة حيث عرف بارعة، فكابد الذكريات ووجعها الذي لا يصفع القلب إلا حينما يحدث الغياب. وقف على الرصيف، وسرح بصره بالطالبات اللواتي كن قد خرجن في استراحة، فامتلأت الباحة بهن.

رأى بارعة تخرج من ذاكرته وتنضم لهن، فبقي يستغرق بوجهها وهي تبتسم له، إلى أن استفاق على صراخ الطالبات وخوفهن منه، فغادر.

في الزقاق الذي كان سيقتاده إلى بيت بارعة، وقف علي بن محمود القصاد متوارياً وراء الجدار، يصارع صوتاً في داخله يأمره بأن يعود، بينما كان يفكر بأن يقرع باب البيت غير مبال بما يحدث، تجاوز الزقاق يمشي عبر فسحة قبالة البيت، فرأى بوابة الشرفة مفتوحة، وفيها مقعد وطاولة صغيرة، عليها كأس ماء ومنفضة سجائر، فانتفض قلبه كأنه جسد واجه صفعة ماء في ليلة باردة.

كاد أن يكمل خطواته نحو بيتها، لولا أنه رآها تخرج إلى الشرفة، فتوارى خلف الشجرة التي تنتصب في منتصف الفسحة وهو يمر بها، شعر بأن قلبه سيشج صدره ويخرج، فيملأ الدنيا صراخاً بما يسكن قلبه من حب لن تأتي عليه كل نيران الدنيا، بقي لبرهة مختبئاً إلى أن أطل، وإذا بعيني بارعة تواجهه تماماً، فانتفضت مرعوبة مما رأته، لكنها لم تغادر، أحس بحدائق تورق أشجارها في قلبه، وشعر بنهر ينساب في روحه قبالة عازفة تروي حكاية عبر مقطوعة لم يسمعها من قبل.

لكنه انصاع للصوت الذي ما انفك يثنيه عن رؤية بارعة، منذ أن خرج من القرية، فترك مكانه وغادر بخطوات سريعة. قبل أن يدخل الزقاق الذي سيتوارى خلفه، شيعها بنظرة عميقة، وهي تقف في الشرفة وتتكئ بيديها على سياجها المعدني، وترمقه هي الأخرى بنظرة عميقة أيضاً، ثم توارى في الزقاق، وفي ذاكرته صوت نائح، وصفير ريح موحشة.

كان ابن القصاد بأطراف الحي حينما سمع المؤذن ينادي لصلاة الظهر، فمر بالمسجد وتوضأ ثم دخله وانضم للمصلين الذين اصطفوا وراء الإمام، فرغ من صلاته وخرج متجاهلاً النظرات إليه، ومتجاوزاً

الحزن الذي اعتاده والناس يبتعدون عنه. بباب المسجد سمع سالم المشاي يدعو الناس بصوت جهوري (تبرعوا للمجاهدين الذين يقاتلون الكفرة السوفييت في أفغانستان) ورآه ينظر إليه نظرة خالطها الخوف والاستغراب.

قبل أن يغادر سأل رجلاً مدّ إليه يده يعطيه بعض النقود، يحسبه متسولاً:

– لم أر شيخ المسجد، ألا يأتي للصلاة؟

أجاب الرجل بأسى:

– لقد مات هذا الشيخ السمح، رحمه الله.

***

رغم ما بذله سعدون الغاني من جهد حين واجه الناس بحقيقة علي بن محمود القصاد، إلا أن أنباءً ذاعت في القرية، مفادها أن الناس أخذوا يسمعون صوت الغول، يصرخ مهدداً بالانتقام لسالم الأسمر وحميدة الشقرا. وكان مصدر النبأ حنة، التي قالت إنها هي ونساء أخريات، رأين الغول لأكثر من مرة في الليالي المقمرة، يركض على رؤوس الجبال، وسمعن صوته الذي لم يكن بالإمكان تمييزه، هل هو صوت آدمي أم صوت حيوان، بل كان –كما قلن– خليطاً من عدة أصوات، وقيل أيضاً إن آخرين رأوا الغول يتجول بين البيوت وفي الطرقات، وإن امرأة أجهضت بسبب الخوف، حين سمعت صوت جلبة غريبة خارج بيتها؛ لذلك أمسى الرعاة يعودون باكراً، لا يبيت أحد منهم في الخلاء من دون سلاح، ومن دون رفقة تؤنسهم، وأخذ بعض

الأطفال الذين صاروا يبولون على أنفسهم، لخوفهم مما يخشون رؤيته، يأوون إلى البيوت باكراً، وفي مخيلاتهم ما رسمته جلسات النساء الليلية الهامسة بوجل، يجتررن الحكايات عن الغول، وما يقوله الناس عنه. حتى إن أحدهم راح يصرخ قبيل فجر إحدى الليالي، مؤكداً أنه رآه يقف بالشباك ويتهيأ لدخول الغرفة. فما إن تتوارى الشمس، حتى تغيب جل الحركة في القرية، كأن لا أناس فيها. لا يخرجون إلا لأمر طارئ، كما حدث في ليلة مقمرة، حينما خرج بعض منهم، ولزم الآخرون البيوت خوفاً من بطش الغول، بعد أن سمعوا صوت حنة تصرخ من نافذة بيتها. (الغول أكل نعايم زوجة المختار)، فوجدوا زوجة المختار التي كانت عائدة من بيت حنة، مضرجة بدماء تسيل من شريان بُتر في رقبتها، ففارقت الحياة. فقد سمعت حنة صرخة نعايم الممتلئة رعباً، إثر مغادرتها بدقائق، وهي تنادي (الغول، الغول).

قيل إن البعض في تلك الليلة رأوا الغول يرقص، وهو يصعد رأس الجبل المجاور للقرية، وقيل إنهم سمعوه يغني غناء غريباً، بعدما أتى على ضحية جديدة.

لم يقتنع الناس بتقرير الطبيب الشرعي، بعد أن أبلغ المختار في اليوم التالي الجهات الأمنية عما حدث؛ إذ أفاد بأن سبب الوفاة كان سقوط المتوفاة على قطعة معدنية بترت شريانها. فقد التفت الجميع لرواية حنة، حين روت أنها سمعت صرخة نعايم، ثم سمعت بعد ذلك همهمة لصوت غريب، اختلط بصدى صراخ نعايم، مستمراً لدقائق قصيرة فتلاشى.

صباحاً راجع المختارُ المحافظَ، بمعية عبد الله المسكوب ومحمد

القميحي وآخرون، طلبوا منه أن يزود القرية بعناصر من الشرطة، لحماية الناس من الغول. وبالفعل أمر المحافظ بالتنسيق مع الجهات المختصة، برجل أمن، رغم عدم قناعته، إذ أمضى أسابيع لم ير خلالها شيئاً، فعاد وسطر تقريراً يشير إلى خلو القرية مما يهددها.

***

خيم الصمت على القرية، فما عاد يُسمع فيها صوت، إلا نباح كلب وثغاء ماعز. بقي المختار جالساً في مكانه بعد أن غادر من كانوا يواسونه بوفاة زوجته، وبعد أن لاذ أولاده وبناته بالنوم، مخلفين له شعوراً عارماً بالوحدة. أحس بأن الليل استحال إلى كائنات مخيفة، تحاول اجتياز النوافذ والأبواب المغلقة، فاستلقى في فراشه، بينما أخذت ذاكرته تعيد له أطياف كل من ماتوا في القرية، منذ سنين طويلة.

طرد كل تلك الخيالات، إلا أنه رأى سماء المقبرة تعج بسحابة من الغبار، ورأى الموتى يطلون برؤوسهم ويستغيثون. فكر باحتمال موته، فشعر بخيط بارد ينساب في مجرى دمه. تلمس قشعريرة تنتشر على سطح جلده، وشعر بأنه محض جسد من الرماد الهش، ما إن يلمسه شيء حتى يتهاوى، فأغمض عينيه هارباً إلى النوم.

لكن سيلاً من الخيالات الغريبة اجتاحه، تخيل شكل جسده والدود يلتهمه على مهل، وشيء ما يخرج من جسده ويراقب ما يحدث بفزع. حينها أنَّ المختار أنيناً جعله ينهض فجأة، واقفاً إلى النافذة، ففتحها لتتدفق نسمة هواء أصابته بقليل من الانتعاش. كانت

القرية ليلتها ما تزال غارقة في صمتها الموحش. قال في نفسه، وهو يسمع صوته الداخلي المرتعش:

(هل توجعت نعايم ومخالب الغول تنشب بلحمها؟ وكم من الوقت استمر ذلك الوجع؟ ربما ما يخيفنا في الموت، هو ذلك الوجع الذي يسبقه).

سرّح بصره ببطن الليل الأسود، وقد التهم كل الأشياء، رأى كائنات غريبة تخرج من العتمة، وسمع أصواتاً فجائعية تتهادى من بعيد، فكر بأمر الغول، فرأى ملامحه تتشكل على مهل في صفحة الليل، إذ شاهده يخرج من العتمة، يقبض على رقبته وينهش لحمه، بينما ضوء الحياة يتلاشى خطوة خطوة من عينه.

طرد تلك الأفكار من مخيلته التي لم تعد ترى غير الغول، وما أشيع عنه من حكايات، حاول أن يتحلى بشيء من الشكيمة والرجولة، لكنه اعترف في دواخله بجبنه، واعترف بأنه يخاف الموت، وأن ما يمر به من أسى ليس حزناً على زوجته، بقدر ما هو خوف على حياته. فكر بالموت منذ كان صغيراً، فاستعاد شكل النساء وهن يلطمن وجوههن، ويمزقن ثيابهن، وينثرن التراب على رؤوسهن، أمام رجل مسجى في فرشته، ملقى عليه غطاء نوم، أخفى وجهه، واستذكر ملامح وجه رجل كشفوا عنه في المقبرة، قبل أن يهيلوا عليه التراب. جاء من ذاكرته يوم ماتت أمه، وكيف تحاشى أن يلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة، وكيف لاذ بنفسه ليلاً، وبقي ينتحب كالأطفال. استرجع محطات كثيرة في حياته، خوفه من المجابهة، إهماله شؤون القرية، تلعثمه أمام المحافظ.

اجتاحته قشعريرة الخوف، فراح جسده يرتعش وتخور قواه. حينها غرق ببكاء مر في فراشه حتى جافاه النوم، وأعلن تمرده عليه، فلم يزره طول الليل، وصوت حنة يتناهى لمسامعه، تنوح حسرة على عمرها الذي سيسرقه الغول، ويعطيه للموت الذي لا يشبع من طرائده.

***

أزاح ابن القصاد الستارة عن النافذة، فلاحت له القرية، وشمس الصباح تطل للتو، كما لو أنها طفل تنهنه كثيراً بالبكاء وغفا على ركبة أمه. من الصنبور رشق وجهه بحفنة ماء بارد، ثم أشعل النار ببابور الكاز، وصنع لنفسه كوباً من الشاي، وجلس على عتبة الغرفة يطل على القرية، حيث لم تحفل طرقاتها بأحد، في ذلك الصباح الباكر.

شاهد بيت أبيه، والشجيرات تهتز حوله، حينما عبرت أغصانها نسمة صباحية، لا تأتي إلا في الساعات الأولى لانبلاج الشمس من بطن الأفق، وبعد منتصف الليل، في قرية حتى الطبيعة نسيتها من هباتها الخضراء.

رأى نفسه طفلاً يلعب بمعية لمعة، يمتطيان المكانس ويحلمان بالطيران صوب البلدان البعيدة. تذكر حينما قال للمعة، وهما يقفان على قمة الجبل يراقبان التحام الأفق بالأرض:

– ما اسم تلك البلاد الواقعة وراء ذلك الأفق يا لمعة؟

أرخت مكنستها جانباً، ووضعت –مقلّدة الكبار– يدها فوق حاجبيها، تقرأ ما في الأفق البعيد المترامي:

– بلاد فيها أشجار وماء وطيور يا علي، هكذا أتخيل.

جلسا أرضاً، كل منهما يحتضن رأسه بيده، يغرق بصرهما بصفحة الأفق، ويحلمان بفك رموزه:

– حلمت البارحة، بالمكانس تقول إننا إذا ما امتطيناها أكثر، ستأخذنا ذات يوم نحو تلك البلدان يا لمعة.

نهضت ووضعت عصا المكنسة بين قدميها، وراحت تجري، ففعل ابن القصاد ما فعلته، وبقيا طوال اليوم يمتطيان مكنستيهما، يحومان الجبال وطرقات القرية، غير آبهين بالأشواك والحجارة والغبار الذي تراكم على جسديهما، إلى أن وقفا بباب البيت يطلقان ضحكة طفولية، اختلطت بلهاثهما الشديد.

ترك ابن القصاد بهو ذاكرته، وأقفل باب الغرفة، ثم غادر ذاهباً إلى القرية بخطوات متمهلة، كان يبطئ من وقعها قبالة كل بيت، وهو يسير في الطرقات، يتفقد ذاكرته وسنين مضت، فاستعاد كثيراً من الذكريات، مبتسماً مرة، وشاعراً بالأسى مرة أخرى.

انحنى يميناً حيث أخذته الطريق نحو بيت أبيه، الذي باعه قبل موته بأشهر، فما تبقى له غير الذكريات يقف قبالتها. جلس أسفل شجرة الكينا الضخمة، التي لم تكن بحاجة للماء لتكبر بكل ذلك الحجم، رأى بعض الكلمات والحروف، المنقوشة في جذعها العريض، وسمع أصوات أمه، وأبيه، وأخته فاطمة، قادمة ذاكرته، كأنها رجع الصدى. قال في نفسه وهو يجلس كمتسول قبالة البيت:

(الأشجار لا تنمو فقط على الماء الذي نعرفه، بل تترعرع أيضاً على ماء الذكريات التي نخلفها وراءنا إثر الرحيل، تحاور الأوراق،

والأغصان، والظل الذي يصير دفتراً لتوقنا للحياة، رغم كل ما يحدث لنا من أسى، ونحن نصنعها بكل لهفة).

نهض من مكانه وأخذ يطوف بالبيت، فرأى بئر الماء وما تبقى من حظيرة الأغنام، ورأى (الروزنة) حيث كان يسكب التبن عبرها في مخزن تحت الأرض، ما هو إلا مغارة قرب بيتهم، شاهد شجيرات الرمان والعنب والتين اليابسة تلمس كل جدران البيت، وفي دمه حنين جارف يستجدي زمناً عابقاً بالحب أن يعود.

وقف بالباب ثم قرعه، متأملاً أن تطل عليه فاطمة بوجهها الباسم، تعانقه كما تفعل كل مرة، حين يعود من غيباته في عمله في المدرسة، أو في عمان. قرع الباب قرعات متتالية، أطلت بعدها امرأة في الثلاثين من عمرها، ما إن رأت وجهه حتى صرخت بذهول، فوصل صوتها لكل أنحاء القرية، ثم هربت إلى الداخل تصرخ قائلة: (الغول، الغول).

خرج زوجها يحمل بندقية، أطلق منها عدة طلقات في الهواء، فتراجع ابن القصاد مذهولاً.

ما هي إلا دقائق حتى اجتمع عدد من أهل القرية، تاركين مسافة بينهم وبين ابن القصاد، وقد صوبت نحوه البندقية، بينما أتت أصوات تطلب من صاحب البيت أن يرديه قتيلاً. حينها خرجت لمعة من بينهم، ووقفت بين ابن القصاد، وبين فوهة البندقية:

- إن كنتم خائفين من مواجهة الغول، فاخرجوا إليه ليلاً. الغول هناك في رؤوس الجبال، وفي البستان المهجور. هذا الدكتور علي بن محمود القصاد، الذي كان مفكرو فرنسا ينحنون له احتراماً، وها أنتم

تصوبون إلى رأسه المليء بالعلم، بندقيتكم، بينما رؤوسكم تمتلئ بالوهم والخرافات.

أتى صوت محمد القميحي زاعقاً، يمسد لحيته:

– لنفترض أننا صدقنا أن هذا ابن القصاد، فقد وجب قتله لأنه تنصر.

استدار نحو من تجمهروا يراقبون ما يحدث، ثم خاطبهم:

– ألم تروا الصليب الذي وشم على ظهره؟

أتت أصوات متباينة وهابطة، تؤكد أنها رأت شكل الصليب في ظهر ابن القصاد.

قالت لمعة مهددة بصوت تناهى لمسامع الجميع:

– من يمس ابن القصاد بسوء، سأقتله ببندقية أبي.

حينها قال محمد القميحي متهكماً، رغم وجود شقيق لمعة:

– لو كان والدك على قيد الحياة يا لمعة، لما جرى الذي جرى.

– أعلم يا ابن القميحي مرد حقدك على ابن القصاد، لذلك لم تطل مدة زواجي بك. لا ترى أنت، وجماعتك من الأشياء إلا ما هي في الماضي.

نمت ملامح التوتر في وجه القميحي:

– أنت كافرة يا لمعة، ولهذا أحببت كافراً مثلك.

– هكذا أنتم تستسهلون هذا الحكم، بحيث كل من يخالفكم يصبح بنظركم كافراً.

من بعيد بانت ملامح سيارة سعدون الغاني قادمة نحوهم بسرعة مذهلة، والغبار خلفها سحابة ضخمة. ما إن وصلت فأنت أنينها

وسكن محركها، حتى هبط الغاني منها يحمل بلطة طويلة حادة، وفي عينه تتأجج نار الغضب:

– ألم أقل لكم بأنني سأقطع رأس من يمس ابن القصاد بسوء؟

قال ذلك وهجم بشراسة يفرق الجمع، ففروا هاربين.

كان ابن القصاد متكئاً على جذع شجرة الكينا، حينما همس ابن الغاني له بغضب:

– دعك منهم يا علي.

اقتربت لمعة منه وبصره غارق بالبيت:

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟

جاء صوت ابن القصاد، حزيناً كما لم يكن من ذي قبل:

– أريد أن أجدني يا لمعة، أنا هنا داخل هذا البيت.

أجهشت لمعة بالبكاء، ثم قرعت باب البيت، فأطل صاحبه، فطلبت لمعة أن تحدثه على انفراد قليلاً. غابت لدقائق ثم عادت:

– قم يا علي، لك أن ترى البيت من الداخل وتتجول فيه.

كانت لمعة ترافق ابن القصاد وهو يتجول في البيت، وتسمع ذلك الأنين الذي كان يجيء من صدره، كأنه على وشك البكاء، لكنه كَتَمَه. رأته يتلمس الجدران والنوافذ والأبواب، فكان يغمض عينه، كأنه يفتح صدره لتيار من الدفء يهجم عليه، ليطرد منه برداً قارصاً. رأى غرفته حيث أقام سنينَ من عمره فيها، فدب فيه الارتعاش حينما جال فيها بصره. أدركت لمعة أنه لم يحتمل، فغادرا بعد أن شكرت صاحب البيت.

***

لم يزر النوم مخدعها في ليل ذلك اليوم، فراحت تتقلب في فراشها، تماماً كتلك الذكريات التي هي الأخرى أخذت تتقلب في مرقدها. غادر أخوها إلى بيته، وغفت أمها بعدما أخذت حصتها من دواء الضغط والسكري والغدة الدرقية. فما عادت تسمع صوتها وهي تنادي (أنت وين يا لمعة).

أنصتت لصوت صرصار الليل، كيف يشق قماش الصمت الأسود عندما دثر القرية المنشغلة بأمر الغول، وبترقب ضحيته الجديدة. استعادت كل ما سمعته من حكاية الغول، وتفكرت بخوف الناس منه، وبأمر من ماتوا منذ أن أشاعت حنة تلك الحكاية. فتشت في داخلها عن أثر للخوف مما ينشغل به أهل القرية، لكنها لم تجد.

نهضت من فراشها، وجلست قبالة المرآة، وراحت تسرح شعرها الأسود الناعم فانسدل على كتفيها كشلال يهبط من الأعالي بكل جسارة، أغمضت عينها، فرأت ابن القصاد يقترب منها، ويأخذ المشط ويسرح شعرها، ورائحة عطره القديم العالق في ذاكرتها، تعيث بقلبها شوقاً، لامست وجهها الذي لم تداهمه التجاعيد، كأن حظها منها، فقط تجاعيد داخلية لا تُرى.

استعادت ما حدث في نهار ذلك اليوم لابن القصاد، واسترجعت ملامحه الجديدة، فعاينت حبها له بتأني عاشقة فضلت أن ترمي بعمرها ضحية لقلبها، فما وجدته قد تبدل، رغم أنها ما عادت ترى في ملامحه، علي بن محمود القصاد، الذي قبلها في جبينها قبل أن يغادر القرية إلى فرنسا بأيام.

وقفت أمام مكتبتها الصغيرة، واختارت كتاباً من تلك الكتب

التي أهداها إليها قبل رحيله، تحاول أن تطرد عبره كائنات القلق، فأطل من ذاكرتها ذلك اليوم الذي وجدت فيه ابن القصاد جالساً في ظلال شجرة الكينا، يحمل بين يديه كتاباً ويستغرق بالقراءة، من دون أن يحس بأية حركة حوله، كأنه منفصل عن الكون، افتعلت جلبة بعد أن ألقت التحية ولم يسمعها، لكنه بقي منصاعاً لما يقرأه. نهرته بإصبعها، فانتبه لها معتذراً، قالت بعد أن جلست قبالته:

– كأنك لست هنا، يا ابن القصاد.

– بعض الكتب تمنح قارئها أجنحة، فيطير إلى تلك الأماكن التي تحكي عنها الكلمات.

قال ذلك وأغلق الكتاب، ثم وضعه جانباً. قرأت لمعة العنوان (آنا أخماتوفا/قصائد مختارة)، ثم قلبت صفحاته، وقرأت بعجالة بضعة أسطر. بفرح بنتٍ عثرت على دميتها، المفقودة، أسرت له:

– راقتني هذه الكلمات، رأيتني فيها.

ضمت الكتاب إلى صدرها، وبدت ساهمة بالمدى، ثم أضافت بشيء من الأسى:

– والدي يرى أن سعادتي في زواجي من محمد القميحي، وقال لي يكفي أن القميحي يخاف الله.

لم يعلق ابن القصاد على ما قالته، إذ كان يدرك أن أي كلمة يتفوه بها، ستصبح مفردة التزام، تقاتل من أجلها لترفض زواجها بالقميحي الذي سيغير طريقتها في اللباس، ويمنعها الذهاب إلى الأعراس، والغناء وقراءة الكتب، ويضع لها مواعيد للخروج.

قالت – تفتعل ضحكة تخبئ وراءها وجع الأنثى حينما تعرض

نفسها على رجل لا يجيبها إلا بالصمت:

– هل تتذكر عندما كنت تقرأ لي روايات تشارلز ديكنز، ومحفوظ، وهوغو؟ لن أنكر فضلك يا علي، فقد أضفت لي أجنحة، جعلتني قادرة على التحليق خارج فضاء هذه القرية الكسولة.

أتت منها ضحكة تشوبها نبرة شهقة باكية:

– حينما كبرت ما عاد بوسعي أن أركب المكنسة وأحلم بالبلدان البعيدة، أركب الآن صفحات الكتب التي أدمنتها بسببك يا ابن القصاد.

أعطته الكتاب، وغادرته إلى حيث تمكث أخته فاطمة، متيقنة أن لكل منهما طريقاً، لا يلتقيا في نهايته.

سحبت الكتاب من مكانه في المكتبة، وأوت إلى فراشها، وتفاصيل ما تذكرته من ذلك اليوم العتيق تتبعها، كقط يلاحق خيطاً في ثوب سيدة البيت. لقد كان كتاباً ضم قصائد مختارة لآنا أخماتوفا، وهو نفسه الكتاب الذي كان يقرأ فيه ابن القصاد، في ظلال شجرة الكينا.

قرأت بصوت مسموع، في صفحة كانت قد ثنت زاويتها، المقاطع الأولى مما كتبته أخماتوفا:

(لا تقصّف رسالتي يا صديق
بل اقرأها حتى النهاية
لقد مللتُ أن أكونَ مجهولةً
غريبةً في طريقك).

أغلقت الكتاب، ووقفت إلى نافذة أفضت إلى الجهة الغربية من

القرية، فرأت غرفة ابن القصاد مضاءة وسط تلك العتمة، كشمعة تدل عابري الطريق إلى مبتغاهم، في ذلك الوقت الذي خلت فيه الطرقات من أي مار، واختفت الأصوات التي عادة ما تأتي من البيوت، فساد الصمت القرية، إلا من صوت صرصار الليل، ونباح كلاب بعيدة.

كأن نسمة الهواء الطرية نهرت ذاكرتها، فاستعادت محطات سريعة من حياتها، وهي تتكئ على كتف النافذة، ومن دواخلها يأتي صوتها، تلوم نفسها على عمر رأته يتسرب كحفنة ماء من بين أصابعها.

استذكرت ملامح ابن القصاد الجديدة، ثم استعادت وجهه القديم الراسخ في ذاكرتها، ثم أغمضت عينيها وإذا بها لا ترى غير ابن القصاد الذي لم يغادر قلبها، منذ أن تفتحت في دواخلها وردة الأنوثة، فلم تجد صوبه أي أثر لشفقة، من ذلك النوع الذي يُغدق به من ألمت به الخسارات والهزائم، بل وجدت نفسها تولع به أكثر من أي وقت مضى، وهي تعي أن الحب طائر، لا يصاب بالسكينة، إلا فيما لا نراه في شكل العش، بل فيما يلمسه الطائر ذاته، وهو يخلد للدفء، مخلفاً وراءه شكل الأرض، أثناء تحليقاته العالية.

شعرت بأن عليها أن تفعل شيئاً، من المطبخ حملت ما لم تأكله من طعام على العشاء، وشيئاً من الخضار وحبات من الفاكهة، وتفقدت أمها، حيث كانت ترقد في سريرها مستسلمة لنومها العميق. تلثمت بشالها الأسود، وغادرت البيت ذاهبة إلى ابن القصاد، سالكة طريقاً أخذتها خارج القرية، عبر منحدرات خفيفة، وأخرى شديدة الانحدار. ثم سلكت طريقاً أخرى، بعد أن رأت المسافة بينها وبين القرية وقد صارت آمنة من أن يراها أحد، بقيت تسلكها إلى أن اقتادتها نحو غرفة

ابن القصاد والضوء يدلها إليه.

عند باب الغرفة، تخلصت من الأشواك والحشائش اليابسة، والغبار الذي علق بثيابها، قرعت الباب، وهي تتلفت حولها، رغم أنها تعي أن ذلك المكان قلما يأتيه أحد.

قال ابن القصاد بعد أن فتح الباب، ورأى امرأة ملثمة تقف قبالته:

- من أنت؟

أرخت اللثام عن وجهها، وهي ما تزال مضطربة.

- لمعة!

قال مستغرباً مجيئها، ثم اقتادها من يدها إلى الداخل فأغلق الباب وراءه، وصدى لهاثها يكاد يشج صدرها، سكب لها كأساً من الماء، فشربته بعد أن جلست على طرف السرير، يحتلها الارتباك.

ما إن سكنت أنفاسها وتماثلت للهدوء، حتى خلعت شالها فكشفت عن شعرها الذي رآه ابن القصاد لأول مرة.

- لم أستطع النوم يا علي، قلقت عليك.

قال بصوت تلاشت منه حيوية دبت به حينما رآها بالباب:

- لكنك تغامرين يا لمعة.

- لا يهم، فما عدت آبهة بأي شيء يمكن أن يحدث.

فكت وثاق حقيبة حملتها معها، وفتشت في الغرفة عن شيء تفرد عليه الطعام، فعثرت على صندوق من كرتون مقوى، وضعته قرب السرير، وصفت عليه طبقاً فيه دجاجة وخضاراً مشوية، غسلت الخضار، وقطعتها في طبق ثم أضافته للمائدة.

سحبت كرسياً قديماً، وجعلت الطعام بينها وبين ابن القصاد:

– لم أستطع هذا المساء أن آكل شيئاً، فكرة جيدة أن نتشارك الطعام.

بقي صامتاً، وكأنه لا يسمع ما قالت. تركته لقليل من الوقت مستسلماً لما يفكر فيه، وراحت تراقب ملامحه الجديدة، التي بدأت تألفها، وتلك الملامح تحل محل التفاصيل القديمة بوجهه، أحست بحنين جارف للحظة تلقي فيها بدنها بحضنه، لكنها تعي أنه الأحق بحضنها، وهو يرزح تحت مطارق الألم.

– علي، علي.

نادت بحنو، وصوتها ينساب في ذلك الصمت الليلي، الذي لم يعد يشوشه شيء، حتى صرصار الليل، وحفيف الزواحف بين الحشائش اليابسة.

– نعم يا لمعة.

– عليك أن تأكل شيئاً يا حبيبي.

حدق بوجهها، وأمارات الغضب تعتري ملامحه المشوبة بالأسى:

– حبيبك؟

تمددت في وجهها ابتسامة، تقاطعت بنبرة صوتها التي ازدادت حنواً:

– نعم حبيبي، يا علي.

نهض من مكانه، ووقف في منتصف الغرفة، كأنه يتهيأ لأداء دور مسرحي:

– الذي تحبينه، أكلته النار يا لمعة، والذي أمامك الآن ما هو إلا مسخ، أو صدى لذلك الرجل القديم.

نهضت من مكانها وأمسكت بيديه:

– وأنا أكتفي بهذا الصدى يا علي، لقد اكتفيت بطيفك قديماً، حينما كنت أعي أن قلبك لامرأة أخرى، فكيف الآن وأنا أراك ماثلاً أمامي، بكل ما فيك من الأشياء التي جعلتني أجن بك.

– الماثل أمامك، رجل مشوه يا لمعة، مشوه.

– لم تشوه منك النار سوى الجلد، أريد قلبك وروحك، اللذين لم تصلهما النار.

أمسك برقبته وبدا عليه الانزعاج:

– لقد قتلوني يا لمعة، وسيقتلون بدم بارد كل من هم على شاكلتي.

تلوى في مكانه ثم يمم شطر باب الغرفة:

– أشعر بالاختناق في هذه الغرفة النتنة.

فتح الباب وسار في الظلام، تتبعه لمعة، إلى أن وصل إلى حافة منحدر يطل على وديان يتفجر منها نهر الليل الغزير، افترش التراب وجلس منهكاً، فجاورته ملتصقة به، كأنها تسنده حتى لا يتهاوى.

ركضت من وراء الجبال نسمة هواء باردة، طردت تلك الحرارة التي بقيت الرمال طوال اليوم تكتوي بها.

قالت وهي تسمع أنفاسه تتعالى:

– عليك يا علي أن تخبرني بكل ما حدث لك، صدقني ستستريح. حينما نقول الحكايات، إنما نقولها حتى نصبح قادرين على العيش، إن نجحنا بقولها بطريقة تعلي من شأن الأيام الجميلة، وتدحر المؤلم منها بعيداً. قل يا علي، أرجوك قل ما لديك.

كان ابن القصاد يطلق بصره بامتداد العتمة، وقد لاحت من أطرافها ما تركته المسافة للبصر من أضواء المدينة، فبدت كأنها بقايا لحلم تسلل من خدر المنامات إلى قلق الحقيقة، استلقى على التراب حيث اتسعت السماء أمام عينيه أكثر، وشهاب يشق بطن الظلمة للحظات، ثم تلاشى عند رؤوس الجبال، وقد ابتلعه فم الظلام. عقد يديه وراء رقبته، وعبأ رئتيه بالهواء، ثم تنهد كأنه يحتار من أين يشرع بسرد الحكاية:

«بعد عودتي من الدراسة في القاهرة، عينت معلماً في مدرسة في المدينة، أدرّس فيها نصف يوم، والنصف الآخر أمضيه في مدرسة ثانوية للإناث؛ لنقص في عدد المعلمات آنذاك. ومن تلك المدرسة بدأت الحكاية. فجل الطالبات يقبلن بشغف على التعلم، إلا أن فتاة بدت- رغم اختلاف ملامحها ولهجتها- الأكثر تميزاً بينهن، وإقبالاً. فقد ولدت وعاشت سنين عدة في البادية، في كنف عائلة كل أفرادها ذكور. كانت بنتاً مدللة، لكن دلالها اقتصر على حدود البيت، وتحت سلطة أبيها الذي كان شيخاً من شيوخ قبيلته، عهد بها في صغرها لأحد شيوخ الكتاتيب: أولئك الذين كانوا يطوفون بالقرى والأرياف والبادية، فيتلقون أجورهم طعاماً ومبيتاً، وبدأت تتعلم القراءة والكتابة، فدرست السنين التي كان يفترض فيها أن تكون في المدرسة، على يدي ذلك الشيخ، دون رضى أخوتها، لكن سلطة أبيهم كانت فوق سلطتهم، فلم يستطيعوا فعل شيء حيال ذلك الأمر.

وبسبب ثأر، انتقلت عائلتها إلى حي من أحياء المدينة، وسكنت بيتاً من الحجر، وامتلكت متجراً وعملت فيه. وأصبحت بارعة قادرة

على القراءة والكتابة، وصارت تمتلك عدداً قليلاً من الكتب، بعضها تركها الشيخ لها قبل رحيله، والبعض الآخر جلبها والدها من زياراته للقدس، فأصبحت تمضي جل وقتها في القراءة، والتحليق في عوالمها، بعد أن افتقدت عوالم الريف والبادية الرحبة.

اتضحت لديها ملامح ميول أدبية، وبرزت موهبتها وهي تقرأ ما تكتبه، على مسامع والدها الذي راح يفاخر بها، رغم غيظ إخوتها، الذين ضاقوا ذرعاً بغمز ولمز أقرانهم، رغم أن البدو طالما فاخروا بفتيات قلن الشعر، وركبن الخيل، وصرن فارسات.

بعد ذلك الاستقرار، أرسلها والدها إلى مدرسة لا تبعد كثيراً عن مكان سكناهم، فقبلوها بعد اختبار، في الصفوف الثانوية الأولى، حينها استشاط إخوتها غضباً، وبقوا صامتين على مضض، دون أن يفعلوا شيئاً، أمام تهكمات سليم المشاي، الذي تربطه بهم صلة قرابة. فلم ترقه فكرة أن تتعلم امرأة في مدرسة وعلى يدي أستاذ، بل حتى إنه عارض ما حدث بشدة، رغم رأي شيخ المسجد، الذي لم ير في الأمر فعلا مخالفاً للدين، فالضرورة اقتضت أن يكون المدرِّس ذكراً، وتعليم المرأة ضروري.

كانت بارعة تتلقى الدروس بصمت، وتدون في دفترها ما أشرحه، وكثيرا مما أقوله خارج المنهاج، حتى إنني خمنت أنها خرساء، إلا حينما أتاني صوتها ذات يوم، حينما كنت أدير ظهري للطالبات، أنهمك بكتابة مقاطع من الدرس على اللوح:

– أستاذ، هل يمكنك أن تجيب على سؤالي؟

كنت في تلك الأيام قد حفظت إيقاع أصوات الفتيات التي شاب

أغلبها تلك الوتيرة الخجولة، وهي تجعل صوتهن غير مفهوم، لكن الصوت الذي سمعته، مغاير لما حظيت به ذاكرتي، صوت يشبه مرور الريح في قصب معتق صار ناياً، إيقاعه واثق، ومخارجه متزنة. حينما التفت إليها، رأيتني أحدق بملامحها، وكأنني أراها للمرة الأولى، عينان لهما نظرة تكاد تكون سهماً يخترق أي قلب، مهما ادّعى القسوة أمام لغة العيون، وعنق طويلة غطاها منديل بانت منه خصلات شعر، انسدلت على وجه فيه من براءة الطفولة، ما يوازي تورد وجه المرأة، حينما ترى وجهها في عيني رجل يسهو بجمالها.

تظاهرت بالرزانة، وبي يقين أن أمري قد افتضح أمام الطالبات:

– تفضلي يا بارعة.

برمت القلم بين إصبعيها، واتسع جبينها، فأشرق وكأن كهرباء اشتعلت به:

– أثارت حصة النصوص الأدبية، شهيتي على قراءة كتاب كامل من كتبك التي تفضلها، هل لك أن تعيرني أحدها؟

وكانت رواية (مارغريت ميتشيل) (ذهب مع الريح) هي الكتاب الأول الذي ينتقل من يدي إلى يدها، فرأيت في عينيها، وأنا أعطيها الكتاب في اليوم التالي، ما جعلني أدرك منذ اللحظة الأولى أنني وقعت أسير حب فتاة، جعلتني أعثر على ما كان ينقص قلبي وهو يرنو إلى الحياة بكل شغف، وجعلت مني فيما بعد مدرّساً، يخصص كل يوم وقتاً للحديث عن الروايات؛ لولعها الفطري بعالم الرواية. وصرت أجلس بمعية الطالبات أستمع لملخص ما قرأن من روايات، وأناقشهن في الفكرة التي دارت حولها.

بعد أشهر من التعليم في مدرسة الإناث، رحت أتخلص من الخوف الذي تفرضه تحذيرات المدير، من الحديث الجانبي مع الفتيات، ورحت أخص، من دون أن أعي، بارعة بالتحيات، وأحياناً بحديث سريع ومقتضب عن الكتب التي بت أقدمها لها، فتذهلني بوعيها ورؤيتها الثاقبة لتحليل ما تقرأ، تماماً كما أذهلتني في ذلك اليوم الذي قدمت لي فيه قصة قصيرة، كانت قد كتبتها، فبقيت طوال الليل على حد قولها، تنتظر الصباح، لتسمع رأيي فيما كتبت.

في غرفة استأجرتها بجوار المدرسة، رحت أقرأ قصتها، وبي رغبة بأن لا ينتهي ما أقرأ، فلها دراية عجيبة في كتابة القصص، وفي التقاط المحكي عنه، كأن تلك الفتاة قد دُربت على يد أمهر القصاصين في العالم، غير مصدق أنها تنتمي لعائلة أمضت ردحاً من الزمن، تتنقل بمعية بمعيّتهم، وراء الكلأ والماء، ثم استقرت في مدينة لم تعرف من المدنيّة آنذاك إلا التخلي عن إطار بيت الشعر الشكلي، والاحتفاظ بثقافته.

قرأت القصة مساء ذلك اليوم لأكثر من مرة، ولغتها الشفيقة تنساب في دمي، كما ينساب خيط من الماء في جوف شخص أعياه العطش.

صباحاً ناولتها القصة ونحن نقف بباب غرفة الصف، وفي وجهها ملامح الترقب:

– منذ متى تكتبين القصة يا بارعة؟

– هذه المرة الأولى التي أكتب فيها.

أضافت وهي تتلمس حيرة تبدت عليّ:

– إنني مغرمة بسرد الحكايات، فمنذ أن وعيت على هذه الحياة، وأنا أنصت للرجال وهم يروونها في مجلس أبي. كنت وما زلت أستمع لأمي وأبي، ولباقي الناس، وهم يحكون لي حكايات معروفة، وأخرى لم تُرْوَ كثيراً.

بعد زمن وجدتني أهوى سرد ما حفظته لأترابي، حينما تعلمت القراءة على يد الشيخ، ومن ثم أكملت تعليمي هنا قبل أن تغادرنا المعلمة فتأتي أنت، رحت أجرب تدوين بعضٍ من الحكايات المعروفة باللغة الفصيحة، فصار لدي، رغبة شديدة بأن أبتكر حكاية تخصني، إلى أن رحت أقرأ ما منحته لي من روايات، فكتبت هذه القصة.

التفتُّ وإذا بالطالبات يتحلقن حولنا، يستمعن بكل شغف وفضول لما تقوله بارعة، فأمرتهن بأن يجلسن في المقاعد، لا لنبدأ الدرس فقط، لأتفادى أي شائعة يمكن أن تحدث. وبالفعل حدث ما توقعته، فقد بدأن يتهامسن فيما بينهن عن اهتمامي ببارعة، وعن عدد الكتب والصحف والمجلات التي أهديها لها، وعن كتابات بارعة عن الله، وعن الحب، وعن المرأة التي تخاف آدم. كل ذلك حدث دون أن أهمس لبارعة بكلمة واحدة من تلك الكلمات التي كانت أصداؤها تدور في داخلي، وتأبى أن تخرج، تحسباً من أي شيء يمكن أن يحدث.

إلى أن أتى ذلك اليوم والسماء تهطل أمطارها، وأنا في طريقي إلى المدرسة. لقد كان اليوم الأول لفصل الشتاء، فقد استدارت حول الشمس بقعة ملونة من ألوان قزح، وتبدل لون الغيوم، وقصف الرعد من الطرف الشرقي للمدينة، فانهال المطر، وصعدت من التراب والبنايات

والطرقات، تلك الرائحة الأولى، للقاء أول بين الماء والأشياء، بينما الأطفال يركضون في الطرقات، يرددون (اشتي وزيدي، بيتنا حديدي، عمنا عبد الله والرزق على الله).

عندما صعدتُ درجاً قصيراً يفضي إلى باحة المدرسة، حيث يلتف حولها سور منخفض، تقف بارعة قربه، وتطل على جهة الغرب، يتقاطر من جسدها الماء، مستسلمة بلذة لم أرها من قبل للمطر، كأنها تنصت لموسيقى تجيء من وراء الغيوم.

تورد وجهها والماء يسحُّ منه ومن ذقنها ومن أنفها المدبب، الذي يرتفع قليلاً إلى الأعلى، فتلوح أمارة الأنفة من وراء جمال سحره في بساطته.

لم يكن في الباحة سوانا، فقد لاذت بقية الطالبات بغرفة الصف.

كأن كل تلك الليالي التي كابدتُ فيها حبها، والكلمات التي بحت فيها للسقف، وهو يهبط علي كأنه رداء يدثرني بدفء يحتاجه رجل أحب فتاة، بينه وبينها بنادق وخناجر، وزمن طويل من المحظورات. كأن كل ما تكور في داخلي منذ عرفتها، قد اقتادني نحوها، وهي تقف ميممة شطر الغرب، تقرأ ما في المدى من لغة للماء.

لامست كتفيها بيديّ اللتين دبت فيهما تلك اللحظة، ارتعاشة طالما كابدتها. لم تجفل كأنها رأتني بعين إحساسها، ثم رأيتني أقرب أنفي لجديلتها التي أفلتت من المنديل، وأشمها بعمقِ مجنونٍ، تهاوى الكون من حوله، إلا من بقعة يقف فيها.

قلت وصوتي تخالطه رجفة، كرجفة الأغصان أمام جسارة الماء، وهو يصفعها بشهوته:

– كأنك طالعة للتو من رواية لم تكتب بعد.

– أجمل الحكايات هي التي لم تكتب، ألا ترى هذا الماء كيف يأتي، وكيف نعجز عن قول حكايته الأصيلة.

قالت ذلك من دون أن تلتفت نحوي. اتكأتُ على بدن السور، فصارت قبالتي، تحدق بالمدى. قلت وقلبي يرى تلك الأنفة، وذلك الغرور الأنثوي يتمطى في عينيها:

– بل أراه، وأراك تمعنين به جيداً، كأنك تسقين حديقة لك لا يشاهدها سواك.

– لم يكن لنا، نحن الذين كنا نجوب الصحاري، إلا أن ننتظر المطر. إنه كرنفالنا الوحيد، لذلك ما زلت كلما منحت السماء خباياها، تورق الأشجار في روحي، ويخضر الكلام.

التقت عينانا، كأننا نلتقي للمرة الأولى، فاعترت وجهها مسحة حياء، كأنها تتحرى ما تقف على بوابة فمي من كلمات.

– منذ أن عرفتك أورق بي غصن، اعتقدت أنه يبس.

أشاحت بوجهها خجلاً، ثم جاءت كلماتها كأنها رجع صدى قطرات الماء عندما تهبط من أغصان الشجر:

– وأنت أضأت بي مساحة كنت أعتقد أنها لن تضاء.

مشت بخطوات سريعة نحو غرفة الصف، تخبئ جديلتها، وترمقني بابتسامة، كدت أعتلي السور وأصرخ معلناً حبي بسببها. وقفت بالباب، وقالت بهمس:

– ألا تريد أن تبتدئ الدرس؟

منذ ذلك اليوم، رحت أدس الرسائل بين طيات الكتب التي

أعطيها لها. وأستقبل رسائلها بالطريقة نفسها، أمضي ساعات من الليل في غرفتي، أعيد قراءة ما كتبت لي من رسائل.

أيقنت منذ أن قرأت ما كتبته بارعة، أن روحها مجبولة بشهوة الحكاية وفتنتها، وأنها مشروع روائية سيصبح لها شأن يوم ما، وأنا أراها تقرأ بغزارة، وتكتب بوعي لم ألمسه إلا فيمن درست عنهم في الجامعة، لها ملامح امرأة خارج سياق اللحظة، بشرودها بأسئلتها الاستثنائية، بقناعاتها التي باتت تذهلني، وبجرأتها التي لم أتوقعها في زمن تعتبر فيه الجرأة هرطقة.

في غضون ثلاث سنوات، قرأت بارعة معظم ما اقتنيته من كتب ومجلات وصحف، حتى إنني أدركت ما معنى أن يتفوق التلميذ على معلمه، فسررت كثيراً لأن من تفوقت، هي فتاة غمرت قلبي بدفء حب يتمناه كثير من الرجال.

صارت بارعة فيما بعد حديثاً للناس، بسبب ما تناقلته الفتيات عن كتاباتها. ولما تحدث به سليم المشاي سراً، من أنها كتابات تدعو النساء ليخرجن من سلطة الرجل، وتشجعهن على الفجور.

خوف الناس من والد بارعة عاهد المشاي، جعلهم يتداولون تلك الأخبار سراً. لكن الحكايات تناهت لمسمعيه، فعرف أن مصدر الحكايات هو ذلك سليم المشاي، الذي لم يكن على وفاق مع شيخ المسجد، والمؤذن به، فكانت له آراء غريبة، يجتمع حوله عدد قليل من الرجال والشباب، شوهدوا لأكثر من مرة يروحون ويجيئون كجماعة، استهجنها كثير من الناس، واستغربوا أفكارها.

أصبحت بارعة شمساً لا تغيب عن فصول حياتي، أكتب لها كل

يوم رسالة، وأتلقى كل يوم منها رداً، وأتحدث إليها في صحوي وفي مناماتي. انتظرت تخرجها من المدرسة، لنتزوج ونطير إلى فرنسا مبعوثاً للدراسة العليا هناك، حيث كنت قد أجلت موعد بعثتي لأجلها، لكن الأمور لم تمض كما كنت أتمنى، فقد كثرت الشائعات انطلاقاً من غرفة الصف، وامتدت إلى الحي الذي تقع فيه المدرسة، ويقع بيت بارعة، وغرفتي التي لا أخرج منها إلا قليلاً، إلى أن صار لنا حكاية ليست لنا، يتداولها الناس في الخفاء، ويؤجج نارها سليم المشاي، يؤازره بآرائه عدد من الرجال، لا أدري كيف مع مضي الوقت صاروا جماعة له. لذا كتبت لبارعة أخبرها بضرورة الحذر إلى أن يحين الوقت ونصبح زوجين.

رأيت الغضب لأكثر من مرة في أعين إخوتها، حينما كنت أصادفهم في الشارع، ولمست ما يفوق الغضب بوجه سليم المشاي هو وجماعته، يهددونني بنظراتهم كأنني كائن من كوكب آخر.

عندما تفاقم أمر الشائعات، التقى عاهد المشاي بسليم المشاي، وهدده إن لم يكف لسانه سوف يقطعه، وشيع أمراً مع شيخ المسجد، بأن تصمت النساء عما أصبحن يتسلين بالحديث به. وفعلاً ما عاد هنالك حديث يدور حولي أنا وبارعة، لكن ذلك لم يستمر طويلاً فقد مات عاهد المشاي، وبارعة تتهيأ لإنهاء آخر سنين المدرسة.

شاهدت، وأنا أدخل بيت العزاء، سليم المشاي هو وجماعته يقفون بجانب أبناء عاهد المشاي، ما إن دخلت المكان، حتى قام إخوتها بطردي، فغادرت.

بعد ما حدث، تبدلت أحوال بارعة، فقد فرض إخوتها سلطتهم

عليها، حال مواراة والدها التراب، ومنعوها من الذهاب إلى المدرسة، حيث كانت في آخر سنينها.

ما إن انتهت أيام العزاء، حتى أتى سليم المشاي، ودخل المضافة، فجلس في فرشة توسطت الجدار، حيث رأى سيف عاهد المشاي وبندقيته معلقة على الجدار المقابل، مسد لحيته الكثة بيده، ثم قال موجهاً حديثه لأبناء المشاي، وهم يجلسون قبالته:

– بعض الكتب تلوث العقل يا إخوتي، خاصة الكتب التي جاءت من الغرب الكافر.

هز أبناء عاهد المشاي رؤوسهم، وهم ينصتون له، ثم أضاف:

– عدد البنات اللواتي يرغبن بالانضمام إلى المدرسة في تزايد. والله أعلم ما الذي سيحدث بعد سنين، إن بقي الأمر على حاله هذا. هنالك من يريد تبديل حياتنا، حتى تصير مثل حياتهم الماجنة، لكنهم يعملون بشكل تدريجي، اليوم ابتدأوا بالمدارس وتعليم المرأة، ولا نعلم غداً بماذا سوف يفاجئوننا.

صمت لبرهة، إذ بدا أنه يفكر، ثم قال:

– عندما رأيت الكتب، التي يعلّمون ما فيها البنات، صُعقت، وما كان مني أن أغضب، لو أن تعليمهن اقتصر على شؤون الدين، بل على العكس من ذلك، سأفرح لأن في ذلك خيراً لهن، وسأفرح أكثر لو أن امرأة تعلمهن.

قال الابن الأكبر للمشاي:

– (ما كان بيدنا أن نمنع أختنا من الذهاب للمدرسة، كلمة أبي أقوى من كلمتنا).

قال سليم المشاي:

– القراءة والكتابة لوثت عقل أختكم. فتيات المدرسة يتناقلن ما تكتبه عن الحب، وعن الله، وأصبحن يتداولن آراءها عن ضرورة تحرر المرأة من سلطة زوجها. أليس الرجال قوامين على النساء؟ أختكم تريد مخالفة ما أمرنا به رب العالمين، ولا يشجعها أحد على ذلك، غير معلم المدرسة علي بن محمود القصاد. الفتيات يقلن إنه يتحدث لهن ويخبرهن عن كتب وقصائد في الحب، وعن بلاد الفرنجة.

توقف عن حديثه، ثم قال بنبرة مشككة:

– الفتيات يقلن إن ثمة شيئاً بين ابن القصاد، وبين أختكم.

انطلقت أصوات أبناء عاهد المشاي غاضبة، لكنه بقي ممسكاً بخيط الكلام:

– لا تنفعلوا، ربما ما يقال هو مجرد كلام تتناقله النساء، لكن الضروري هو أن تتوقف أختكم عن الكتابة، وعن قراءتها ما كتبته لفتيات الحي.

مكث سليم المشاي معهم حتى غروب الشمس، حينها خرج إخوتها من المضافة ودخلوا غرفة بارعة، فأخذوا كل الأوراق التي ضمت كتاباتها، والكتب التي جمعتها منذ سنين، غير آبهين أن يأبهوا بمقاومتها وبكائها، ووضعوها في باحة بيتهم الأمامية وأحرقوها، متذرعين تارة بالعيب الذي تحدث به الناس، وأخرى بالحرام الذي ما انفك سليم المشاي الحديث عنه.

كانت بارعة تراقبهم عبر النافذة، بينما سليم المشاي يمسد لحيته، وهي تنشج بصمت، وتنظر إلى النار وقد علا دخانها، وهو ينشر رائحة

الورق والحبر، ورائحة كلماتها التي كانت تشمها، صاعدة إلى الفضاء الفسيح، بينما في داخلها ترى عبر نشيجها، أن النار قد أخذت تطهر الكتب والكلمات وروحها من عالم قسا عليها.

في تلك اللحظة وبينما ألسنة النار تستشيط نهماً، دوى الرعد في كتف المدى، وانشقت بطن السماء عن مطر غزير، بينما إخوتها وسليم المشاي، يقفون في الباحة يتقاطرون ماء، ينسدل من شعرهم الطويل حتى غطى أعينهم الغاضبة، وأخوهم الأكبر يردد بملامح قاسية، وعينين تعكسان ألسنة النار، التي كانت قد بدأت تتراجع أمام هطل المطر الغزير:

– نحن لا نقبل عيباً، ولا نرضى حراماً. الحريم لم تخلق لهكذا مهمات.

بعد أيام مما حدث، اصطحبتُ شيخ المسجد، وذهبنا إلى بيت أبناء عاهد المشاي. كان لوجود شيخ المسجد معي، سبب في أن يدعونا للجلوس في المضافة الواسعة، التي أثثت بفرشات صوفية وأرائك مطرزة، وأرضيات أثثت بالبسط، وعلقت على جدرانها البنادق والسيوف والخناجر ورؤوس أيائل وضباع، تم اصطيادها من قبل.

عندما قدموا فناجين القهوة لي ولشيخ المسجد، لم نشربها، فقد وضعناها على الأرض أمامنا، حينها عرفوا أن لنا طلباً، فراح الشيخ يترحم على أبيهم، ويذكر محاسنه، ويشرح محبته في قلوب الناس، ثم أخذ يسرد حكاية من التراث الإسلامي، تحض على التسامح ونبذ الشائعات.

كنت أراقب وجوههم التي لم توح بأن للحديث وقعاً على قلوبهم، بل لمست ملامح من أدركوا إلى ماذا يرمي الشيخ، فرأيت أن عليَّ التحدث، في تلك اللحظة الفاصلة:

– حديث الشيخ كان مقدمة مهمة لسبب مجيئنا؛ لذا عليكم أن تعلموا، أن ليس للشائعات التي دارت بين الناس، من أصل، بل إنها عارية عن الصحة.

زمجر أخوها الأكبر، ملامساً مسدسه الذي علق في خاصرته:

– نعلم إنها عارية عن الصحة، وإلا لم تكن على قيد الحياة حتى هذه اللحظة، يا ابن القصاد.

اغتنم الشيخ الفرصة ووجه حديثه لأكبرهم:

– جئنا نطلب يد أختكم لابن القصاد، يا أبناء المشاي، أنتم تعرفونه، وتعرفون أباه.

– اعذرنا يا شيخ، هنالك أسباب تمنعنا من تلبية طلبك.

قال أخوها الأكبر، ثم التفت إلى وجوه إخوته، وقد أومؤوا برؤوسهم، متفقين على ما قيل.

ونحن ننهض، قلت متمسكاً بآخر خيوط الأمل:

– ما فعلتموه بحق بارعة جريمة، دعوها على الأقل تكمل دراستها. سليم المشاي لا يعرف من الدين إلا ما يراه هو، ديننا أكثر وعياً وأكثر سماحة من عقل هذا المنغلق.

استل أخوها مسدسه، وصوبه نحوي غاضباً من نطقي لاسمها، ولما تفوهت به، لكن شيخ المسجد وقف بيني وبينهم، يحلفه بالله بأن يعيد المسدس إلى مكانه، فأعاده وغادرنا.

بعد ذلك اليوم تيقنت أن شراً قادماً إلي من جهة سليم المشاي، ومن أبناء عاهد المشاي، لذلك بقيت متيقظاً وحذراً، وفي البال صور لأشياء كثيرة، يمكن أن تحدث لي، إذ كنت خائفاً، لكن ليس علي، إنما على بارعة التي أُغلقت بوجهي كل السبل لتكون معي.»

من الشرق بزغت الرتوش الأولى للضياء، فاتضحت رؤوس الجبال والوديان والسهل المقفر بأكمله، والشوك فيه يبدو كرؤوس جنود يكمنون وراء الحجارة. ومن الجحور تهادت زقزقات أولى للعصافير، ولطيور لا تخرج إلا في ساعات كتلك. مسحت لمعة حبات ندى تكاثفت على ما تبقى من شعر لابن القصاد، وعلى جلده المحترق، فنهض من مكانه، إذ رأى شعر لمعة قد كساه الندى، فصار كما لو أنه حبات لؤلؤ يتخللها الضياء، مسح بيده وجهها وشعرها المبتل:

– عليك أن تغادري الآن يا لمعة، بعد قليل سوف يؤم بعض المصلين المسجد، فيكشف أمرك.

– ألم أقل لك إنني ما عدت أهتم بما يمكن أن يحدث.

تنهدت وكأنها حبست أنفاسها طيلة ما سمعته من ابن القصاد، ثم غطت رأسها بمنديلها، وغادرت بعد أن تمنت عليه أن يعتني بنفسه}.

***

(يمكنكم المغادرة).

قالت الحكاءة، بعد أن أنهت جزءاً من الحكاية في ذلك اليوم. أخذ الفتية والفتيات يغادرون كل إلى جهة، إلا أنا، حيث بقيت جالساً

في مكاني، أراقبها وهي تفتح علبة التبغ، وتحضر سيجارة أشعلتها، ثم نفثت دخانها في الهواء:

– لماذا لا تغادر يا خاطر.

كنت ساهماً بها، وكأنني أستجدي ذاكرتي، أن تمنحني باقي التفاصيل التي تجعل الصورة تكتمل، تفاصيل لامرأة راحت تسلب لبي، فتأخذني نحوها، بكل طاقة تفوق طاقة العشق، وتلقيني في اللحظة نفسها في بهو رمادي، يستعصي عليَّ فيه أن أفهم كنه ذلك الشعور، امرأة استطاعت أن تختزل مني ألم فقدان روايتي، التي ما كتبتها إلا لوجع قديم، وانتصاراً للحياة.

رددت مرة أخرى:

– خاطر، ألا تسمعني.

لا أدري، هل كنت أسمعها في تلك اللحظة أم لا، عندما أجبتها. فكل ما أعرفه أنني كنت منفصلاً عن كل شيء، إلا التحديق بها:

– نعم سيدتي، أسمعك.

– لماذا لا تغادر؟

نهضتُ من مكاني لأعود إلى البيت، لكن إحساساً متطرفاً تمطى في داخلي، يخبرني بأن الحكاءة بيتي. حينها تلعثم كل شيء بي، ووجدتني أُصاب بما يصاب به العصفور أمام عشه الذي حلق منه لأول مرة، كنت سأسألها بتوسل، من أنتِ، لولا أنها غادرت، كما في نهاية كل جلسة من جلساتها.

استفسر أحد الفتيان عما دار من حديث قصير بيني وبين الحكاءة، ثم قالت فتاة مصابة بالفضول:

- تنظر إليك الحكاءة كأنها تعرفك.

- أشعر أنني أعرفها، ربما التقيتها ذات يوم، لكن ذاكرتي لا تسعفني.

كدت أخبرهم عن حادثة الحريق، لكن رغبتي باسترداد روايتي، منعتني من قول ذلك.

أخبرت رحاب بما جرى عندما ألقيت ببدني في حضنها، فاستفاقت من إغفاءة العصاري، قالت وهي تدس رأسي في صدرها:

- لا عليك يا حبيبي، ربما ما يحدث لك محض شعور بالإشفاق على تلك المرأة.

لكن ذلك لم يكن شعور شفقة، إنه شعور مبهم وغريب، له لذة تأخذ روحي معه من دون أي حيلة لي على مقاومته.

دونت فصل الرواية، وجلست أنتظر بقايا الحاسوب. قلت لرحاب بعد أن رأتني جالساً لا أفعل شيئاً سوى الانتظار، إنني أريد أن أخلو بنفسي، فأفسحت لي مجالاً لذلك، وبالفعل وجدته في مكانه، عندما خرجت من الغرفة ذاهباً إلى الحمام، ثم عدت إليها.

- كنت أعلم أنك تنتظرني.

قال ذلك، بصوت متحشرج، هو صوتي نفسه، خاصة عندما أفرط بالتدخين، ثم صمت ينتظر مني أن أقول شيئاً، ليبتدئ حديثي معه.

قلت أتعجل ما انتظرته منه:

- سأنصت لك هذه المرة، وعليك أن تقول لي كل شيء.

قال ووتيرة صوته تتغير، فاكتسب شيئاً من الرزانة، كمن يتأهب للحديث في ندوة، أمَّ قاعتها كثير من الحضور:

- نعم سأقول كل شيء، لم تقله في روايتك.
دخلت رحاب من دون أن تقرع الباب، كعادتها:
- حبيبي هل تكلم نفسك؟
- لا يا حبيبتي، أنا فقط أراجع فصلاً من الرواية بصوت مسموع.

-٤-
أصل الحكاية

الحب هو السؤال الوحيد الذي لا ينتظر إجابة، إجابته هي السعي إليه بمتعة، كمتعة دربنا نحو الفردوس.

علي بن محمود القصاد

عندما وصلت باب بيت الحكاءة، وددت لو أقرعه وأعبر إلى الداخل، ربما أجد شيئاً يدلني إلى سر ذلك الإحساس الغامض الذي جعلني أتعلق بها. فلم يكن عشقاً، أو فضول روائي تأخذه شهوة الاكتشاف لمعرفة ما وراء الصمت، بل هو شعور غريب آسر، يطمر هوة في روحي، يؤثثها البرد، وتتغلغل فيها ظلمة دامسة.

تجاوزت باب الحوش، فرأيت شجيرات متشابكة لم يعتن أحد بها، حولها نباتات زينة تمددت بعشوائية، فاختلط اخضرارها بلون أوراقها اليابسة. ثمة درج قصير يصعد نحو باب خشبي قديم، استلقت قبالته قطة بنية اللون بعينين هادئتين، وشعر غزير كذيل الفرس. ثمة جلبة في داخلي لأصوات وصور تشير إلى أنني أعرف هذا البيت الذي كدت أقرع بابه، لولا أني سمعت وقع أقدامٍ فتراجعتُ، لكن الباب لم يفتح،

فاتجهت إلى باب خلفي، اكتشفت، حينما دفعته بيدي أنه غير موصد.

مشيت عبر ممر ضيق، على رؤوس أصابعي، حتى وصلت بوابة عريضة تطل على صالة جلوس قديمة الطراز، انتشرت فيها مقاعد وكراسي، جلست الحكاءة في واحد منها، بينما قبالتها، شاب بعمري. الغريب أن ذلك الشاب يحمل ملامحي وهيأتي نفسها! بل كدت أصرخ مندهشاً، بأن الذي أراه أمامي هو أنا بعينه، يقلب صحيفة بين يديه، ويقرأ فيها باهتمام، عندما تحققت أكثر وجدته نسخة أخرى مني. والأكثر غرابة أنني وجدت البيت مألوفاً لي بكل مقتنياته، وبالسكينة التي عادة ما نحسها في بيوتنا التي ولدنا فيها.

حينما حدقت بالحكاءة، داهمتني رغبة حادة بأن ألقي رأسي على صدرها، وأجهش بالبكاء. رغبة ازدادت عندما رأيتها تنظر إلي، وقد أقفلت الكتاب الذي بين يديها، جفلت خوفاً من عواقب ستنهال علي كمتسلل إلى البيت، ومنتهكاً لحرمته. لكنها راحت تبتسم بوجهي ابتسامة عذبة لا تجيء إلا من وجوه الأمهات، حينما تزداد بهن غريزة الأمومة، فيغدو حضن الأم أول الملاذات، عندما تخسر الفصول وداعتها، فيسود البرد، وتتبختر في الطرقات كائنات الظلام.

هربتُ حينها، وبي حيرة، هل أعود إلى مكان جلسات الحكاءة أم أغادر؟ حيرة ظلت تصارعني إلى أن جلست تحت الشجرة أنتظر موعد قدومها، فأتت قبل قدوم الفتية والفتيات بوقت قصير، لكنها لم تنظر في وجهي كما حسبت، بل بدأت بسرد الحكاية في ذلك اليوم، بملامح جادة:

{عند غروب الشمس، غادر عبد الله المسكوب بيت المختار بعد أن أمضى عنده ساعة أطمأن فيها على صحته. فقد التزم المختار فراشه،

مصاباً بانهيار في جسده، لا لمرض ما، بل لعدم قدرته عن تجاوز التفكير بالغول، وخاصة بعدما رآه في المنام يتوعده.

أسرع ابن المسكوب من خطواته، في المسافة بين بيته وبيت المختار، في الوقت الذي كانت القرية فيه، قد لملمت أشياءها وأناسها للتو، بعد أن خبت شعلة النهار، وحل الظلام، مرتع الغول والوحوش والعفاريت، بالنسبة لكثير من قاطني القرية. كان يحس وهو يخلف وراءه شجيرات جرداء، وبيتاً مهجوراً، بأن شيئاً ما يوشك أن ينشب مخالبه بظهره، فاجتاحته القشعريرة التي عادة ما تعتري البعض، في مواقف كتلك. تذكر أن هذا الشعور كان يداهمه أيام الطفولة، فضبط خطواته المرتبكة في عتمة تفشت أكثر من ذي قبل حوله، وتذكر تلك الأيام التي كان يمضيها مع أبيه، يجوب المناطق الموحشة صائداً للضباع، فقد عُرف والد عبد الله، بأنه أشهر صائد للضباع آنذاك. وكان عبد الله يرافقه في كثير من مغامراته، من دون أن يصاب بالخوف، فأصبح الضبع في نظره كأي حيوان يمكن الإمساك به. حدث نفسه مستغرباً، وبصوت خفيض، حينما سلك طريقاً ترابية تقتاده إلى بيته:

(ما بك يا عبد الله، يتغلغل فيك الخوف، وأنت الذي جربت ذات يوم أن تقبض على رقبة الضبع، فصار بين يديك مثل قط جريح).

لكنه لم يجد تفسيراً لما يحدث له، فقد تجاهل حكاية الغول عندما سمعها للمرة الأولى، ونهى زوجته عن الحديث فيها، لكنه عندما رأى ضحايا الغول يقعون في شباكه واحداً تلو الآخر، أخذ تفكيره منحى آخر، وصار يجد نفسه كأي ساكن في القرية، ضحية قادمة للغول.

عَبَر باب البيت، ودلف إلى غرفته، ارتدى بيجامته بتكاسل لم يعهد له مثيلاً من قبل، استلقى في سريره وأفكاره المشوشة، تأخذ جسده إلى دوامة ودَّ لو يغادرها، بحيث رأى كل شيء حوله يدور من دون توقف.

اعتذر عن مشاركة أبنائه الطعام، بعد أن نادته زوجته، متعذراً بالإرهاق، وبرغبة عارمة في النوم، لكنه في سره أدرك أن ما يصيبه مشابه تماماً لما أصاب المختار، الذي التزم فراشه خوفاً من الغول، دون أن يبوح لأحد بما يقلقه. فكر المسكوب بأمر المنام الذي رآه المختار، وتوقع رابطاً بين المنام، وبين ما يمكن أن يمنى به المختار.

أصابه القلق، فأخذ يتقلب في فراشه كمن نام في حقل شوك، فاستعاد ما أشيع في طفولته، بأن سكان القرية آنذاك رأوا غولة ترقص برأس الجبل. تذكر كيف أن أحد الرجال حمل بندقيته وقطع المسافة إليها، إذ اقترب منها دون أن يراها، بينما الرجال من بعيد ينادون عليه، يخبرونه أنها بجانبه، لكنه عاد يؤكد لهم، أنه لم ير شيئاً.

قال متمتماً بعد أن اندس في فراشه يحاول النوم (إنها لعنة سالم الأسمر وحميدة الشقرا، لابد أنهما ظُلما وها هو العقاب الإلهي يحل علينا).

قبيل الفجر استفاقت زوجته على صوته وهو يهذي في منامه بالغول. عندما استيقظ، أخبرها أنه رأى الغول يتهيأ للانقضاض عليه، وأن ذلك نذير شؤم، فلم ينم حتى الصباح.

***

تذكر سعدون الغاني بأسى يعاوده دائماً، بينما كان يجلس قبالة بيته القديم المتهالك، والمكون من غرفة واحدة، ومطبخ وحمام صغيرين، ما اقترفه كثير من أهل القرية بحقه، وما وقع عليه من ظلم وجور، استعاد تفاصيل ليلة أن ضبطوه يسرق نعجة من حظيرة أغنام المختار، فأوثقوه على عامود إنارة الشارع حتى الصباح، بينما أمه طريحة الفراش تئن وجعاً لنقص الدواء، وتذكر حين ضبطوه سكرانَ ذات ليلة فجردوه من ملابسه، وبقي الصغار يرجمونه بالحجارة، بينما كان يفر هارباً نحو بيته، كما ضجت في باله الليلة التي أمسكوه فيها يمارس الجنس مع حمارة شايش، فانتشر الخبر بين الناس، حينها توارى لشهور لا يخرج من البيت.

منذ تلك الحوادث أخذ أهل القرية يعاملونه معاملة قاسية، بخلاف ما يعاملون أخاه الذي تزوج فتاة من القرية وسكن المدينة. إذ بقي سعدون وحيداً مع أمه التي ماتت بعد ذلك بعام، ليقع رهينة لعوز أنقذه منه محمود القصاد، حين اشترى له سيارة قديمة، فصار يقل بها بعض من يقصدون المدينة، بينما راح علي بن محمود القصاد يتقرب منه، إلى أن استرد الغاني ثقته بنفسه، فأقلع عن السرقة وما كانت إلا محاولة واحدة لشراء دواء لأمه، لكنه بقي متمسكاً بالخمر الذي يشتريه إثر كل زيارة له للمدينة، ففيه يجد الأنس، ونسيان ما يؤلمه.

حينما سافر ابن القصاد للدراسة في القاهرة، وجد سعدون الغاني نفسه وحيداً، ففكر بالزواج من إحدى فتيات القرية. ذهب للمختار يطلب منه أن يتوسط له عند أبيها ليزوجها به، لكن المختار سخر منه

أمام عدد من رجال القرية، وأخذوا يضحكون بصوت عال، فقرع باب بيت والد تلك الفتاة بنفسه، لكن والدها كاله بكثير من الكلمات المهينة؛ إذ رأى أنه من العار أن يأتي سكير ولص لطلب يد ابنته.

منذ ذلك الحين، ولدت لديه نقمة على أهل قريته، فتحول بين يوم وليلة إلى شخص شرس يهابه الجميع.

سكب سعدون الغاني من زجاجة العرق كأساً أخرى، أضاف إليها الثلج والماء، ثم شربها مرة واحدة، فاتقدت عيناه بالاحمرار، كحمرة قلبه الذي اتقد هو الآخر بحزن عتيق، التفت إلى غرفته الخالية، لا امرأة تبدد فراغها، ولا صوت طفل يطرد وحشة معششة في أرجائها. رمق القرية الغارقة بصمتها وخوفها من الغول، بنظرة غاضبة، استعاد كل ما قيل من حكايات، منذ التقى حنة في البستان المهجور، وفرت غاضبة، تهذي بالغول.

رمى بكأسه فتهشم على صخرة قبالة باب البيت، محدثاً صوتاً اخترق بكارة صمت غلف القرية وزاد وحشتها. في غرفته تعرى من ملابسه، وأخذ علبة طلاء الأحذية الأسود، وراح يدهن جسده كاملاً حتى بدا أسودَ إلا من أسنانه. ثمة جلد لماعز بشعر طويل وغزير، يستخدم كفرْشات إضافية وقت الشتاء، قص منه قطعة كبيرة وربطها على رأسه، فبدا كأنه كائن بشعر طويل بشع. ثم أخذ باقي أجزائه وبدأ بربطها بشكل عشوائي، على باقي أنحاء جسده، فبدا كما لو أنه وحش ضار.

أغلق باب البيت، ووقف ينظر إلى القرية، ثم انطلق مسرعاً بين البيوت، إلى أن وصل بيت المختار، فوقف بالنافذة حيث كان المختار

مستلقياً في فراشه، يحدق بالسقف ويداه متشابكتان على صدره، افتعل جلبة وقرعاً على زجاج النافذة، حينها التفت المختار، وإذا به يرى الغول الذي أقعده الخوف منه في الفراش، منذ موت نعايم.

انطلقت من فم المختار صرخة رعب، أفزعت من في البيت، فولى حينها الغاني هرباً، ماراً ببيت حنة، التي رأته يركض ماراً بحظيرة الماعز، فعبر صراخها نافذة بيتها، متجاوزاً بيت المختار، الذي اجتمع أبناؤه وبناته حوله وهو يهذي، ويرتعد خوفاً.

عند نافذة أستاذ المدرسة عبد الله المسكوب، بقي سعدون الغاني يهز سياج النافذة، ويقرعها بيده التي كساها بشعر الماعز، ودهنها بطلاء الأحذية الأسود، إلى أن استفاق المسكوب، فدب به الذعر هو وزوجته التي كانت تستلقي بجانبه. مر الغاني بالقرية، مطلقاً أصواتاً غريبة، ومزمجراً، إلى أن وصل الجبل القريب من القرية، وخلفه يسمع بضع رصاصات أطلقت في الهواء، ويسمع صراخ نساء وأطفال، حملته نسمة الهواء.

لم ينم سكان القرية في تلك الليلة، وهم يسمعون صوت الغول من رأس الجبل، يتوعدهم بالموت، وبالانتقام لسالم الأسمر، وحميدة الشقرا.

بعد ما حدث، اقتنع الشيخ خضر المحمود بأن هنالك غولاً ينوي الشر بأهل القرية، فاستغفر، وبقي يصلي، ويدعو الله أن يجنب القرية ذلك الهلاك. كما وجُنّت حنة، التي أخذت فيما بعد، تفكر بالموت وتحس بخطواته تقترب منها شيئاً فشيئاً، وفي بالها تتفجر كل كلمات النواح والعويل التي عادة ما كانت تقال في المآتم، وهي ترى نساء يمزقن

ثيابهن، وينثرن التراب على رؤوسهن، حينما رأت ابن الغاني يمر قريباً من بيتها، بدأت تصرخ وتهذي بالغول، وراحت تهشم أي شيء في البيت تصله يداها.

صباحاً مر محمد القميحي ببيت المختار وبيت حنة، وقرأ عليهما بصوت مرتعش آيات من القرآن الكريم، فالقميحي هو الآخر أصابته لوثة الخوف، وتبدلت طباعه، وما عاد يخرج هو وجماعته كما كان، يطوفون بالبيوت يدعونهم للصلاة بالمسجد، فينهونهم عن الحرام، ويذكرونهم بعذاب القبر؛ إذ وقع القميحي أسير خيالات منحه إياها ما قرأه وما سمعه في كاسيتات عن الموت وعذاب القبر. لكنه حاول أن يتظاهر بالشكيمة أمام الناس، دون علم منه أن ملامحه تشي بخوف عميق يسكنه؛ ذلك الخوف الذي اتضح أكثر، حينما طلب منه أبناء عبد الله المسكوب، أن يزورهم في البيت، لما لحق بأبيهم من وهن وصمت وإحجام عن الطعام، فانفجر بالبكاء وهو يقرأ القرآن واضعاً يده على رأس عبد الله المسكوب كأنه يشعر بذنب خفي.

***

وجاءت لمعة، فبدت لها تفاصيل المنحدر أكثر وضوحاً، والسماء تعج بالنجوم كما لو أنها منديل أسود رصع باللآلئ، حينما كانا يسيران إليه. أخبرت ابن القصاد بما حدث في القرية، والهواء الرطب يرفع خصلات شعرها، ثم يتركها تهبط على كتفيها، حيث ألقت شالها الذي تلثمت به حينما تسللت قادمة إليه.

كان ابن القصاد مطمئناً أكثر مما مضى، فمال صوته إلى جانب من

الهدوء. أخبرها أنه نام جيداً بعد أن غادرته ليلة جاءت إليه، واستفاق عند الضحى، فأكل مما جلبته من طعام، ومنح ما تبقى منه لقطة أخذت تألفه وتألف المكان، فاستأنس بها.

اضطجعا على التراب، يراقبان النجوم كيف تقهر الظلمة، ويشاهدان شهباً ونيازك تهطل من بطن السماء. قالت لمعة بينما كانت تسند رأسها بيد، وبالأخرى تعبث بشعرها:

– أريدك أن تكمل لي ما شرعت بقوله.

قال ابن القصاد، وهو يميل برأسه إلى جهة اليمين، حيث ترقد لمعة بجانبه:

– حقاً تريدين أن تسمعي باقي الحكاية يا لمعة؟

– نعم يا علي.

فكر بردة فعل لمعة على سمعته، وما ستسمعه منه، ومسح النجوم وهو مستلق في مكانه بنظرة واسعة، ثم أخذ يخبرها بباقي الحكاية:

«انتشرت حكاية حبي لبارعة في تلك الأيام أكثر، وأخذت ككرة الثلج تكبر، ويضاف لها فصول لم تحدث، حتى قيل إن أحدهم رآني ذات يوم أضاجع بارعة في غرفتي، فتناهى الخبر إلى مسامع إخوتها فاستشاطوا غضباً، ورغبة في الثأر لكرامتهم. لكن أصغرهم اقترح عليهم أن يطلبوا من (الداية) أن تتبين الأمر. فأتت واصطحبت بارعة إلى مخدعها، فخلعت سروالها وفرجت قدميها، وهي حزينة لما يحدث. فحدقت أكثر من مرة، متفحصة غشاء بكارتها. عندما خرجت من الغرفة، والإخوة يقبضون على خناجرهم، وفي أعينهم شرر يكاد يشعل حتى الحقول الخضراء، لوحت الداية بيديها وبوجه حزين ناقم:

(بنت بنوت يا جماعة الخير، صلوا على النبي واستهدوا بالله)

فغادروا من دون أن يغادرهم الغضب.

عندما تناهى الخبر إلى مسامعي، أدركت أن سوءاً سوف يحدث لي؛ لذلك بقيت حذراً، مترقباً حدوث ذلك السوء، إلى أن جاء يوم حذرني فيه شيخ المسجد، من أن شيئاً سوف يحدث لي، وأن عليّ مغادرة المكان، لأنه رأى صدفة سليم المشاي، يجتمع بأبناء عاهد المشاي في دكانهم، ومن حركات أيديهم فهم أنهم يحوكون أمراً ضدي.

صار خوفي كله على بارعة، أكثر مما خفت على نفسي؛ إذ قدرت أنهم سيرتكبون شيئاً بحقها، لذا بقيت في الليلة نفسها جالساً على سطح الغرفة، أراقب بيت عاهد المشاي، وأراقب غرفة بارعة التي بقيت إضاءتها مشتعلة من باب خلفي لبيت المشاي، رأيت اثنين منهم يخرجان، بقيا يسيران حتى خرجا من زقاق ومعهم سليم المشاي، إلى أن وصلا حيث أسكن، وهم يتلفتون حولهم.

حمل كل من أبناء عاهد المشاي، عصا لف رأسها بقطعة من الخيش. اقترب أحدهم من نافذة الغرفة وكسرها، ثم على الفور قام سليم المشاي بإشعال النار بما يحملون، وألقوها عبر النافذة، فاشتعلت النار بالغرفة، وأخذت ألسنتها تتصاعد من نافذتيها. ما هي إلا دقائق حتى هرع سكان الحي، وبذلوا جهداً لإطفاء النار، لكنها كانت قد أتت على كل شيء، فانسحبوا وبقيت الغرفة يغمرها الرماد.

لم يعد أبناء المشاي بعد ما فعلوه إلى بيتهم، فقد رأيتهم يتوارون في الزقاق، ويختفون. ولم أهبط إلى الغرفة والنار تأكل مقتنياتها من

كتب وأوراق لي كنت أدون فيها ما يجول بخاطري، إلا حينما خلا المكان، فهممت بالنزول إلى الغرفة، لكني رأيت بارعة قادمة، فدخلَتها. إذ بقيت أسمع نواحها وعويلها، الذي كاد يجهش الحيطان لأساه، بينما كنت أغرق بنحيب مر في تلك اللحظة، توقفت عنه وأنا أرى شيخ المسجد، يقتاد بارعة، ويعود بها إلى بيتها، وهي تحمل أوراقاً لم تحترق بالكامل، تحت إبطيها.

عندما خلت الشوارع، غادرت إلى القرية، وأخبرت أبي وسعدون الغاني بما حدث، فرأى أبي أن عليّ مغادرة البلاد، إذ قدّر أن أبناء عاهد المشاي، وعشيرته لن يسكتوا. بعد أسابيع حملت حقيبتي وغادرت مبعوثاً للدراسات العليا في فرنسا.

لم أجد في فرنسا وسيلة للتواصل مع بارعة، سوى شيخ المسجد، الذي كنت أبعث له برسائلي، لكني خمنت عندما لم أجد رداً واحداً على رسائلي، أنها لم تكن تصل، أو أن شيخ المسجد قد توفي. وقتها رحت أكتب لبارعة في دفتر أحتفظ به، مدركاً أنه إن لم يصلها ذات يوم، لابد أن تحس به، ولابد لروحها أن تتلقف كلماتي، فللكلمات الصادقة أجنحة ترفرف كالأرواح في السموات.

بعد عامين من رحيلي إلى فرنسا، حيث لم أستطع الحصول على أي خبر يطمئنني على بارعة، عدت إلى الأردن في إجازة امتدت ثلاثة أيام، لم يعلم أحد بأمرها وذلك خوفاً من أبي عليّ. في اليوم التالي لوصولي خرجت ليلاً من دون علم أحد، وذهبت إلى المدينة حيث تقيم بارعة.

لم أكن أدري حينها كيف سألتقيها، فأعلمها بأنني مازلت حياً،

فخطر ببالي أن أرى شيخ المسجد، قبل أن أفعل أي شيء. حينما قرعت باب بيته، ذهل لما رآني أفك اللثام عن وجهي، وفرح بكوني ما زلت حياً، أخبرني ليلتها أن بارعة أصيبت بعد ما حدث بحسرة شديدة لما بليت به، فأصابها الهزال، وتردت حالتها، خاصة عندما جرّ السيل أخوتها فماتوا جميعاً في ليلة مظلمة، وهم عائدون من تجارتهم التي أخذوا يعملون بها بعد استقرارهم في المدينة.

ما هي إلا أيام حتى لحقت بهم أمها حسرة، فأضحت بارعة وحيدة، تكابد حزنها على فقدان عائلتها كاملة، وتقاسي ألمها على فقداني، وعلى ضياع حلمها بأن تجني ثمار علمها الذي صار وبالاً عليها.

وأخبرني شيخ المسجد أنه رغم كل ما وقع لبارعة في تلك السنين، إلا أن الألسن بقيت تبتدع الحكايات حولها، وتتفنن بها، فأصبحت مطمعاً لبعض الرجال الذين رأوها فريسة سهلة.

عرفت منه أن موظفاً في البريد، يوسف النّداح كان يقرأ الرسائل ويمزقها، لأنه كان يحب بارعة من غير علمها، فهو الوحيد الذي عرف أنني نجوت من النار التي أضرمها أبناء عاهد المشاي في غرفتي قبل أن أغادرها.

لذلك راح يوسف النداح يتردد عليها وهي في عزلتها، رغم رفضها لرؤية أحد، فارتاحت له، وهو يقوم على خدمتها من حين إلى آخر، يجلس بمعيتها يحدثها عن أحلامه في السفر إلى أوروبا، وكيف يسطو على بعض الرسائل القادمة من تلك البلدان، يقرأها ثم يعيد إغلاقها بعناية، ليس رغبة في اكتشاف أسرار مرسليها، إنما رغبة في معرفة

أحوال تلك البلاد، وكيف تمضي أمور من حظي بفرصة العيش فيها.

وجدت بارعة نفسها تنساق لحكاياته التي لم تكن متأكدة هل هي خيال أم حقيقة. يبقى يحدثها ساعات متأخرة من الليل، وهما يجلسان في حوش البيت، ولا تغادر إلا حينما يستفحل بها النعاس. مع مرور الأيام اعتادت عليه، فأصبح حدثاً يومياً يكسر الرتابة والأسى اللذين يطبعان حياتها، إلى أن اعترف لها بحبه، وأنه ما عاد يحلم بالسفر لتلك البلدان البعيدة، وأن حلمه بات زواجه بها، فقبلت به زوجاً.

ليلتها بقيت في بيت شيخ المسجد حتى الصباح، فطلبت منه أن لا يخبر بارعة بأنني ما زلت حياً، بعد أن عرفت بأمر زواجها، أعطيته عنواني في فرنسا، وغادرت وبي وجع المحب الذي لن يشفى من عشقه.

بعد عام وصلتني من شيخ المسجد رسالة، عرفت منها أن بارعة، حسب ما أسرّت له، لم تقبل بيوسف النداح زوجاً، إلا لتجبر الألسن على أن تعود إلى مخابئها، لكنها وجدت نفسها تعيش في بيت مع رجل، بينما قلبها يعيش معي، فمنيت بوجع جديد وهي تتمنع عن زوجها، وتكتم في سرّها سبب تمنعها. أصيب النداح بألم وحزن كبيرين بعد أن أمضى وقتاً يحاول أن يخرجها مما هي فيه، لكنها أوغلت في عزلتها ومزاجها المتعكر. وبدأت تلمح له بأن عليهما أن ينفصلا، لكن حبه الجنوني لها أوحى له بفكرة، اعتقد أنها يمكن أن تجعلهما يعيشان مع بعضهما، فقد غافلها ذات ليلة وضاجعها رغماً عنها.

عندما فرغ منها، وجدت بارعة نفسها تغرق بدم بقي ينزف منها إلى أن أغمي عليها. في المستشفى سمعها وهي تهذي باسمي، تحت

تأثير حمى أصابتها نتيجة لمرضها، فجن جنونه، وتحولت حياتهما إلى جحيم لغيرته التي دفعته لضربها مرات ومرات. راح النداح يقع تحت مطارق كوابيس وأحلام، يرى فيها بارعة بمعيتي نتضاجع، ونتبادل كلمات الحب على مسامعه، فتحول إلى شخص شرس، يعود في آخر الليل ثملاً، يبقى يبكي ويصرخ إلى أن ينام في ساعات متأخرة من الليل. أخذا يمضيان وقتهما في البيت من دون أن يتحدثا لبعضهما؛ إذ يخرج النداح صباحاً، ثم يعود في المساء. لكنه لم يعد كما كان، تفوح منه رائحة الخمر، بل أطلق لحيته وارتدى ثوباً قصيراً، وأصبح صديقاً لسليم المشاي وجماعته.

نهض ذات صباح من نومه، واستحم وارتدى ملابسه، وحلق ذقنه، ثم حمل حقيبته، وألقى عليها يمين الطلاق ورحل، من دون أن تدري بارعة بأمر تحوله المفاجئ.

سمعت بعد حين أنه غادر إلى فرنسا، لكنه ترك لها في أحشائها جنيناً، رغم ما منحه لها من حياة بعد ولادته، إلا أنها ضربت حول نفسها طوق عزلة، لم يستطع أحد كسره. وأخذت تعيش على ما يجود به أهل الحي لها ولابنها. فقد ورثت بارعة ديوناً كبيرة عن عائلتها، أمضت زمناً حتى سددتها، فالتفتت لابنها الذي بقيت تحدثه عني، ولا تحدثه عن أبيه سوى القليل.

مضت السنين بخفة، رغم ما تخلفه الدراسة من تعب، فحصلت على درجتي الماجستير، والدكتوراه في الفلسفة بتفوق، وقررت عدم العودة إلى البلاد، خاصة بعد أن قدمت لي الجامعة عرضاً للتدريس فيها. فقمت بتسوية مع الجهة التي ابتعثتني، وباشرت عملي مستمتعاً

به، فتشكلت لي علاقات بالأوساط الثقافية والفكرية والسياسية في فرنسا، وفي كثير من البلدان العربية والأجنبية، وأخذت أنشر آرائي ومقالاتي في الصحف الفرنسية والعربية، بلغتي الأم وبالفرنسية، معبراً عن رأيي، بمفهوم العيب من وجهة نظر البنى الاجتماعية المتشددة، والحرام من وجهة نظر الجماعات الدينية المتطرفة. وجدت مقالاتي رواجاً في الأوساط العربية، خاصة بعد أن نشر كتابي «العيب والحرام»، فقدمت العديد من المحاضرات والندوات في كثير من البلدان العربية والأجنبية، شارحاً تلك التبدلات التي طرأت على هذين المفهومين، وما ألصق بهما من مفاهيم عطلت الحياة في الدول النامية.

كنت أقوم بكل ذلك الجهد عبر كل تلك السنين، وبارعة في أول سطر لكل كتاب ودراسة، حيث إنني أهديت باقي الكتب إليها، ولابننا الذي حلمنا به بيننا، في تلك الأيام التي ما غادرت ذاكرتي قط. لكن طروحاتي أخذت تزعج البعض، خاصة الجماعات الدينية المتطرفة، فبدأت تنهال على بريدي رسائل التهديد، ورسائل أخرى فحواها شتائم، لم ألق لها بالاً. لكن الأمر لم يمض بتلك البساطة، فقد حذرتني سلطات الأمن الفرنسية، بأنني مستهدف من قبل جماعة متطرفة استاءت من كتابي «العيب والحرام»، فأخبروني بضرورة اتباع احتياطات الأمان كافة. وبالفعل التزمت بما أملوه علي، فقلصت عدد مرات خروجي، ورحت أتفقد سيارتي قبل ركوبها، وزودت البيت بكاميرات مراقبة، وزدت للباب أقفالاً جديدة متطورة.

لكن المتطرفين عادة ما يجدون ثغرة ينفذون منها، فقد عدت ذات مساء إلى بيتي ونمت لفرط التعب سريعاً، لأصحو بعد ستة أشهر،

لأجدني في المستشفى مشوهاً وبخلقة جديدة، لا تمت إلي بصلة.

أخبرتني السلطات الفرنسية أن من أضرم ذلك الحريق، هو شخص ينتمي لتلك الجماعة المتطرفة يدعى يوسف النّداح. ما إن سمعت اسمه حتى تذكرته، فأخذت غيوم من الأسى تمطر على رأسي، وأنا أفكر بما حدث.

بعد تلك الحادثة بشهور، أُلقي القبض على يوسف النداح، فأسر لي أحد الضباط الفرنسيين، أن دوافع النداح، كما اعترف، لم تكن إلا انتقاماً مني لتلك الحالة النفسية التي مُني بها، إثر سماعه بارعة تهذي باسمي في المستشفى، وفي سرير نومهما، مخالفاً الهدف الذي أرسلته جماعته لينفذ العملية لأجله.

أنفقت في فرنسا كل ما جنيته في تلك السنين، لأسترد شيئاً من ملامحي، لكن النار كانت أكثر وفاء لمن أشعلها، بحيث جعلتني شخصاً آخر بخلقة جديدة. حينما غادرت المستشفى، وجدتني غير مقبول في الحي الذي أعيش فيه، وما عاد بإمكاني أن أعود لعملي، فسطا بي خنجر الغربة أكثر من ذي قبل، خاصة عندما وجدت في صندوق الرسائل، كثيراً من المكاتيب من أختي فاطمة، آخرها تنبئني فيه بأن والدتي توفيت، وأن علي العودة. ثم طمأنتني أن أبناء المشاي ما عادوا يضمرون لي شيئاً، لأن السيل جرفهم فماتوا، وما تبقى من العائلة سوى بارعة وابنها، بارعة التي تعاني أزمة نفسية حادة، من غير أن تعلم أنني عرفت بهذا الخبر سابقاً.

مكثت بعد تلك الرسالة شهوراً، وجدتني إثرها أكثر غربة في تلك المدينة التي أعيش فيها، فتدبرت أمري، وعدت إلى الأردن، لكنني لم

أعد للقرية بخلقتي الجديدة هذه، فاستقررت في عمان، التي لفظني أناسها هي الأخرى، فقد تحولت إلى متسول مدمن على شم الآغو، ينام في غرفة رطبة، لا يكلم أحداً. إلى أن حظيت ببصقة من رجل على إشارة ضوئية، جعلتني أحمل حقيبتي وأعود إلى قرية، ما زال أهلها يدفعونني خارجها، كأنني كائن غريب، لم يكن مسقط رأسه فيها.»

اعتدل علي بن محمود القصاد، من مكانه الذي اضطجع به، وأرخى رأسه على يديه اللتين اتكأتا على ركبتيه. حدق بالتلال وبالجبال المحيطة، حيث بدت فضية، والقمر يصعد المدى الشرقي للقرية. ثمة أنين كان يكابد الكتمان في صدره، فاقتربت منه لمعة، وراحت تمسح بيدها على رأسه، ثم بيدها الأخرى أمسكت بذقنه، فرفعت وجهه المستسلم لحزن عتيق، فتحت ذراعيها وضمته بعمق إلى صدرها، فأجهش بالبكاء، وهي تغني له تلك الأغنية التي ابتكراها، وراحا يرددانها في أيام مضت، وهما يحلمان بالمكانس تصبح طائرات، تأخذهما إلى البلدان البعيدة:

(بُكرا عصا المكنسة بتصير طيارة
ونركب جناح الريح ونروح عالغابات
نمرق عدار النجم ونصحي نجم سهيل
تراب القرى عطشان للمي يا سيد النجمات)

***

ساءت حالة المختار تماماً كحال الكثير من قاطني القرية بشكل غريب، وما عاد في الأفق سوى ريح الموت الذي يخيم على بال

ساكنيها. ولم تفعل الجهات الأمنية شيئاً، خاصة بعد أن مكثت بطلب من المختار لفترة من الزمن، وغادرت من دون أن تجد دليلاً على ما يعتقده الناس، بل إنها حاولت أن تشرح للمختار أن كل من ماتوا، ما هم إلا ضحايا حوادث عرضية، لم يجد الطب الشرعي دليلاً على مسبب لها، مثلما يعتقدون.

لكن المختار ما عاد يؤمن برأيهم، خاصة بعد أن رأى الغول بنافذة غرفته، ورآه في رأس الجبل يزمجر، ويتوعده هو وأهل القرية بالموت، لذا خارت قواه تماماً. فقد كان إحساس المختار، إحساس من ينتظر حتفه بيقين منقطع النظير، وصار يحسب كم دقيقة تبقت له لتنتهي حياته على يدي الغول، ومخالبه تنهش جسده، فتحمله يد الموت إلى عوالم مجهولة تثير فيه الرعب، الموت الذي حاول أن يتخيل لون الأشياء بعد أن ينتقل إليه، ملمسها، الأصوات، الحركة، ثم تخيل شكل الألم الذي سيعتريه لحظة ذلك الانتقال، لكن الخوف من الموت أصبح أهون عليه من الألم المنتظر، الذي سوف تسببه وحشية الغول وهو يقدم على جسده.

نهض من فراشه وأخذ يدور حول نفسه، كأن ذبابة تحوم وتطن في رأسه الذي كان ممسكاً به بكلتا يديه المرتعشتين، شعر بهزيمة لم يلامس دبيبها قلبه قبل تلك المرة، كره الصمت حينما كان يحيل القرية إلى مقبرة، وتمنى لو أن سكان القرية يلتفون حوله في تلك الأثناء.

أشرع نافذة غرفته، وأطل على الجبل حيث كان خالياً إلا من العتمة وهي تزمل الأشياء، تخيل الغول يهبط من أعالي الجبال، يفتح باب البيت، ويدخل الغرفة، ثم يقف أمامه لاهثاً، فيقدم على ما وعده

به، رأى روحه تئن تحت مخالب وأنياب الغول، بينما دماؤه تسيل على أرض الغرفة. حاول أن يستثير بنفسه شكيمة عزت عليه، وهو ينعت نفسه بالجبن والخوف، لكنه فشل بطرد ما تلبسه، فدار حول نفسه في غرفته أكثر من ذي قبل، ثم سقط على الأرض قرب الخزانة التي كان بابها مفتوحاً، حيث لاحت له فوهة مسدسه كعين باسمة، تدعوه للخلاص، نهض بتكاسل مَرَضي، استل المسدس، وسحبه للوراء، فاستقرت الطلقة في حجرة الإطلاق، قرّب فوهته من رأسه، الذي كانت تتناوب عليه صورتان، صورة الغول وهو يهجم عليه، وصورة غامضة للموت. أخذت الصورتان تتناوبان على شاشة مخيلته بسرعة مذهلة، إلى أن توقفت كاسطوانة «روليت» على مشهد الغول وهو ينفذ مراده الوحشي. حينها ضغط المختار بإصبعه على الزناد، فأفلت الطارق وقد أشعل شهوة النار بالطلقة، فاخترقت الرصاصة دماغه، وتناثرت دماؤه على الجدار، بينما امتد صدى الطلقة، خارج حدود القرية، فعوى كلب بوتيرة نائحة.

انتشر خبر انتحار المختار سريعاً، وخيم على القرية إحساس أكبر من الحزن، إحساس صار أكثر إيلاماً من إيقاع الخوف وصراعاته، كأن لوثة أو مسّاً أصاب أناس القرية، فبدا الإنهاك عليهم جلياً، لحظة تشييع المختار، فقد بكى كثير من مشيعيه بمرارة، لا حزنا عليه، بقدر ما هو حزن على مصير ينتظرهم، فغادروه متعجلين بعد دفنه، وما حضر أيام العزاء الثلاثة، سوى عدد قليل من الرجال الذين تباحثوا أمر القرية باستحياء، من دون أن يصلوا إلى، فاختاروا محمد القميحي ليحل محل المختار، لعل وجوده يكون عاملاً في طرد الغول من القرية. حاول القميحي أن

يخفي خوفه من الغول، لكن البعض لمس ملامح ما يخفيه في داخله.

بعد انتهاء أيام العزاء، دعا القميحي عدداً من رجال القرية لاجتماع في بيته، بعدما أصبح مختاراً، وأخذوا يتشاورن حول ما حل بالقرية، فاقترح عليهم أن يشكلوا جماعة لحمايتها من الغول. لكن عدداً قليلاً من الرجال انضم لتلك الجماعة المقترحة، مكثوا بعد تلك الليلة أياماً يتناوبون على مداخل القرية ومخارجها، يحملون مشاعل نار وبنادق، لكنهم لم يروا شيئاً، ولم يسمعوا صوتاً، فانفضوا عائدين لاستكمال حياتهم، واطمأن سكان القرية لتلك النتيجة، وعاد لهم شيء من الهدوء الحذر. لكن الأمر لم يدم على حاله، فقد خرج سعدون الغاني في ليلة مظلمة، وراح يقرع النوافذ والأبواب، ثم وقف برأس الجبل يعدهم بضحية جديدة.

حاول عبد الله المسكوب الانتحار، بعد أن سمع صوت الغاني يزمجر في رأس الجبل، ويتوعده بالموت، وسمع صراخ الأطفال، وصدى صوت رصاصات متفرقة أطلقت باتجاه الجبل، تقاطع مع صدى أصوات نائحة، تهادت إلى مسمعيه من مخيلته.

طمأن المسكوب عائلته قبل أن يأوي إلى النوم، من أن الخوف ابتعد عنه. لكنه في الواقع كان معششاً في دواخله، تماماً كما سيطر على أفراد عائلته، وباقي قاطني القرية. لكن زوجته لم تطمئن لحالته؛ إذ تظاهرت بالنوم، فرأته يتسلل إلى المطبخ، ويفتح علبة سم للفئران، ينوي التهام كمية منها، عندما أبعدتها عنه، فانهار على صدرها، غير خجل من خوفه الذي استبد به، وراح يرى في قرار الانتحار تفويتاً لفرصة الغول بأن يحقق مراده، لكن زوجته أدركت أن رهبة الموت ما

عادت تساوي للمسكوب شيئاً، أمام ما ارتسم عن الغول في مخيلته، هو الآخر.

شاعت فكرة الانتحار في القرية، وباتت محط تفكير عدد ممن سلب الخوف من الغول قواهم، وباتت مصدر قلق، يوازي القلق والخوف من الغول، كما شاع بين النساء رأي، أخذن يتداولنه باستمرار، بأن ما يحدث للقرية، ما هو إلا لعنة حميدة الشقرا التي قتلت ظلماً، وما جريمتها سوى أنها لم تجد ملاذاً للقاء الرجل الذي تحبه سوى المغارة. ورأين أن على أهل القرية، أن ينحروا عدداً من الشياه والماعز فداء لروحها، لعل خطر الغول يندحر عن القرية. وبالفعل فقد نحرت عدد من رؤوس النعاج والماعز، ووزعت على سكان القرية، الذين مكثوا أسبوعاً من دون أن يحسوا بشيء له علاقة بالغول، إلا أن ليلة مقمرة شهدت صراخ الغول، ووعيده قادماً من رأس الجبل، فغرقت من جديد بخوفها الذي تفشى أكثر مما كان.

***

حزن ابن القصاد أنه لم يشارك بعزاء المختار، وتمنى لو ذهب مثله مثل غيره، وواسى عائلته بفقدانه، وحزن أكثر لما أصاب القرية من لوثة، أخذت تتفاقم، إلى أن شارف أهلها على الجنون.

كانت أخبار القرية تصله عن طريق سعدون الغاني الذي يزوره باستمرار. فكر ابن القصاد وهو مستلق في سريره، بعزلته التي لم يتوقعها بهذا الشكل، قبل أن يقرر العودة إلى قريته، رأى نفسه حجر دومينو لا مكان له يرقد فيه، شعر بالملل يستبد به، وصوت الصمت

يحز شرياناً ما في باله المسكون بكثير من الهواجس، اختار كتاباً، ليبدد ثقل الوقت، لكنه لم يجد لديه رغبة للقراءة، فكر بلمعة وبتلك الأيام التي أمضاها معها عند المنحدر، يقص عليها ما جرى له، شعر بحنين جارف يأخذه إلى أيامه في فرنسا، ففتح دفتر يومياته، وراح يقرأ في صفحة منه:

(بارعة

يحدث يا حبيبتي أن يغيب الواحد منا، من دون حيلة له على رد أسباب الغياب، الغياب انتزاع لنا من فضاء الوقت النابض بكل تفاصيل الحياة، لكن غيابي هذه المرة شيء آخر، غير المرة التي أفلتُّ فيها من شهوة نار إخوتك، وسليم المشاي، الذي لا تنظر عيناه إلا للوراء، غياب كأنه رحلة في كوكب قصي، سرق كل ملامحي، ثم ألقى بي دونها، في فضاء خلا من الجاذبية، فارتطمت بالأرض، لأصحو عليَّ، وأجدني واحداً غيري، اختطفت ملامحه النارُ، وخلفت له ملامح مسخ خاسر وحزين.

ما الذي حدث؟

كنت مدعواً إلى ندوة حول كتابي «العيب والحرام»، وكان ذلك في مساء أحد أيام السبت من الربيع الفائت، خرجت من شقتي باكراً، بعد أن ارتديت بذلة جديدة، وتعطرت بعطر جديد. كان فصل الربيع قد تبدى في كل شيء، حتى في الحجارة حين نما في بعضها العشب.

في القاعة الواسعة التي ضمت حضوراً من مختلف الأجناس والأعراق، جلست إلى الطاولة التي ضمت، بالإضافة لي، ناقداً فرنسياً يعمل أستاذاً جامعياً، وكاتبة فرنسية قامت بإدارة الندوة، حينما أخذت

مديرة الندوة الحديث عني، بدأ وجهك يتحرك بين الوجوه التي عجت بها القاعة، ورأيتك تقتربين مني، وتطبعين قبلة على جبيني، وأنت مصابة بكل ذلك الفرح لما قالته مديرة الندوة بحقي.

قرأ الناقد ورقة تطرقت لكتابي المحتفى به، ورأى في قراءته أنني أسعى لمجتمع عربي يتجاوز كل المفاهيم الخاطئة التي طرأت مؤخراً، على الممارسات الاجتماعية، والدينية، حينما قدمني للجمهور علا التصفيق.

قبل أن أشرع بقراءة الورقة التي أعددتها عن كتابي، رغبت بحديث مرتجل، فقلت بعد أن عم الصمت القاعة:

(في البدء عليكم أن تعلموا أنني لست ضد أن يلازمنا صوت اسمه العيب، وآخر اسمه الحرام، لأن في حياتنا سلوكات عليها أن لا تحدث، رغم كل الدعوات للحرية المطلقة، هذا المفهوم الذي يناقض فكرة الحياة غير المطلقة على الأرض، في الأصل لأي إنسان، لكني ضد أن يهيمن هذان الصوتان على أصوات عقولنا، دون أن نتفكر بأمر ما نحن بصدد تطبيقه من سن قوانين الحرام، أليس هو الله من طلب منا أن نتفكر؟ أليس هو الله؟ إذن علينا أن نتفكر بمن باتوا مؤخراً يحرمون ما لم يحرمه الله، ونراجع ما رأته بعض البنى الاجتماعية عيباً، غير قابل للخوض بحديث عنه. هذا ما أردت قوله في كتابي، الذي مثلما أقبل عليه الكثير، رفضه الكثير أيضاً).

بعد تلك المقدمة قرأت ما كتبته عن مؤلفي، ثم تفرغت للإجابة عن أسئلة الحضور.

ثمة شاب أسمر يرتدي ثوباً قصيراً، رمادي اللون، ويعتمر قبعة

بيضاء، أشارت لي ملامحه أنه من دول شرق آسيا، رفع يده طالباً أن يسأل عن أمر ما، فقال بلغة عربية فصيحة شابتها بعض الركاكة في الجمل:

– لماذا يتنامى الإرهاب في العالم العربي؟ ولماذا أصبح الإسلام يوصف بأنه دين الإرهاب؟

قلت بعد أن جلس الشاب:

– في البدء أنا لست راضياً عن أن توصف كل الجماعات الدينية بالإرهاب، هنالك جماعات لا تتخذ غير الدعوة سبيلاً لتفقيه الناس بدينهم، وترفض تلك الجماعات ما يحدث من قتل للأبرياء العزل، وهنالك جماعات، ليست إسلامية فقط، إنما من مختلف الأديان، اتخذت الإرهاب طريقاً لتحقيق مصالحها، وهي ليست بريئة من علاقتها بجهات تنوي هي أيضاً تحقيق مصالحها، بمعنى أنها صنيعة جهات معينة، وهذه الجماعات بعينها هي من أساءت للإسلام، وجعلت المجتمع الدولي يرى المسلم إرهابياً، فالإسلام هو دين العدالة والحرية، والإنسانية. أما لماذا يتنامى الإرهاب في العالم العربي، فهذا عائد لأسباب كثيرة، أهمها الفقر، الذي أينما وجد سيكون بيئة خصبة لكل أشكال الإرهاب، لذا لم أتوقف عن القول بأن العالم أجمع مسؤول عن تنامي ظاهرة الإرهاب.

في تلك الندوة وجدت آراء متنوعة خاصة من العرب الذين يعيشون في فرنسا، منهم من قبل ما جاء في كتابي، ومنهم من رفضه. عدت إلى شقتي مسروراً، وآويت إلى فراشي، من دون أن أدري أنني آوي إلى حضن نار لم تبتدئ شهوتها بعد، كانت سرعة اشتعالها أكبر

من سرعة صحوي، وأكبر من كل تحذيرات سلطات الأمن الفرنسي، بعد أن أنبأتني بأنني مدرج على قائمة جماعة متطرفة، تنوي اغتيالي، لما أثارته مقالاتي وكتبي مؤخراً، لكنهم لم يخبروني، إلا بعد أن ألقوا القبض عليه، أن من اشتعلت بقلبه نار الغيرة، وهو يسمع اسمي على شفتيك ترددينه بقربه في السرير، هو من سيشعل النار بجسد طالما قاسى نار غيابك، وعذابات تلك النار التي أُشعلت في غرفتي تلك الليلة التي ما زال نواحك على رماد اعتقدت أنه رماد جثتي، يتمدد في مسامعي.

إنه طليقك يوسف النداح، الذي حينما علمت عنه من شيخ المسجد ليلة أن أتيت للحي للقائك غادرت كأنني لم أعد، حتى لا أبدد حياتك معه، يوسف النداح الذي لم يقل لجماعته حينما تبرع بتنفيذ العملية، أنه ينتصر لذاته، لا احتجاجاً على أفكاري. لكنك كنت معي، في تلك المسافة التي كان فيها جسدي يهوي نحو مستقره في الأرض، كأني آدم وكأنك حواء، نكابد تهمنا الأبدية، وما كانت تلك المسافة إلا غيبوبة استمرت شهوراً في مستشفى فرنسي، عندما استفقت فيه، لم أجد قرب رأسي سوى باقات ورود، زودت ببطاقات من زملائي في الجامعة، ومن معارف يتمنون لي فيها الشفاء، غيبوبة رأيت فيها ما كان، وما سيكون في حياتي، حينها مددت يدي في الهواء فشعرت بك قربي، وشعرت بلمس وجهك الدافئ، ورأيت عينيك المتقدتين برغبة عارمة بالحياة. رحت أتساءل، أما كان لهم أن يفهموا، أني أحببتك، بكل ما يمتلك عابر الصحراء من أمل في العثور على بركة ماء، يلقي فيها بدنه، فتورق في كتفه شجرة الحياة؟!

أكتب لك الآن وأنا بوجه غريب عني، وجسد ليس لي، فأتذكر غرفتي حين كنت من نافذتها، أطل على نافذتك التي تبقى طوال الليل مضاءة تؤنسني، في ذلك الوقت الذي سنت فيه الحراب لجز رأس حلمي بك، وأتذكر شكل أفاعي النار، وهي تشتعل مطلة من نافذة الغرفة، وأنا أختبئ على سطحها، كمن يداري عمره لأجل عمر جديد، لا ترى أشجاره إلا لمن وعده العشق، بصباحات أبدية.

ثمة غصن لشجرة يحتك الآن بزجاج نافذة غرفتي في المستشفى، كأن اخضراره يعدني بأمل تبقى، رغم كل تلك الحرائق)

***

لم يشك ابن القصاد في أن من يطرق الباب هو لمعة. عندما فتح لها الباب ودخلت، كانت تحمل كعادتها طعاماً وشراباً، واشتياقاً لا جدوى من مداراته. لم يُبدِ ما يبديه العاشق حينما احتضنته، وقلبها يكاد يفر من وراء قفصها الصدري، فقد بدت كأنما هيأت نفسها لمثل هذه الخطوة، لذلك بدت متوترة.

وهي بمعيته أخذت تعامله كما لو أن الذي بينهما صورة مكتملة، لا تحظى بمساحة رمادية، سببها حب ابن القصاد لبارعة، فقررت أن تقتحم تلك المساحة، تملأها بكل ما تمخض عن قلبها من اشتياق وتوق له.

جهزت الطعام وراحت تطعمه، كما لو أنها تطعم طفلها. كان ابن القصاد في دواخله يقع صريعاً لمراوحة بين حب لمعة له، والذي لم يتغير رغم كل ملامحه الجديدة وقد تبدلت وصارت مرعبة، لدرجة لا

تقوى امرأة فيها على النظر في وجهه، وبين حب لا يغادر قلبه.

قال وهي تمسح بإصبعها عن فمه بقايا طعام:

– لماذا تفعلين كل ذلك معي يا لمعة؟

جففت يديها بفوطة، وأزاحت عن عينيها خصلة شعر ناعمة انسدلت على وجهها:

– أعرف أنك كنت ستقول، لماذا تستمرين بحبي، رغم ما فعلته النار بي.

نهضت من مكانها، ومشت بدلال هادئ نحو زجاجة ماء، سكبت منها كأسا ووضعتها أمامه، وجسدها يلوح له غضاً كزهرة لم تقطف عن أمها النبتة:

– ما الذي تريده المرأة من الحب، سوى أن تدخل تلك الغرفة السرية التي طالما حلمت بها، فتجني ثمار احتواء، لا تقدمه غير يدين تأخذانها لذاك الصدر الحاني، وتحس بعينين تحرسان خطواتها، بعناية رسام يقترب من لوحته ويبتعد، ليضع كل ضربة للريشة في مكانها.... ما الذي تريده، غير قلب يدثر روحها بصوف الأمان، يعدها بزمن يشبه جريان النهر بين العشب، وهي معه يقصدان جهة اللانهاية، فالمرأة لا تحتاج سوى حضن، وعين، وقلب، لتخلد إلى فكرة السكينة، من دون أن تكترث لفكرة الضياع، فعلى صدر الحبيب يولد الشجر، الذي لا يأبه لغياب الشتاء.

كان ابن القصاد يحدق بها، ينتظر أن تكمل حديثها عندما توقفت فجأة، ولامست وجهه بيديها:

– النار لا تطال تلك الغرف السرية يا علي، لذلك أنت هو ذاته

الذي أحببته، يوم كسرت عصا مكنستي، ونحن صغار نحلم بالتحليق، فأركبتني وراءك، وقلت تعالي نحلق بمكنسة واحدة.

لاذ بسهو لم يداهمه من قبل. حينها اقتربت منه وقبلته، وأخذت ترتعش وهي ترتمي بحضنه، هامسة:

– أريدك يا ابن القصاد، فشوقي لك يكاد يقتلني.

في السرير لم يبتعد عنها ابن القصاد فقط لشكل جسده المشوه، بقدر ما وقفت له بارعة بباب الذاكرة تعض على شفتها، وفي عينيها دمعة بحجم كل ما جرى، حينها ترك الغرفة واتجه نحو المنحدر وجلس هناك، فلحقت به لمعة وبينهما إحساس غامض، خلق صمتاً موجعاً وأسئلة دونما إجابات.

قالت تكسر طوق الصمت الذي التف حولهما:

– حال القرية ساء كثيراً يا علي.

أضافت وهو ما يزال صامتاً، ينكش التراب بعود يابس ويحركه بشكل دائري:

– عبثت حكاية الغول بعقولهم، منذ ما أشاعته حنة في ذلك اليوم، وما تبعه من موت عواد أبو الدفاين، واختفاء سعيد الليلي، وموت زوجة المختار، الذي لحقها منتحراً. حاول عبد الله المسكوب الانتحار ليلة البارحة، فقد فعل الخوف فعله يا علي، لا أنكر أنني خفت، خاصة عندما سمعت ذلك الصوت القادم من رأس الجبل يتوعد القرية بالموت، لكنني أريد أن أفهم ما الذي يجري.

ألقى ابن القصاد العود من يده، ونظر إلى وجه لمعة، فأكملت حديثها:

– أنت تعرف يا علي، أنني لا أؤمن بالخرافة، ولا أؤمن بما أشيع عن الغول، وأرفض طريقة أهل القرية في تناقل الحكاية على طريقة الكرة الثلجية، التي كلما كبرت، أصبح خطرها مدمراً. أكثر من شخص في القرية أخذوا يفكرون بالانتحار، لم يقتنعوا بوجهة نظر الجهات الأمنية، بأن ما وقع ما هي إلا حوادث عادية، وأن ما من غول في القرية.

أشعل ابن القصاد، سيجارة، وتنهد:

– الخرافة، الخرافة يا لمعة، ما زالت تفعل فعلها بهذه القرية التي لم تبق على حالها مثلما تركتها، بل ازدادت سوءاً، قرية بعيدة عن المدينة لم يصلها مسؤول قط، كأنها على حد قول سائق السيارة التي أقلتني إلى هنا، ليست ضمن الخريطة الجغرافية، مثلما تركتها لا تهتم إلا بمفهومين خاطئين عن العيب والحرام.

– عليك أن تفعل شيئاً يا علي.

قالت ذلك ونهضت تنوي المغادرة، ثم قالت بما يشبه الهمس:

– إن أجيز لي أن أعتذر عما فعله شوقي لك، فإني أعتذر.

بقيت كلماتها تطوف بمسامع ابن القصاد، وبصره يلاحقها وهي تختفي في العتمة.

***

عند الظهيرة ترك ابن القصاد غرفته، وهبط نحو القرية، ودخل المسجد. عندما رأوه أصابهم الاستغراب والحيرة، جلس مبتعداً عن المصلين، وبقي صامتاً، إلى أن أقام الإمام الصلاة فاتخذ له مكاناً وأدى صلاته بمعيتهم. ثمة كلام كثير كان محمد القميحي يود أن يقوله، لولا

وجوده في المسجد، لكنه أجله. هم المصلون بالمغادرة لكن ابن القصاد استوقفهم:

– أتمنى أن تنصتوا لي لبعض الوقت.

راحوا ينظرون بوجوه بعضهم، فهمَّ القميحي بقول شيء ما، لولا أن الإمام سمح له بالحديث، فقال ابن القصاد:

– مذ عدت، وأنتم تعانون ما خلفه الغول من أزمات، فُقد ثلاثة رجال، وامرأة، ويعيش الآخرون خوفهم مما هو قادم في الأفق، وبالتأكيد أنكم اقتنعتم أن لا علاقة لي بما جرى. لكنني مثلكم حزين لحال القرية، جئت هنا لأخبركم أنني سوف أخلصكم من الغول، سأصعد إلى الجبل. إن عدت فليس لي طلب إلا أن أكون ابن هذه القرية كما كنت، وإن لم أعد فلست أفضل ممن أكلهم الغول.

بقي المصلون يلوذون بصمتهم، إلى أن وافقوا على ما قاله، وغادروا مستغربين، بعد أن أخبره الشيخ خضر المحمود، بأنهم ينتظرون ما سيفعله.

في داخله كان ابن القصاد يدرك أن ما من غول في هذه القرية، لكنه أدرك أيضاً أن مخالفة ما صدقوه سوف يعطل ما جاء لأجله. بقي ينتظر ذلك الصوت الذي يأتي من رأس الجبل، إلى أن سمعه بعد يومين من لقائه بأهل القرية، فأسرع متخذاً طريقاً لم ينسها منذ أيام شبابه، أخذته إلى هناك، فراح يتسلل بين شجيرات الشوك والصخور، إلى أن وجد نفسه قريباً من رجل عار، ارتدى جلد ماعز بشعر غزير، ودهن نفسه بطلاء أسود، يصرخ مفتعلاً أصواتاً غريبة، ويتوعد القرية بالموت.

تسلح ابن القصاد بعصا، وهم بالاقتراب من ذلك الرجل لولا أنه غادر هابطاً الجبل، فتبعه حتى عبر إلى القرية متسللاً، ودخل بيت سعدون الغاني، حينها دهش ابن القصاد، ووقع في حيرة من أمره، فأكمل مسيره نحو بيت الغاني.

حينما قرع الباب، فتساءل الغاني عن الطارق بوجل. عرف أن ابن القصاد بالباب ففتحه، رآه ابن القصاد يمسح طلاءً عن وجهه، ورأى جلد الماعز ملقى على الأرض.

– لماذا فعلت ذلك يا سعدون؟

بدا سعدون الغاني منشغلاً بارتباكه، الذي راح يداويه بكأس من العرق، بعد أن جهزه شربه دفعة واحدة، وجلس في كرسي قبالة نافذته، واحتضن رأسه بكفيه، بينما ابن القصاد يقف في منتصف الغرفة، ينتظر جواباً. عاود السؤال مرة أخرى:

– أخبرني، لماذا يا صديقي؟

جاء صوت نشيجه خافتاً، ثم أخذ يعلو شيئاً فشيئاً، كمن ملّ صموده الزائف فانهار مرة واحدة:

– فعلتْ بي هذه القرية يا علي، من الموجع ما يبقى معي أبد الدهر، ليلة أن كانت أمي تقاسي وجعها لنقص الدواء، ما كان أمامي إلا التحول إلى لص حتى لا أسمع أنينها فيقتلني. ما عادت القرى كما كانت يا ابن القصاد، لقد تسللت إليها قسوة المدن. منذ تلك الحادثة صرت لصاً ومنبوذاً من الجميع، عندما أمسكوا بي ثملاً، وجردوني من ملابسي، هل كانوا يعون لماذا ثملت، وعندما لجأت للمختار لأتزوج، سخر مني أمام عدد غفير من الرجال، وكاد والد الفتاة

أن يقتلني لأني تجرأت وطلبت يد ابنته. الذي فعلته يا ابن القصاد، لا يطفئ إلا شيئاً ضئيلاً من النار التي أشعلوها داخلي.

– لكن المختار انتحر بسببك.

– المختار انتحر، لأن دماغه محشو بالخرافات، مثله مثل الآخرين، وأنت تعلم ذلك يا علي، انتحر لأنه يعي أنه ما فعل لهذه القرية شيئاً، إنها قرية منسية تماماً.

جلس ابن القصاد يفكر فيما يمكن أن يفعله، فاختار أن يمارس الغاني حياته من دون أن يكرر فعلته، وسيعتقد الناس مع مرور الوقت، أن علي بن محمود القصاد قد خلص القرية من خطر الغول، فتتعافى.

في اليوم التالي وكان يوم الجمعة، استأذن ابن القصاد الشيخ خضر المحمود، وطلب منه أن يخطب بالناس، بعد أن استحم وارتدى ملابس نظيفة، وفكر فيما سيقوله في تلك الخطبة للمصلين، ولمن يصلهم صوته عبر مكبرات المسجد.

حينما صعد علي بن محمود القصاد المنبر، شاهد محمد القميحي وجماعته حوله، غير راضين عنه كخطيب، لكنه تجاهل الأمر، كما تجاهل استغراب كثير من الناس، واشمئزازهم من شكله.

بدأ خطبته بصوت هادئ، حمد الله فيه على نعَمه، وصلى على نبيه، ثم رفع من حدة صوته قائلاً:

(أيها الإخوة المؤمنون

الخير فيكم، ما دام فيكم العقل والقلب مشعلين ينيران كل دروب الحياة المعتمة. مشعلين، إذا خبت نار أحدهما، من الآخر، على الآخر أن يستعيد مهمته لإنارة الدرب، وما من درب خلا منها الخير، والإيمان،

إلا وكانت معتمة تتعثر فيها الخطى، وتهلك فيها النوايا، ونيتي في هذا اليوم المبارك، أن أسعى معكم لتضاء دروبنا في حياة، كلما ابتعدنا فيها عن العقل والقلب، استحالت إلى ظلمة دامسة.

فبالعقل، عرفنا الله عز وجل، ونحن نتفكر فيما خلق، وفيما سوى، وفيما نهانا عنه، وما أمرنا به، وفي القلب احتضنا نور الإيمان، فأضاء عتمتنا، وصارت طرقاتنا أيسر مما ظننا، واكتشفنا أن مقاصدنا أقرب إلينا مما رأيناها، وما الإنسان غير كهف تملأه الظلمة دونهما.

أيها الإخوة المؤمنون،

حكموا عقولكم تنجوا من الهلاك، فليس كل ما يُسمع صحيحاً، وليس كل ما هو صحيح يسمع، لقد أمركم الله في كتابه العزيز، أن تتفكروا في كل شأن من شؤونكم، أليس المؤمن القوي، أحب إلى الله من المؤمن الضعيف؟ وما القوة شأن للبدن فقط، إنما هي قوة العقل والقلب اللذين إذا ما تغلب أحدهما على الآخر اختل الميزان.

تفكروا قبل أن تطلقوا حكماً على أحد من دون أن تتبينوا الحقيقة، فما من عبد إلا وقيض له الله أمره، إما الهداية، وإما الضلال، وما لنا إلا الدعاء لعباده بالهداية، ونحن لا نعلم من أمر القلوب شيئاً.

ما إن وطئت قدماي أرض هذه القرية، حتى بت أراها تعاني ما قيل عن الغول، فاعتقدتم أنني من أكل الذين ماتوا، وما هي إلا أيام حتى تبينتم عكس ذلك، فأخذتم تعانون خرافة الغول.

أيها الإخوة المؤمنون،

لا يذهب العقل شيء أكثر من تعلقه بالخرافة، وما يفسد القلب شيء أكثر من إيماننا بها. فالقدرات الخارقة ليست إلا شأناً إلهياً، ولم

يكن لها مستقراً في يد آدمي. فدعوكم من أمر الغول فقد انتهى، وتحابوا بلا اعتبار إلا لما في عقل الآدمي وقلبه من نور. ديننا دين يسر، وليس دين عسر، دين تسامح وليس دين بغضاء، دين تفكر لا دين انغلاق.

أيها الإخوة،

ليس من السهل أن يُكفّر آدمي آدمياً. بل لا يحق لأحد أن يكفر أحداً، لأن ليس لأحد قدرة على اجتياز أبواب القلوب ومعرفة ما يدور فيها، فديننا واضح في هذا الشأن، لكن عدم معرفتنا الكافية به، جعلتنا نصدق ما ليس فيه وليس له، حتى صرنا نعتقد أن ما قاله فلان هو الدين الصحيح، تفكروا بأمر القرآن الكريم جيداً، واقرؤوه قراءة واعية، ستجدون أن الله خصكم بدين يحترم الديانات السماوية الأخرى، ويحضكم على الإيمان برسلها وكتبها، تفكروا بآياته التي رفعت من شأن المرأة، ولم تهنها، ولم تمنعها من التعليم، وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة حيال هذا الأمر، تفكروا برأي ديننا بالزنى، وما الحكمة من توافر شروط لإثبات الواقعة، اقرؤوا الآيات التي حضتكم على العمل، لا التكاسل بحيث تصبح الحياة محطة مؤلمة.

أيها الإخوة المؤمنون

ما خلق الله الإنسان إلا ليعبده، فالعمل عبادة، والتسامح عبادة، واحترام بعضكم بعضاً عبادة، والتفكر عبادة، فانبذوا الغلواء في دينكم وحياتكم، وتراحموا؛ فالله رحيم بعباده.

***

شعر المصلون بعد أن غادروا، بارتياح لم يعهدوا له مثيلاً، بقوا يتحدثون بأمره طوال ذلك اليوم، وفي الأيام التي تبعته، وتناقل الناس ما قاله ابن القصاد في خطبته، حتى إن كثيراً منهم رأى في الرجل شيئاً عجيباً، لا يعكسه شكله الغريب، شيئاً له رهبة الأولياء وسطوتهم، حيث إن بشاعة شكله، لم تعد تساوي شيئاً أمام ما لمسوه من جمال يحتويه في داخله.

إلا أن الأمر لم يرق محمد القميحي الذي مكث زمناً يخطب بالناس في ذلك المسجد، فاشتعل غضباً في سره، فقد كان يتململ طوال وقت الخطبة، ويلتفت إلى جماعته الذين اعتادوا الجلوس بقربه، لكنه صمت لما فيه من شعور بالراحة لتلاشي خطر الغول، انسحب على القرية التي عادت إليها الحياة، وأناسها داعين بالخير لعلي بن محمود القصاد؛ إذ أقسمت حنة أن ابن القصاد صاحب كرامات، وأن أهل القرية أخطؤوا بحقه، فتساءلت النساء اللواتي اجتمعن في ذلك الصباح في حوش دارها، وقد وزعت عليهن كؤوس الشاي وفناجين القهوة، عن شكل تلك الكرامات، وهن متلهفات لسماع ما ستقوله حنة.

ارتشفت من كأس الشاي، ونظرت نحو الجبل الذي بدا في ذلك الصباح خالياً إلا من كلبين يطاردان بعضهما، ثم قالت وفي عينيها تلوح ملامح الحكاية:

– عندما سمعت أن ابن القصاد سيصعد الجبل للقضاء على الغول، وقفت بنافذتي حينما تناهى صوت الغول لمسامعي، فرأيته يمشي وحوله هالة من نور، بينما تلف الغول ألسنة نار، وهو يزمجر ويتوعدنا

بالموت، ما إن اقترب ابن القصاد من الغول، حتى رأيت النار تتلاشي أمام النور الذي رق له قلبي، إلى أن بكيت وسحت دموعي بغزارة، فقد غلب النور النار، وما عاد للغول من أثر، كأنه لم يكن، كل ذلك لبركة ابن القصاد، الذي قسونا عليه كل تلك القسوة.

بقيت النساء في حالة صمت، بين مصدقات لما يقال، وبين استغراب يصل لعدم التصديق. إلا أن حنة استفاضت في حديثها عن ابن القصاد:

– عندما رأيت الغول قد تلاشى، خرجت من غرفتي بلا وعي مني، ووجدتني أعترض طريق ابن القصاد، فالتقينا عند مفترق الطرق الذي يقع في طرف القرية الغربي. حينها رأيت هالة نور تصاحبه، ووجدتُني أسقط أرضاً، مصابة بمشاعر لا أقوى على وصفها. لم يفعل ابن القصاد شيئاً، سوى أن أمسك يدي وأشار لي نحو بيتي وأمرني بأن أعود، فتعافيت، بسبب بركته، من هلوساتي؛ إذ رجعتُ حنة بعينها، التي كاد الغول يُذهب عقلَها.

بقيت حنة في ذلك الصباح تتحدث عن ابن القصاد بأسلوبها الذي تعشقه كثير من نساء القرية، إلى أن بكت النساء وبهن شوق عارم، لرؤية صاحب البركات. فانتشرت الأخبار والحكايات عن ابن القصاد، وأخذت الحكاية تلد حكايات أخرى بأبعاد مختلفة، إلى أن صار اسم القصاد لا يذكر، إلا وتتبعه الكلمات التي تمجد بركته.

***

كادت الحكاءة وهي تغادر بعد أن أنهت ذلك الجزء من الحكاية، أن تقول شيئاً في ذلك اليوم، فقد نظرت في وجهي لبرهة من الوقت، وبدت أنها تفكر بشيء ما، لكنها تراجعت. وكدت ألحق بها وأسألها عن عدم اعتراضها على تسللي إلى بيتها، وعن ذلك الشاب الذي ما هو إلا نسخة أخرى مني، وعن سرها، لكني تراجعت، لا لعدم جرأتي، ولا لخوفي من عدم استكمال باقي فصول روايتي عبرها، إنما لإحساس غامض، مرتبط بإحساسي نحوها، وقد صار سراً جديداً، من أسرار حياتي، الذي علي أن أستوضح أمره.

في طريق عودتنا، كان الفتية والفتيات يتحدثون عن غرابة ما روته الحكاءة بإتقان متناه، وبدا على بعضهم أنهم تأثروا بما جاء في الحكاية، فانتشرت على وجوههم ملامح أسى، بددتها إحداهن بنكات خفيفة، فتضاحكو لكن أحد الشباب بقي ينظر إلي وفي فمه سؤال، أطلق سراحه بعد أن سبقنا الجميع بخطوات قليلة:

– أشعر أن ثمة خيطاً خفياً بينك وبين الحكاءة.

– لا أدري ماذا أجيبك، لكنني أحس بما تحس به.

حينما غادر الجميع، وهبطنا الشارع الذي يقسم المدينة إلى قسمين، قالت فتاة قبل أن تغادر إلى بيتها، عبر طريق فرعية، انحنت إلى اليمين من الشارع:

– لاحظت مثله، أن الحكاءة تعني لك شيئاً.

***

بعد أن دونت ما سمعته من الحكاءة، أمسكت بما تبقى من الحاسوب المشوه، ورحت أسائله بغضب عما لمح لي به في المرات السابقة، من أن هنالك أشياء لم أقلها، ثم وضعته على الطاولة ورحت أنتظر الإجابة. كانت الساعة قد شارفت على منتصف الليل، حينما رأيته يتحرك في مكانه، كأنه يصارع ألسنة النار التي شوهت شكله:

– حسناً، سأقول الذي لم تقله عندما كتبت روايتك للمرة الأولى، وسأقول ما لم تقله الحكاءة في جلساتها، وأنت تبدو مسروراً في سرك لعدم معاناتها في قول ما يمكن أن يؤرقك، وكأنك استرحت من هم كبير.

قلت وما أسمعه يثير دهشتي واستغرابي:

– وأنت ما الذي دفعك للصحو هذه المرة بالذات؟ فمنذ أن كتبت عملي الروائي الأول، وأنت تقف لي بباب فمي، كحارس أمن لا يسمح بالعبور إلا لأشخاص معينين، وبمواصفات معينة. كلما كورتُ الكلمة، ورحت ألقيها بحضن الورقة، تصطاد ما لا يروقك منها، برصاصك الذي يجعلها تتلاشى، كأنها لم تكن مبقياً على صداها الذي يقض مضجع البال، كنتَ زئبقياً لدرجة أنني كلما اعتقدت أنني أقصيتك، كالأشباح، تخرج لي في أمكنة أخرى: في الأقلام، في الورق، في لحظة اقتناص الفكرة، في تأملي بها، في صحوي وفي نومي.

رسم ابتسامة ماكرة على وجهه، ثم قال بصوت بدا واثقاً:

– انظر إلي جيداً، تعي لماذا أغدو الآن أكثر جرأة منك، رغم أني أنا أنت، وأنت أنا. النار عندما تلتهم شيئاً ما، تغادر وقد خلفت وراءها روحاً متمردة.

صمت كل منا برهة من الوقت، لكنه بدد ثقل ذلك الصمت:

– أنت تقول إنك حاولت أكثر من مرة أن تقصيني، الإقصاء لمن هم على شاكلتي، لن يجدي نفعاً، كان عليك أن تقتلني يا خاطر، فلا كتابة حقيقية تولد بوجودي.

– كيف أقتلك وأنت جزء مني.

جاء صوته غاضباً:

– لا لست جزءاً منك، خوفك الذي تداريه في أقبيتك الداخلية، هو الذي صنعني، خوفك ذلك الذي تكون على مهل منذ طفولتك، كما تتراكم ذرات الغبار على لوح زجاج، فما يصبح بالإمكان رؤية الأشياء خلاله.

قلت مجتهداً في توضيح موقفي:

– والأشياء التي تتكون على مهل منذ الصغر، وتكبر معنا، تصبح شيئاً منا.

– تصبح شيئاً يعيق أقدامنا، كلما نوت أن تمشي في الدرب الصحيحة، من يناكفك ويمنعك من أن تكون ذاتك، ليس منك.

– يا للغرابة، أنت تشجعني على قتلك.

– لأنك بعد قتلي ستجرؤ على قول ما ترى يا خاطر، أنت ترى جيداً، لكنك تتظاهر بالعمى.

قال ذلك ولاذ بصمته، فرحت أهزه وإذا به أخرسُ لا يقوى على شيء، سوى شكله المشوه، وقد فعلت به النار ما فعلت.

-٥-
صاحب الكرامات

لا شيء يجعلنا أحياء، أكثر من وفائنا لقلوبنا، التي لولاها، لأصبح العالم في أعيننا محض بيت يحترق

لمعة

ذُهلتُ حين رأيت الشاب الذي يمشي قرب الحكاءة، كما لو أنه نسخة عني، أو ربما كنت أنا، ودهشت أكثر حينما راحت ذاكرتي تمنحني إشارات تفيد بأن هذا الحدث رأيته من قبل، في مشهد أرافق فيه أمي نحو بوابة البيت وهي على قيد الحياة. لكنها ليست كالإشارات التي رآها علماء النفس تخص الحاسة السادسة، لقد كانت حالة غريبة، تأكدت منها حين تفحصت مشية الحكاءة، وشكل ولون ملابسها، كدت أهرع نحوها كأنني أهرع نحو أمي، لكنني بقيت جالساً في مكاني أنتظر ما يمكن أن يحدث.

بعد أن رمقتني بنظرة لم أفهم فحواها، غادر الشاب قبل أن يصل مكاننا تحت الشجرة، يحمل حقيبة يستخدمها الصحافيون.

حينما جلست الحكاءة قبالتنا، وجدت أن لوجهها وجه أمي،

فغرقت بتأملها، وفكرت في تلك اللحظة أن أذهب لسلة القش وآخذ هاتفي النقال، وألتقط لها صورة، لتصبح بديلاً عن صورة أمي التي التهمتها النار، لكنني التزمت بشروط جلساتها كما وعدتها.

أخذت موقعها المعتاد، وحدقت بوجوهنا، كأنها تتفحص ملامح الانتظار لما سوف تؤول إليه الحكاية، ثم جاء صوتها حانياً رقيقاً، تماماً كصوت أمي، بل يكاد يكون هو:

{بباب غرفته، والقرية تلوح له ساكنة، كان ابن القصاد يقرأ في دفتر مذكراته، مستعيناً ببقعة ضوء عبرت النافذة، وسقط على جسده الذي كان يتكئ على الجدار:

«بارعة

يصبح الوقت حينما يتملكنا الوجع، ثقيلاً كما لم نتوقع، وكما لا يمكن لأكتاف القلب أن تحمله، ليتك هنا، لألقي برأسي على صدرك، وأبقى أتنهنه بالبكاء، إلى أن أغفو كمن قال كلامه الأخير، وصمت. يمكننا أن نوحي لكل من يرانا بالقوة، إلا من نحبه، فمع الحبيب يصبح الانهيار والتداعي محض محاولة أخيرة للنهوض من جديد.

وصلتني رسالة من فاطمة تنبئني فيها أن أمي قد ماتت، وأن علي العودة إلى الأردن. هل تعلمين يا حبيبتي ما معنى أن تموت الأم؟! إنها الأذن الوسطى للكون، لذلك عندما قرأت كلمات فاطمة وهي تقول «أمي ماتت يا علي» شعرت أنني دائخ أترنح، من دون حيلة لي أن أضبط خطواتي، فقد قرأت الرسالة، وأنا أقف قبالة النافذة، حيث يرفل الحي اللاتيني، بمزاجه الآسر. وهل تعلمين ما معنى أن تموت أمهاتنا ونحن نغيب وبيننا بحار ومحيطات وجبال من المسافات، التي ما هي

إلا حجر يحك عصب الحسرة المدْمَى في قلوبنا، إنها اللحظة المناسبة لكي نرى النسخة الأصلية من الغربة.

بعد أن قرأت الرسالة، وقفت أمام المرآة أراقبني، حينها رأيت صورتي قد خرجت من فضاء المرآة، وأمسكت بيدي فأخذتني نحو مقعدي، قائلة:

– كيف لك أن تعود، والنار ما أبقت من ملامحك شيئاً يدلّ عليك.

ما تبقى لي يا حبيبتي، سوى الكتابة التي أحصد لأجلها صمتي، ثم أكومه في أرض ورق هذا الدفتر، وأنا أؤمن أنك ذات يوم ستقرأينه) .

سمع ابن القصاد، وهو متكئ على جدار غرفته، في ليل القرية الساكن، وقع خطى قادمة نحوه، فأدرك أن من جاءت إليه لمعة، بعد أن سبقها عطرها الذي بات يألفه.

دخلا الغرفة، وتناولا طعام العشاء، ثم ذهبا إلى طرف المنحدر وجلسا هناك، حيث كانت أضواء القرية وراءهما، قد بانت في قماش الليل، كما لم تبين في الأيام التي عانى الناس فيها خوفهم من الغول.

رأت لمعة أن ابن القصاد يلوذ بصمت، لا يشبه صمت الأسى الذي لمسته فيه منذ أن أخذا يلتقيان، كان صمتاً تشوبه السَّكينة، فتساءلت مستغربة مما حدث في القرية في اليومين الأخيرين:

– سكان القرية يتحدثون عن ما فعلته بحق الغول، يا ابن القصاد، ما الذي يحدث؟

لأول مرة منذ عودته، ضحك فتناثر صدى ضحكته بين أكتاف الوديان والمنحدرات:

– لم يتغير شيء على هذه القرية يا لمعة، ما زالت عقولهم كما عهدتها، سأخبرك لكن عليك أن تكتمي السر.

– حسنا يا علي سأفعل.

استدارت نحوه ليصبح وجهها قبالته، حينها أخذ ابن القصاد يحكي لها ما حدث منذ ليلة البستان المهجور، إلى أن اكتشف ما فعله سعدون الغاني.

قالت وكتفها تلامس كتفه:

– عليك أن تحذر من القميحي وجماعته يا علي، فقد أحب الناس خطبتك، وصاروا يتحدثون بأمرها، وأصبح لك مكانة عندهم، بعدما اعتقدوا أنك خلصتهم من الغول.

حرك ابن القصاد رأسه موافقاً على ما قالته، فأكملتْ حديثها:

– بعد أن طلقني محمد القميحي، اختفى من القرية، فعلمت فيما بعد أنه يقاتل السوفييت في أفغانستان، وما إن انتهت الحرب هناك، حتى عاد إلى القرية، وصار حوله جماعة من أهلها، يتنقلون مع بعضهم البعض، ويمضون جل وقتهم معاً، أخذ القميحي حينها يخطب بالناس في صلاة الجمعة، وفي صلاة الجنازة، ويعقد دروساً، وما عاد لشيخ المسجد الذي اعتاد الناس على خُطبه من قبل، مكان إلا في قليل من الأوقات، لكن مواضيع خطب القميحي لم تخرج الحديث عن الحرام، وعن عذاب القبر.

صمتت لمعة لقليل من الوقت، ثم قالت:

– أخاف عليك يا علي، فالقميحي الآن أصبح مختاراً للقرية، ولا ندري ما يمكن أن يأتي من جهته.

بينما كانت لمعة تعود إلى بيتها متخفية، شعرت بأن أحداً يراقبها، لكنها لم تر شيئاً، سوى أنها سمعت جلبة وهي تعبر المنطقة المظلمة والفاصلة بين بيتها وبين غرفة ابن القصاد، الذي نام بعد أن استغرق بكتاب يحكي عن الفلسفة، بينما القرية تلوذ بهدوئها.

***

ألقت شمس الضحى بأشعتها على القرية التي تناثرت في امتداد أرضها الغربية، شجيرات شوك، ونباتات جافة، حيث اتجهت حنّة صوبها ترعى ماعزها التي تعيل أولادها بنتاجها، جنباً إلى جنب، مع ما يجنيه زوجها من راتب قليل، من عمله كحارس في المدينة، يعود منه إلى البيت، مرة كل أسبوع.

إنها إحدى المرات القليلة التي أخذت فيها حنة ترعى ماعزها، على عكس الأيام التي توكل فيها هذه المهمة لأبنائها، وخاصة في ذلك المكان من القرية، الذي تقع فيه غرفة ابن القصاد.

أخذت تقترب شيئاً فشيئاً منه، وفي نفسها رهبة القداسة لذلك الرجل الذي ابتكرت حكايته من قبل، ثم زعمت فيما بعد أنها رأت نوره يصارع نار الغول برأس الجبل. لكن فكرة أن ابن القصاد خلص القرية من خطر الغول الذي كاد يصيبها بالجنون، جعلتها تراه في كل لحظة من لحظات أيامها، حتى إنها باتت تراه في أحلامها وهو يضاجعها، إلى درجة أن أيقظتها ابنتها وهي تصرخ ذات ليلة باللذة في فراشها، فازداد تعلقها به.

عندما خرج ابن القصاد وقرفص عند صنبور الماء قبالة باب الغرفة،

كانت حنة تسند جسدها إلى جذع شجرة سرو، وتحملق بالغرفة وفي جسدها يتصاعد إحساس ملتهب، رأته أبلغ من اللذة التي حظيت بها بحضن سعدون الغاني، والمختار، وعبد الله المسكوب وآخرين، في ليالي القرية الساكنة.

فرغ ابن القصاد من الاغتسال، ودخل الغرفة وأشعل بابور الكاز، فصنع كوباً من القهوة، وخرج حاملاً كرسياً، وجلس أمام الغرفة، وصوت المذياع من الداخل يبث أغنيات فيروز، التي عادة ما تمنحها الإذاعات في الصباح.

عندما رأته جالساً في كرسيه، يستغرق بأفق القرية، وقد التصقت سماؤها بالأرض فبدت زرقاء صافية، لا يشوبها شيء إلا طيور تحلق فيها، مشت نحوه دون أن يحس بها، تكابد رهبة تتملكها، إلا أنها تمالكت نفسها، وألقت التحية بصوت خفيض:

- صباح الخير.

استغرب ابن القصاد وجودها، وكيف وصلت إلى مكانه من دون أن يحس بها:

- صباح النور.

بدت متلعثمة، وهي تشرح سبب مجيئها، إلا أن ابن القصاد احضر لها كرسياً فجلست:

- في الحقيقة عطشت، وجئت أطلب الماء.

كانت يداها ترتعشان، والكوب قرب شفتيها المكتنزتين، فاندلق قليل من الماء على صدرها الوافر وهو يكاد يشق ثوبها الذي لم يبد لابن القصاد، أنه ثوب راعية للماعز.

– اهدئي يا حنة، أعـرف أن شكلي يصـيب من يراه بالخـوف، لكنني لست شخصاً مؤذياً.

ما إن سمعته ينطق باسمها، حتى جفلت:

– أنت تعرفني؟

– طبـعاً يا حنة، أعـرفك وأعـرف كل عـائلتك، ألم تقتنعي للآن أنني علي بن محمود القصاد؟

قالت وفي عـينيـها ابتسـامة تشي بدهشة الأنثى حينما تؤخذ بالرجل:

– أعلم أنك ابن القصاد، يا صاحب الكرامات.

ضحك بسره، حين سمع منها تلك الكلمات، لكنه لم يبذل أي جهد لثنيها عن مثل تلك الفكرة.

– سأحضر كوباً وأسكب لك القهوة.

في تلك اللحظات وقعت حنة صريعة للحمى الليلية، التي أخذت تصيبها مؤخراً، لرغبتها بابن القصاد، ففكرت بأن تلحق به إلى الغرفة، لكن ماعزها تبعتها فنهضت تهشها. عاد ابن القصاد وقدم لها كوب القهوة، فلمس يدها مصادفة، حينها جلست في مكانها، غير قادرة على مقاومة ما بات يستفحل بجسدها من رغبة آسرة، بينما كان ابن القصاد يربت على ظهر عنز قريبة منه:

– كانت القرية قبل أن أغادرها، تعج بالماعز والشياه والأبقار، وحقول الشعير، الآن أراها مقفرة.

قالت حنة تغالب صهيل جسدها:

– يقول القميحي إن سبب ما تتعرض له القرية، هو ابتعاد الناس عن دينهم.

قالت ذلك، وغادرت هاربة لفرط ما يشتعل في جسدها من رغبة حارقة.

بعد أيام شاع نبأ في القرية، مفاده أن ابن القصاد مسح على رؤوس الماعز العاقر التي تعود لحنة، فعاشرهن التيس، وحبلن بعد أن قطعت حنة الأمل بمواليد جديدة، فأصبح الناس ينادونه بالقصاد المبروك، تلك الفكرة التي اتسعت حينما قصدت امرأة عاقر بيته، على حد نصيحة حنة، حينما زعمت أن لقاءات لها بابن القصاد تجري سراً، فقصت تلك المرأة، من دون أن يدري، من قميص نشره على غصن شجرة أمام غرفته، وبقيت ملتزمة بنصيحة حنة، بأن تغطي فرجها بتلك القطعة القماشية، بعد كل مضاجعة مع زوجها، إلى أن حبلت، بعد سنين من انتظار المولود.

تفاجأ ابن القصاد وتلك المرأة تحمل له الهدايا، وتقبل يده وتغادر، داعية له بطول العمر. أخبره سعدون الغاني بما يدور على ألسنة الناس، وبكونه صار رجلاً مبروكاً بنظر أهل القرية، فأخذ يفكر كيف يخلصها من ذلك الوهم. لكنه لم يمانع من زيارة رجل مريض توسل أهله أن يزوره.

كان الرجل ممدداً في فراشه، مستسلماً لدوار ألم به منذ شهر، بدا وجهه شاحباً، لخوفه من أن مرضاً خطيراً أصابه. قالت زوجة الرجل المريض لابن القصاد وفي عينها توسل ورجاء:

– أخذته للطبيب في المدينة ووصف له دواء، لكنه لم يعتد تعاطي

الأدوية، لذا ابتلع قليلاً من تلك الحبوب، وما شفي، فكَرِه الدواء الذي لم يشفه.

قرأ ابن القصاد الورقة المرفقة بالدواء، فوجده مضاداً حيوياً يعالج التهاب الأذن الوسطى، الذي عادة ما يسبب مثل ذلك الدوار، أخذ الدواء معه وغادر، وصار كل يوم يذيب الدواء في زجاجة صغيرة، خلط بها قليلاً من السكر، وعشبة عطرية، وأخذ يأتي لزيارة الرجل المريض ثلاث مرات في اليوم، إلى أن تعافى تماماً من دواره. فنحر ذلك الرجل شاة من شياهه القليلة، امتناناً لبركة ابن القصاد، الذي لم يكن راضياً عما يشاع عنه، إنما راح يفكر كيف ينهي تلك الفكرة التي أخذت تنتشر في القرية، وفي القرى الأخرى المجاورة.

***

خلا الشارع إلا من محمد القميحي وعبد الله المسكوب، في تلك الساعة من الليل، وأصوات خطواتهما تتقاطع بثغاء ماعز يأتي من البعيد. بدا الانزعاج واضحاً على القميحي، وهو يعود بصحبة عبد الله المسكوب من صلاة العشاء، واتضح أنه يفكر بأمر ما، وهو يُلحق خرز سبحته، ببعضه البعض.

قال غاضباً – بعد أن استفسر المسكوب عن سبب انزعاجه:

– أصيبت القرية بلوثة هذا الرجل المشعوذ الكافر يا عبد الله، هل تعتقد أنني اقتنعت بخطبته في ذلك اليوم. إنها خطبة لرجل علماني كافر، ما كان يمكن لها أن تكون، لو لم يسمح له بها خضر المحمود، ولم

تصدقوني عندما قلت لكم إنه تنصر، سلمتم بحكاية لمعة، حين زعمت أن ذلك الوشم أثر سقطة في الصغر.

قال المسكوب، وهو يمتن في دواخله لابن القصاد، الذي خلص القرية من خطر الغول:

– لكن ابن القصاد حض في خطبته على كل ما هو خير ونقي في هذه الحياة، فكيف تراه كافراً؟

– أنتم لا تقرؤون ما وراء الكلمات، فقد أعجبكم عسل كلماته، هذا الرجل أصابته أوروبا بعدوى العلمانية الكافرة، التي تبيح الاختلاط، والتبرج والاعتراف بكل الأديان، وتجعل من العبادات شأناً شخصياً.

قال ذلك بنبرة عاتبة، ثم توقفا عند مفترق طرق في منتصف القرية، حيث جاء صوت امرأة تنادي أولادها الذين امتنعوا عن دخول البيت منشغلين باللعب، فهددتهم بالغول، بينما راح الصغار يغنون بمناكفة، يرددون كلمات تشير إلى أن المبروك قتل الغول، وخلص القرية من شره، فصار بإمكان الأطفال اللعب، متى شاؤوا.

أكمل القميحي حديثه، وهو يبذل جهد من يحشد لأمر ما:

– ألا ترى يا عبد الله أن الناس شارفت على أن تعبد ابن القصاد؟

– لاحظت ذلك، وعرفت أيضاً أن ابن القصاد غير راض عما يحدث، فقد أقفل بابه بوجه كل من أتوا يتبركون به.

قال القميحي وهو يشد على كتف المسكوب:

– لا تراوغ، فالحلال بيّن، والحرام بيّن.

صمت القميحي لبرهة، والصغار ما زالوا يغنون للمبروك، إذ قال مخفضاً صوته:

– ثم إن هنالك أمراً آخر، حينما نتأكد منه سأخبرك.

شعر المسكوب أنه هادن القميحي، الذي أخذ يفرض سلطته في القرية بشكل أكبر من ذي قبل، وفكر بأمر ابن القصاد، فوجد نفسه محتاراً بحقيقته.

جاءت جماعة القميحي في ذلك المساء، إلا خضر المحمود، وأقفلوا الباب عليهم، وأخفضوا من أصواتهم أثناء الحديث، فقال القميحي يوجه كلامه لأحدهم:

– هل تحققت من أمر لمعة؟

قال الرجل:

– نعم رأيتها تعود من غرفة ابن القصاد بعد منتصف الليل.

أتى صوت القميحي حاداً، وتبدلت نبرة صوته، يوجه حديثه هذه المرة لكل من اجتمعوا به:

– عرفنا أن لمعة تزور الكافر المشعوذ كل ليلة في غرفته، وأنتم تعلمون ما يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة اجتمعا، ولا ثالث لهما إلا الشيطان.

استعاذ الجميع بالله واستغفروه، ثم صمتوا ليكمل القميحي حديثه:

– تبين لي أن ابن القصاد علماني، واتضح لي هذا من خطبته، التي ندمت على أنني لم أمنعها، وها أنتم ترون وتسمعون كيف عبث هذا الكافر بعقول الناس الذين لا يذكرون اسمه، إلا ويمجدون بركته المزعومة.

صمت القميحي وبدا أنه سيقول أمراً مهما:

– التقيت بأحد الإخوة، فأخبرني أن هذا الكافر قاد حملة ضد الإسلام، عبر موقعه كأستاذ في جامعة فرنسية، فنشر كثيراً من المقالات والكتب التي على إثرها تم تنفيذ عملية تصفية بحقه، لكنه نجا منها، علينا أن نثأر منه.

تساءل أحدهم:

– وكيف لنا ذلك يا شيخ؟

– سنبدأ بالحديث على مراحل مع جزء من سكان القرية، حول مخالفة هذا الرجل للعادات والتقاليد، التي لا تبيح علاقة لمعة به. أما الجزء الآخر فسوف نحدثهم عن وشم الصليب الذي رأوه في ظهره، فنبين لهم خطورة الردة وعقوبتها.

قال رجل يجلس قريباً من القميحي:

– لكن أهل القرية باتوا يقدسونه.

– سنبذل جهداً على مراحل لتغيير هذه الفكرة، كل واحد منكم سأوجهه إلى من سيتحدث.

تساءل رجل آخر:

– وبعد كل ذلك ماذا سنفعل؟

أجاب القميحي وهو ينهي الجلسة:

– سأخبركم عن الخطوة الأخيرة في حينه.

***

استمر ابن القصاد برفض تلك الزيارات التي بات الناس يقومون بها لغرفته، وعارضها. فشكا للمعة، شاعراً بالأسى مما بات يستشري بالقرية، وهما يجلسان ذات ليلة عند المنحدر:

– هل درست الفلسفة، لأتحول في أذهان الناس إلى رجل مشعوذ يا لمعة؟!

– لا ذنب لك في ذلك يا علي، هذه القرية اعتادت الأوهام.

بدا الكدر واضحاً في حديث ابن القصاد وفي مزاجه، في تلك الساعة من ليل القرية، وهما كما اعتادا مؤخراً، يمضيان وقتهما بطرف المنحدر.

– عليك أن تترك هذه الغرفة يا علي.

قالت لمعة، وهي تلتفت إلى الوراء، حيث بدا لها ضوء الغرفة، شاحباً يثير الكآبة.

كان ابن القصاد، مضطجعاً على التراب، يراقب السماء، التي خلت إلا من نجم بعيد باهت:

– ليس لي مكان غير هذه الغرفة يا لمعة. أنفقت كل ما ادخرته في فرنسا، لأسترد ملامحي، بعد محاولة اغتيالي، وما تبقى لي، لم يكفني سوى شهور قليلة في عمان، وهنا في هذه القرية ما عاد لي سوى أن أراقب البيت الذي ولدت فيه عبر نافذة هذه الغرفة.

خيم صمت ثقيل على المكان، إذ كانت لمعة منشغلة بالتفكير بأمر ما:

– عندي حل أتمنى أن تقبل به.

– إن كان منطقياً، سأقبل.

ترددت لمعة في بداية حديثها، لكنها شرعت بالحديث، وهي ترى ابن القصاد ينتظر ما ستقوله:

– كل الناس في هذه القرية يهابون البستان المهجور، خوفاً من

خرافة سالم الأسمر وحميدة الشقرا، فقد عرضه صاحبه، منذ أعوام للبيع بأبخس الأثمان، لكن ما من أحد التفت له. ما رأيك لو تستقر به، بعد أن تبني لك فيه بيتاً، وتعيد زراعة الأشجار فيه، وزراعة بعض المحاصيل، مستعيناً بالبئر التي فيه.

ضحك ابن القصاد:

– ومن أين لي ثمن إنجاز ذلك كله؟

– أنا من سيمنحك المال، قلت لك إن ذلك لن يكلف كثيراً، فقد ادخرت مبلغاً، سنشتري بجزء منه البستان، ونبني لك بيتاً متواضعاً بالجزء الباقي.

– لا يا لمعة.

– ولم لا يا علي؟

– حينما رأيت وجهي وجسدي في المرآة لأول مرة بعد الحادثة؛ بقيت طوال الليل أفكر بحياتي لاحقاً، فوجدتها بلا جدوى، حينها قررت الانتحار، لكني أدركت فيما بعد أن انتحاري سيكون انتصاراً لتلك الأيادي، التي قررت إنهاء حياتي، لذلك قررت أن أعيش بما يمكنني، لهذا لن أستولي على مال غيري، يا لمعة.

لأول مرة يرى ابن القصاد لمعة تبكي منذ أن التقيا، بدا بكاؤها صامتاً، ثم ما لبث أن استشاط، وأخذت تتنهنه، كأن صمودها أمام ما يفعل بها حبها لابن القصاد، قد انهار للتو. أخذ ابن القصاد يربت على كتفها، ويحاول أن يخفف عنها، وهو يتلعثم بكلماته، فصمتت عن بكائها:

– حينما كنا نمتطي المكانس، ونحلم بالبلدان البعيدة يا علي، كنا

شيئاً واحداً. لم يخطر ببالي في تلك الأيام وما بعدها، أن قلبك سيكون لامرأة أخرى، ولم يخطر ببالي أنني سأستمر بحبك كل هذا الزمن، كاد القميحي أن يقبل قدميّ، عندما كان يركض ورائي في البيت، ليلة أن زوجوني به رغماً عني، لم أستطع أن أخدعه وأخدع نفسي، فصورتك كانت وما زالت تطل عليّ حتى من كأس الماء الذي أشربه، أعرف أن ليس لك ذنب بما حدث، فأمر القلوب ليس بأيدينا. لذلك أرجو أن لا يخطر ببالك أنني أقف بجانبك، سعياً لغرض ما في نفسي، إنما وفاء مني لك.

بقي ابن القصاد لبرهة من الوقت ينظر في وجهها كأنه لم يقتنع أنها أنهت حديثها، ثم قال وفي صوته نبرة فرح، لم تلمسها لمعة، منذ عودته للقرية:

– أقبل ما اقترحتيه يا لمعه بشرط واحد.

تساءلت بصوت خافت، ومترقب:

– ما هو؟

احتضن رأسها بكفيه، واقترب من وجهها:

– بشرط أن تقبليني زوجاً.

بقيت ساهمة به، تفكر بأمر ما قاله، ثم قالت بصوت مرتجف:

– هل أستحق هذه الدرجة من الشفقة يا علي؟

– ومن أحق بالشفقة يا لمعة، أنا الرجل المشوه الذي أكلت منه النار كل ملامحه، بحيث استحال إلى مشوه يُفزع حتى الحجارة؟ أم أنت، المرأة الجميلة التي على إثر كل خطوة من خطواتها ينبت العشب؟

احتضنت بدورها رأسه بين كفيها فأحس بدفئهما:

– لا تقل هذا، ما زلت في نظري، ذلك الجميل الذي حينما سقط من أعلى الجرف، أخذ يهذي باسمي وهو يئن إثر الألم، وأنا ما زلت تلك البنت، التي بقيت لأيام تغفو قربك إلى أن تعافيتَ.

كان الليل في تلك اللحظة قد هدهد كتف كل الأصوات، وأطلق طيور السكون من أقفاصها، فمنحت المكان قداسة قطرة الماء، حينما تهبط على فم مصاب بالعطش، اقتربا أكثر، فالتقت الشفتان، وتعانقا أكثر مما يمكن للحظة آسرة مثل تلك أن تغدق عطاياها على امرأة شذبت عصا الوقت بسكين الصبر على حب كان يسري بها مسرى الدم في الوريد، وعلى رجل طاردته النار منذ أول فكرة له عن الحب في هذه الحياة، التي لا يمكن لأحد فيها أن يفرق بين لسان نار يأكل حتى الحجارة، وبين لسان نار يأكل القلوب فقط، إلا عاشق للحياة ذاتها.

***

اشترت لمعة البستان المهجور سراً عن أمها وأخيها، وأمضى البنّاء والعمّال فيه شهراً، أقاموا بيتا صغيراً، فيه غرفة تطل شرفتها على الطرف الغربي من البستان، ليعتزل فيها ابن القصاد ساعات من كل يوم، فيعاود نشاطه في القراءة والكتابة، فقد رأت لمعة أنه من غير المعقول أن تذهب كل سنين دراسته سدى، وكل تلك المكانة العلمية التي حققها في فرنسا، وفي الأوساط العالمية، فبإمكانه معاودة نشاطه ومراسلة الصحف، والمجلات للكتابة.

في تلك الأيام، بقيت لمعة تلتقي بابن القصاد ليلاً، بعد أن جاء سعدون الغاني وساعده في الانتقال للبيت الجديد، تتجنب ما يمكن أن

يقال بحقها، إن اكتُشف أمرها، في قرية تكبر فيها الحكايات، وتسلك طرقاً لا يمكن العودة عنها، تماماً كما حدث قديماً لسالم الأسمر وحميدة الشقرا، تلك الحكاية التي تذكرتها وهي تعبر الوادي وتصعد منحدراً، اقتادها إلى البستان الذي اشترته بثمن بخس، لما أشيع عنه من حكايات ترتبط بشبحي سالم وحميدة.

كان ابن القصاد منهمكاً باستكمال ترتيب بيته الجديد، حينما أتت لمعة، دون أن تحس بأن أحد رجال القميحي ظل يتبعها، إلى أن دخلت البيت. بدا البستان محاطاً بالصمت، إلا من صوت حفيف أغصان الأشجار وأوراقها، ونسمة الهواء الليلية تتخللها، مخلفة وراءها نغماً موحشاً.

– أخاف عليك يا لمعة، وأنت تعبرين هذه المسافة بين بيتك والبستان.

قال ابن القصاد، بعد أن اغتسل وجلس إلى طاولة وضعت لمعة عليها أطباق الطعام الذي أعدته للتو. طوقت عنقه بيديها، وهمست:

– أتعرف ما معنى أن تحس امرأة بأن هنالك من يخاف عليها؟

– ما معنى ذلك؟

– ثمة شيء في تكوينها ينمو فيعفيها من كل ذلك التأرجح الذي تحس به كل امرأة لا رجل في حياتها، خاصة عندما تذهب إلى سريرها وحيدة.

جلست قبالته في كرسيها:

– وهل تعرف ما معنى أن تحس امرأة مثلي، أن رجلاً مثلك يحتويها بقلبه؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع، دون أن تنتظر الإجابة:

– الدفء، الدفء يا حبيبي، ذلك الذي لا قدرة لكل مدافىء الأرض على أن تصنعه.

بعد أن فرغا من تناول طعام العشاء، جلسا في فسحة قبالة البيت، يرسلان بصرهما في سكون بدا لهما لذيذاً، بعد أن توارت الريح وراء الجبال. كان ابن القصاد صامتاً يفكر بأمر قرار الزواج بلمعة، محتاراً بمدى صحة ما فعله. فبارعة ما تزال تسكن قلبه، ولا يتوقف عن التفكير بها، ولمعة ساندته منذ عودته للقرية، بل حتى دفعت كل ما تملك من مال ورثته عن أبيها لأجله.

قالت لمعة، بعد أن أحست أن صمت ابن القصاد قد تجاوز حدود التأمل:

– ما بك يا حبيبي؟

تظاهر بانشغاله بأمر آخر:

– هذا البستان بحاجة لجهد كبير ليجدي نفعاً.

أدركتْ أنه لا يقول الحقيقة، حين رأته يداري ارتباكه بحركات لا إرادية بيديه. قالت في سرها وهو يستفيض في الحديث عن البستان، إن العاشق تفضحه عيناه، مهما حاول أن يداري ما يحدث في قلبه.

حاولت أن تقصي ما هاجمها من أفكار، فقالت، تداري ما ألم بها:

– لا عليك، فقد اتفقت مع عدد من العمال ليرمموا البستان، ويتخلصوا من الأشجار اليابسة التي سنستخدمها حطباً في الشتاء، ونزرع بدلاً منها أشجاراً مثمرة من تلك الأنواع التي لا تحتاج إلا لمياه

الأمطار، سنربي طيوراً، وأرانب، ونحلاً وماعزاً، كل تلك الأشياء سوف تدر دخلاً جيداً.

صمتت لقليل من الوقت ثم أضافت، تكابد تلك الهواجس:

– طالما نصحت بعض سكان القرية أن يخرجوا عن كسلهم، ويصنعوا حياتهم بمثل ما سوف نقوم به هنا، فالسماء لن تمطر ذهباً، ربما أدركتُ هذه الحقيقة، بعد أن أيقنت أن المكانس التي كنا نحلم أن تأخذنا لتلك البلدان الخضراء، ما هي إلا أحلام، رغم ما تبقى لنا من لذتها الآسرة.

سرّحت بصرها في فناء الليل الذي لم يخالطه صوت سوى حديثها، حيث سكنت الريح، وغفت أوراق الشجر:

– قلت ذات مرة للقميحي، وكنت حينها ما أزال زوجة له، لماذا لا تلقون خطباً في المساجد التي تسيطرون عليها، تستنهضون فيها الناس على أن يرمموا حياتهم بما أمكنهم من زراعة وتربية ماشية، ووسائل تعينهم على العيش، أليس هذا جهاداً؟ لكنني أدركت في ذلك اليوم أن لا مهمة للقميحي وأعوانه، إلا أن يستمروا بالحديث عن عذاب القبر، وعن مخاطر اختلاط النساء بالرجال.

كان ابن القصاد، ما يزال ينظر نحو الشجر الذي اختفت معالمه في العتمة، حينما أمسكت لمعة بيده:

– ما بك يا علي؟

– لا شيء، فقط أشعر بقليل من التعب.

– هل أتركك الآن لتنام؟

أرخى رأسه لحجرها:

- ابقي قليلاً.

تسلل الصمت من كل أطراف البستان أكثر من ذي قبل، متحالفاً مع الليل الذي أضفى وحشته المعتادة عليهما، وكل واحد منهما يستسلم لهواجسه. أدركت لمعة أن قلب ابن القصاد طائر بجناحين يرفرف في سماء بارعة، وأن الذي حدث عند المنحدر، ما هو إلا طفرة قلب، ما ظهرت إلا لتختفي، تأكدت منها حينما سمعته يهذي باسم بارعة، وينادي عليها وهو يغفو في حجرها، فأبقت عليه غافياً إلى أن شقت الشمس رداء الليل، وأطلت من وراء الجبال الشرقية، تكتب أولى كلماتها في صفحة نهار جديد.

***

بعد مضي شهر، انتهى العمل في البستان، فدهش كل من رآه، فقد كان مهجوراً لا تطؤه قدم ولا يطلق فيه صوت، سوى صوت الثعالب، حين وجدته ملجأ لها، فقد أصبح محطة، يتوقف عندها كل من دخل القرية، أو غادرها، يتمعنون به، كيف انتقل من حال إلى حال؛ إذ زرعت الأشجار، وأزيلت الحجارة والأشواك، والحشائش الضارة، وأقيمت قنوات، تنقل مياه الأمطار إلى البئر العميقة، التي تفرعت منها خراطيم مربوطة إلى موتور كهربائي، توزع المياه على جذوع الأشجار.

بدا بيت ابن القصاد الجديد، وهو يرتقي أعلى منطقة من البستان، وقد أخذ مساحة من الجبل، كما لو أنه منارة تدل عابري الطريق إن تاهوا، رغم بساطة بنائه، وصغر حجمه، فما إن اكتمل بناؤه حتى أطلق الناس عليه اسم بيت المبروك، مستندين إلى ما بقيت القرية تتناقله من

حكايات، راح كل واحد يرويها بأسلوبه الخاص.

ما عادت المنطقة مشؤومة لسكان القرية، فقد رأوا أن وجود المبروك فيها، سيطرد شبحي سالم الأسمر وحميدة الشقرا، اللذين لم يحدث أن رآهما أحد من قبل. لكن الأمر لم يجرِ كما استقر في أذهان الناس، فقد انقسم جماعة القميحي إلى قسمين، كل يأخذ مهمته سراً في تأليب الناس على ابن القصاد. أخذ القميحي لنفسه، دور إقناع عدد من سكان القرية بأن ابن القصاد قد ارتد عن دينه، ودليله ليس فقط الوشم الذي شوهد على ظهر ابن القصاد، إنما روى لهم كيف أن أحد رجاله قد شاهده ذات يوم يقرأ الإنجيل في غرفته ليلاً، دون أن يعلم ذلك الرجل الحقيقة.

اختار القميحي عدداً من سكان القرية، رأى أن لديهم قابلية للتجاوب مع ما يقوله، وراح يستغل أكثر من مناسبة، يحدث فيها كل من التقاهم عن العلمانية، وكيف أنها حركة بدأت تعمل منذ القدم على ترويج أفكارها عن طريق تشجيع المرأة على التعليم، ليحدث الاختلاط، وعلى الحريات العامة، وقبول أصحاب الديانات الأخرى، والديمقراطية، التي يراها بدعة لا أصل لها. وبقي القميحي على مراحل، يبين لهم كيف أن ابن القصاد قد ارتد عن دينه، وصار مسيحياً علمانياً، وأن وجوده في القرية سوف يهدد مستقبلها، ويحرف الناس عن مسار حياتهم السليم. حتى إنه استفزهم وهو يسألهم عن سبب تعرضه للحريق، قائلاً بأن ما حدث لابن القصاد، ليس عرضياً، إنما عقاباً إلهياً له على كفره.

أخذت صورة ابن القصاد تعتم في أذهان البعض شيئاً فشيئاً،

خاصة عندما أخذ القسم الآخر من جماعة القميحي مهمة إيصال حكاية لمعة وابن القصاد، للناس الذين لم يحتاجوا لكثير من الجهد ليتصورا كيف أن ابن القصاد ضاجع لمعة بطرف المنحدر، وبأنها تزوره كل ليلة متخفية، وتمكث في بيته الجديد حتى طلوع الفجر، ثم تغادر.

لكن محاولات القميحي لم تجد نفعاً مع كل سكان القرية، فقد رأى عدد من الرجال والنساء -منهن حنة وعلى رأسهم خضر المحمود- أن المبروك رجل مؤمن لم يؤذ أحداً، وخطبته التي تناقل الناس نصها وفحواها، دليل على إيمان وبركة خلصت القرية من الهلاك، وحلت على القرية. لكن عدد تلك الجماعة قليل، مقابل ما حشده القميحي ضد ابن القصاد.

جرى كل ذلك من غير علم لمعة وابن القصاد وسعدون الغاني. فقد غاب سعدون الغاني لأيام، انشغل فيها بإصلاح أعطال فنية في سيارته، واتفقت لمعة أن تغيب عنه لأيام، خوف افتضاح أمرها، رغم أنها لا تلتقي بأحد أثناء النهار، ولا تخرج من بيتها إلى البستان إلا ليلاً.

لكن الأمر مختلف عما اعتقده ابن القصاد، الذي لم يعلم بالضبط أين اختفت لمعة، حيث طلبت من سعدون الغاني أن يقلها بسيارته إلى المدينة. ولم يربط ابن القصاد بين غيابها وغياب ابن الغاني الذي استغرب زيارة لمعة للمدينة، وهما يخلفان القرية وراءهما:

- هل أنت مريضة، وتنوين زيارة الطبيب؟

- لا يا سعدون، لست مريضة، إنما ذاهبة إلى بارعة.

قالت ذلك، وسرحت بصرها بالطريق التي تركض نحو المدينة، حيث بدت لها كآهةٍ لا تنتهي.

***

ما إن سأل سعدون الغاني رجلاً مسناً يملك متجراً للحبوب في وسط السوق القديم، عن بيت عاهد المشاي، حتى ترحم عليه الرجل، ودلهما على الطريق إلى بيته، قائلاً:

– لكن لم يبق من عائلة المشاي، سوى ابنته بارعة وولدها يا بني.

شكره سعدون الغاني، ثم غادر.

في حيّ هادئ أثثته بيوت قديمة شيدت من الحجر، وأزقة مرصوفة بحجارة قديمة أحاطتها أسوار، تسلقتها نباتات زينة وأغصان أشجار مثمرة، وقفت لمعة قبالة بيت بارعة، الذي نمت أمامه شجرة توت معمرة، ارتفعت حتى وصلت أطرافها شرفة البيت، الذي هو الآخر شيد من الحجر القديم.

عبرت البوابة الخارجية فأفضت بها إلى حديقة نمت فيها ورود وأشجار زينة، بدت مهملة لم يعتن بها أحد منذ سنين. عند باب البيت الذي أدت إليه بضع درجات تصعد بشكل متعرج، وقفت لمعة تكابد إحساساً غامضاً يداهمها، وفي بالها كلمات ابن القصاد، وهو يهذي بحب بارعة، بينما تلوح في ذاكرتها أيام كانت ترافقه فيها، وهما يمتطيان المكانس، ويوغلان بحلمهما في البلدان البعيدة.

ثمة صوت جاءها من دواخلها (الحب هو أن تفعل ما بوسعك، لتثبت كم كنت وفيا لقلبك).

قرعت الباب، ليتناهى إلى مسمعها من الداخل وقع أقدام ما إن

اقترب، حتى أشرِع الباب فأطلت امرأة بوجه طفولي، خالطته ملامح أسى خفي.

– بارعة؟

قالت لمعة بصوت قاومت فيه رجفة طفت على سطحه.

حدقت المرأة ملياً بوجه لمعة، فلم تعرفها.

– نعم. من أنت؟

– ضيفة، هل تسمحين لي بالدخول؟

ثمة شاب كان يجلس في الصوفة، غادر عندما جلست لمعة في مقعد يقابل شرفة أطلت على الحي.

– هذا ابني الوحيد.

قالت بارعة، ثم راحت إلى الداخل تحضر القهوة، أخذت لمعة تنظر إلى البيت، الذي رأته قديماً، علقت على جدرانه أسلحة، ورؤوس غزلان وضباع، بدا أن أحداً ما قد اصطادها.

على طاولة قرب المقعد ثمة كتاب، ثنيت في منتصفه صفحة، أخذته، وقرأت العنوان (ذهب مع الريح)، ثم فتحت الكتاب عند صفحة مثنية، وأخذت تقرأ عبارات، سار أسفلها خط متعرج.

وهي تعود من الداخل، بدت بارعة تداري انزعاجاً توارى سريعاً من تطفل لمعة، التي اعتذرت مدركة خطأها:

– اعذريني، إنه فضول من أدمنت قراءة الروايات.

– لا بأس يا عزيزتي، أقدر ذلك.

قالت لمعة تغزل خيطاً أول لحديث طويل ومفاجئ:

– ألم تقرئي هذه الرواية، إلا الآن؟

ارتشفت بارعة من فنجان قهوتها، وأخرجت علبة تبغ، وأخذت تلف سيجارة، ما إن أشعلتها حتى انتشر عبق تبغها، ذي النوع الخاص:

– هنالك روايات نقرأها عدة مرات في حياتنا، القراءة الأولى تكون بالعادة قراءة لأجل الرواية ذاتها، أما القراءة اللاحقة، فهي لأجلنا يا عزيزتي.

عدلت لمعة من جلستها، بحيث أدركت بارعة أن بإمكانها قول المزيد، فأضافت:

– نحب بعض الروايات لأننا نجد فيها مساحة تركها لنا المؤلف، لنصنع حكاياتنا الخاصة، لذلك تغدو العودة لرواية ما، ضرباً من الحفاظ على الذاكرة، بل حتى تشذيباً لأغصان أشجارها، وسقايتها، لتبقى خضراء.

سحبت بارعة نفساً عميقاً من سيجارتها، فبدا كسحابة، وهو يعبر دفقة من شمس الصباح، حين مرت عبر الشرفة ثم انبطحت على أرض الصالة، حيث مرّ قط وتمطى قرب كرسي تجلس فيه بارعة، وراح يحرك بذيله محدقاً بها.

ركنت لشرود مفاجئ، غادرته سريعاً:

– الروايات ذاكرة تتجدد، مع كل قراءة جديدة.

أخذت لمعة تتبع أثر ابن القصاد في وجه بارعة، وفي طريقتها في الحديث عن الروايات، وهي تستعيد تفاصيل حكاية ابن القصاد. تنبهت إلى أنها لم تعرف عن نفسها، ولم تخبرها عن الزيارة، خاصة عندما رأت بارعة ترمقها بنظرة متفحصة لم تدم طويلاً.

– لم أعرفك بنفسي للآن.

قالت بارعة، وفضولها يغلب على كلماتها المجاملة:

– لا بأس، الضيف لا يسأل عن هويته، وغرضه من الزيارة، وحده من يفصح عن ذلك.

– اسمي لمعة.

قالت ومضت تكمل حديثها محتارة من أين تبدأ:

– بقدر ما تكشف لنا الحياة عن بعض الأحداث، تداري عنا تفاصيل أحداث كثيرة، لكن ثمة أيام تأتي حاملة معها مصابيح مهمتها أن تلقي الضوء على ما غفلنا عنه، واعتقدنا أنه توارى إلى ما لا نهاية.

أخذت عينا بارعة تضيقان وتتسعان، تحاول أن تعرف ما وراء هذه المرأة. شربت لمعة ما تبقى من فنجان قهوتها، ثم راحت تكمل ما شرحت بقولها، وثمة أسى راح هو الآخر يلوح بصوتها:

– أكثر ما يخاف الإنسان الإقدام عليه، هو أن تخبر أحداً بشيء، لم يتوقع حدوثه من ذي قبل.

أخذ الامتعاض الذي خالطه القلق ينتشر على وجه بارعة، فغادرها هدوؤها:

– أكملي أرجوك.

– لقد عرفت بحكايتك من شخص أحاط بكثير من تفاصيلها.

– حكايتي؟

– نعم حكايتك مع علي بن محمود القصاد.

اكتسب وجه بارعة ذلك اللون الزهري، الذي عادة ما يصيب من نهضت الذكريات من ذاكرته مرة واحدة. لم تقل شيئا، بل بقيت تنتظر

أن تكمل لمعة ما نوت قوله، لكن لمعة تلكأت قليلاً كأنها ضيعت دفة الحديث:

– أكملي يا لمعة.

– أنتمي للقرية التي ولد فيها علي، وعاش عدداً من السنوات.

قالت ذلك ثم صمتت، تقرأ ما رسم على وجه بارعة من أمارات فضول، وترقب شديد، ثم نهضت من مكانها، وجلست قريباً من بارعة، وطوقت كتفها بذراعها، فسمعت نبض قلبها، وأنفاسها التي بدأت تتعالى، كأنها بدأت تعلم ما سوف يقال:

– بارعة، بالتأكيد تتذكرين ليلة الحريق الذي دب بغرفة ابن القصاد، ليلتها أتيت ودخلت الغرفة ثم خرجت تبكينه، ثم اقتادك شيخ المسجد إلى بيتك. الذي رآك هو ابن القصاد نفسه، لقد كان مختبئاً أعلى الغرفة.

فتحت بارعة فمها متفاجئة، وشهقت، ثم قالت بصوت مرتجف:

– علي لم يمت؟

– نعم علي ما يزال على قيد الحياة.

في تلك الأثناء كان ابن بارعة يقف بباب الصالة، ويصغي لما يقال، بينما بارعة تبكي بصمت، كأن كل دموع تلك السنين السالفة قد تمنعت عن وجهها، وسقطت للتو، وأنين موجع أخذ ينز عن صدرها:

– إذن هو لم يحبني.

قالت ذلك وهي بالكاد تقوى على نطق تلك الكلمات.

– لا يا بارعة لا تظلميه، لقد هرب علي إلى فرنسا خوفاً عليك، وخوفاً من أن يودي بعشيرته إلى نار الاقتتال، كان يكتب لك من

هناك، لكن موظف البريد يوسف النداح، الذي أصبح فيما بعد زوجك، كان يمزق الرسائل، ابن القصاد هرب من ألسنة النار التي أشعلها إخوتك وسليم المشاي بغرفته. في فرنسا لاحقته ألسنة النار من جديد على يد زوجك السابق، الذي انتمى لجماعة متطرفة هناك.

أصيبت بارعة بالدهشة لما سمعته، فأخذت دموعها تسح بغزارة.

– نعم زوجك السابق هو من نفذ العملية.

تعالى نشيج بارعة شيئاً فشيئاً، والفتى يستمع مندهشاً، ولمعة تحاول أن تهدئ من بكائها، ثم صمتت تفكر بالقسم الأخير من الأخبار المؤلمة، إلا إن بارعة حضتها على الحديث:

– وماذا بعد؟

– عاد علي إلى القرية، لكنه مشوه.

– مشوه؟

– نعم مشوه، له ملامح أخرى، ويعاني تبعات شكله الجديد بين الناس.

أطلقت لمعة تنهيدة طويلة، ثم قالت وقد تبدلت نبرة صوتها:

– ما دفعني لزيارتك ليس هذا الخبر فقط، إنما ما سمعته قبل أيام وهو يهذي باسمك، النار لم تطل حبه لك يا بارعة.

بقيت بارعة أسيرة الدهشة والحزن لساعات، ولمعة تقص عليها كل ما عرفته من أحداث لابن القصاد، وكل معاناته في فرنسا وفي عمان وفي قريته، ثم أمضت ساعات تحدثها عن أيام طفولته، بعد أن رأت كيف أخذت وردة الفرح تورق في وجهها من جديد، فقطع حديثهما ابن بارعة:

– لم تخبريني يا أمي عن أشياء كثيرة التي سمعتها هنا.

لم تدر بارعة كيف ستجيبه، فغادر صالة الجلوس بعد أن قال لها:

– بسبب أخوالي، والناس وسليم المشاي، عشتِ كل هذا العذاب، الأبوة ليست فعلاً بيولوجياً، كما تعلمنا في المدرسة، إنها ذلك الإحساس الذي طالما سألتك عنه، وأنت تهذين باسم ابن القصاد، الأبوة هي الإحساس الذي يمر عبر قلب الأم، علي ابن القصاد هو أبي، وليس ذلك المتطرف، لذلك اذهبي إليه وتزوجا.

***

قبل أن تصمت، كانت الحكاءة تروي الحكاية، وفي يديها يدب ارتعاش، كلما أوغلت بالتفاصيل زادها اضطراباً، كأنها تقترب من كهف فيه سرّ عتيق، عليه أن يُعلن على الملأ، وكان في صوتها حشرجة باكية، تماماً كمن يحكي قصة الحسرة بعينها. لها صوت يشبه صوت أمي، حينما كان يغلبها الأسى، فتبدو كالأطفال تتنهنه وهي تشرح ما حدث، بل هو صوت أمي بعينها، لها ملامحها التي أخذت تتضح لي على مهل، من أولى الجلسات، كأن الحكمة اقتضت أن لا تبان التفاصيل منذ الوهلة الأولى.

(يا إلهي). صرخت بسري وأنا أرى تنهيدة تخرج من صدرها عنوة، وتسح الدموع على خدها، منهية نصيبنا في ذلك اليوم من الحكاية، ثم نهضت. تيقنت وقتها من أن التي رأيتها تنشج بتلك الطريقة، هي أمي.

في الطريق إلى البيت، كنت أفكر بما يجري، وأحاول أن أفهم ما الذي يحدث. قلت في نفسي أنه لا بد أنني جننت بسبب ذلك الحريق الذي على ما يبدو، لم يأت على الغرفة ومقتنياتها فقط، إنما طال ذاكرتي، فلم يحرقها بالكامل، بل شوه جزءاً منها، وترك الآخر يئن، فاختلطت مكنوناتها بشكل عبثي.

في ذلك اليوم لم أعد إلى البيت باكراً، كما اعتدت منذ أن انتميت لجلسات الحكاءة، فقد ابتلعتني أفواه الشوارع والطرقات، وبت كأصم لا يتناهى إلى مسمعه شيء، وأنا أعبر الزحام، الذي بنت الأجساد والعربات قامته الغريبة، إلى أن وصلت حانة (أبو سحر)، فرحت أشرب الكأس تلو الكأس، وبي حزن من طراز غريب، أشرع أبواب الذاكرة، على نائحات يبكين أمي يوم وفاتها، ذلك المشهد الذي أخذني لمنظر الغرفة وأنا أجلس فيها أرضاً، وأنوح على صورة أمي التي أكلتها النار، إلى أن أخذ هاتفي النقال يرنّ، فقد كانت رحاب، حيث أدركت عندما سمعت صوتي أنني ثمل، فجاءت تساعدني على العودة للبيت.

لم تستفسر عما حدث لي، إلا بعد أن جردتني من ملابسي، ووضعتني تحت زخات من الماء البارد في الحمام، وأسقتني كوباً مركزاً من القهوة.

حين أخبرتها بما اعتراني، حضتني على أن لا أخضع لتلك الهواجس، حتى لا أصاب بالجنون، وذهبت متوترة إلى سرير النوم.

قبيل الفجر انتهيت من تدوين الفصل الجديد من الرواية، ووقفت إلى النافذة حيث كان الحي محاطاً بصمته الليلي، الذي قطعه صوت

شابين ثملين عائدين لبيتهما وهما يضحكان، يضحكان بصوت عال، إثر نكات ظلا يطلقانها، إلى أن تواريا في الزقاق، فعاد الصمت من جديد، حينها جاءني صوت بقايا الحاسوب:

– ألا زلتَ تنتظر معرفة ما لم تدونه في روايتك؟

التفت إليه وإذ به قرب كومة الأوراق التي كتبت فيها الرواية:

– نعم ما زلت أنتظر ذلك.

قال بعد أن جلست في كرسيي قبالته، أراقب ملامحه التي لا تختلف كثيراً عن ملامح علي بن محمود القصاد:

– لم تقل إن بعض العادات والتقاليد، صارت مذهباً يقدمه البعض على الدين، دون أن يعوا ما يقومون به، إلى أن أصبحت كلمة (عيب) حكماً قطعياً، يجهض كثيراً من الرغبات، ويعرقل خُطى كثيرة، بحيث بات عدد كبير من الناس يهابون مخالفة تلك السلطة والخروج عليها، بل صاروا أسرى لها.

ليلة أن جر السيل أبناء عاهد المشاي، ظلوا يصارعون الماء، وقد صار وحشاً بفم فاغر بوسع الكون، حينها، والموت يسنّ حرابه، أدركوا أنهم ظلموا أختهم بارعة، كان أكبرهم يصرخ بمرارة من دنت منيته:

– لم يكن بإمكاني أن أخالف تقاليد بعمر الكون يا بارعة، فأصبحُ بلا هيبة بين الناس.

وآخرُ ظل ينوح وهو يتشبث بغصن، إلى أن كُسرَ وتوارى صوته في الظلمة التي كان السيل الهادر يهوي نحوها:

– سامحيني يا ابنة أبي، سامحيني يا بارعة.

لم تقل إن إخوتها حينما طلبوا من الداية أن تكشف عليها،

وتتأكد من عذريتها، التي لا يفهمها البعض إلا بضيق مساحة غشاء لا تتعدى سنتميترات قليلة جداً، إنما كانوا يريدون أن تنشر الداية خبر عذرية ابنه المشاي، لأنهم يدركون أن أختهم لم يمسسها ابن القصاد. لقد كانوا يعرفون ما الحكمة من أن إثبات الزنا بحاجة لأربعة شهود، لهذا لم يقتلوها، بل حاولوا قتل ابن القصاد حرقاً، دفاعاً عن ذكوريتهم، ولأجل أن يسكت الناس عما راحوا يتحدثون به.

هل خفت من قول ذلك ياخاطر؟

- لم أخَف لكنني....

- دعني أكمل.

- قل ما تشاء، ها أنا أستمع لك.

- لماذا لم تقل إن سليم المشاي وجماعته كانوا في ذلك الوقت نواة أولى لكل ما نراه هذه الأيام من حركات متطرفة، تقتل الناس وتقطع رؤوسهم، وتكفّر من تشاء. لقد فصلوا ديناً بعد أن انتهجوا تأويلاً خاصاً، وراحوا ينشرونه، مستغلين فقر الناس وجهلهم، هل خفت أن تقول بواضح العبارة، إن الدين الذي جاء في القرآن، مختلف عن الدين الذي تمارسه جماعات متطرفة، لا همَّ لها غير مصالحها السياسية؟

- قلت ذلك.

- لا لم تقل ذلك، أنت فقط ألمحت تلميحاً موارباً بأن شيخ المسجد كان معتدلاً وسطياً، بينما سليم المشاي كان يرى كل الناس الذين خالفوه، كفرة زناة وحطباً للنار، تماماً مثلما رآهم محمد القميحي الذي ذهب إلى أفغانستان وأخذ يقاتل السوفييت، بينما الناس يتناقلون أخباراً مفادها أن حجارة كانت تذيب الدبابات، بعد كل تلك السنين،

وبعد أن اتضح الأمر، صار القميحي يشتم أمريكا، التي كان يقاتل في صفها، من قال عنهم كفرة ملحدين.

فتحت رحاب الباب، وأخذت تبسمل، وتمسح رأسي:

– ما بك يا حبيبي، أنت تهذي، تباً للكتابة التي ستودي بك إلى الجنون.

قالت ذلك، وأطفأت ضوء الغرفة، ثم اقتادتني نحو السرير، واحتضنتني، وهي تحضني على النوم.

-٦-
آخر شهقة في الناي

نحن نحلم، إذن نحن بشر نفكر بالتحليق في سماوات جديدة.

بارعة بنت عاهد المشاي

التي رأيتها تمشي نحونا، ونحن نجلس تحت شجرة التوت المعمرة، ننتظر ما تبقى من الحكاية، هي أمي.

(نعم أمي). قلت في نفسي وصورتها تكتمل في مخيلتي، ملاحظاً طولها ومشيتها، وشكل وجهها، وعينيها الحزينتين، وسهوها المتكرر بالأشياء، وصمتها العميق، وولعها بالحكايات.

رآني إياد مصاباً بارتعاش غريب، وبارتباك لم يعهده بي من قبل، وكأنه يدرك ما أعانيه، همس بأذني قائلاً:

– هون عليك، لقد شارفت الحكاية على النهاية.

قالت الحكاءة بعد التفتت نحوي:

– هل أنت بخير يا خاطر؟

كنت سأقول لها، إنني من دونك، محض مسافر أضاع خريطته، فتاه، وكنت سأقول إن الأربعين شبيهاً لأي واحد منا، لن يمتلكوا رائحة

من نحب، هنالك أشياء لا تتكرر مرتين، إنها رائحتك يا أمي، رائحتك التي مـا زالت تدلني إلى الطرق الآمنة كلمـا هجـمت على الحـيـاة عـواصف الوجع. لكنهـا أخـذت تسـرد مـا لديهـا من الحكاية، في ذلك اليوم، من دون أن تنتظر إجابتي:

شعر ابن القصاد بالوحدة في غياب لمعة، وسعدون الغاني. لم يزره أحد منهما منذ أيام، فأشغل نفسه أثناء النهار بالبستان، حيث تفقد حظيرة الماعز، وقن الدجاج، والأرانب، وتأكد من أن خراطيم المياه نقلت الماء إلى أحواض المزروعات الصيفية، وإلى الأحواض التي استحدثت حول جذوع الأشجار القديمة والجديدة.

شـعـر بغـبطة وهو يقف في وسط البـسـتـان، وقد تحول إلى مكان بعثت فيه الحياة من جديد، بعدما كان موحشاً يهابه حتى المارة.

فكر بلمعة وما فعلته لأجله منذ أن وصل القرية، وفكر بقلبه الذي لا سلطة له عليه، فتمنى أن يحب لمعة كما تريد، لكن قلبه غادره منذ ذلك اليوم الذي سمع فيه كلمات بارعة، ورأى فيه وجهها، الذي لا ينفك عن السطوع في سـمـاء فكره، كنجم لا يأفل، حتى وهو يصارع النار يوم شبت بجسده، في ذلك المساء الفرنسي.

أخذت الشمس تميل إلى جهة الغرب، معلنة ساعات العصاري التي عادة ما تتراجع فيها درجات الحرارة، ويصبح الطقس صالحاً لمغادرة البيوت، والمشي لساعات حتى الغروب، لكن القرية بدت ساكنة يلوذ أهلها ببيوتهم في ذلك اليوم.

جلس ابن القصاد على حجر مرتفع، استعصى على العمال إزالته، وأخذ يتأمل البيت الذي ولد ونشأ فيه، تذكر أخته فاطمة، فاستعاد

عمراً من الذكريات تكور بمعيتها، ففكر بضرورة الحصول على عنوانها فقد اشتاق إليها كثيراً.

دخل البيت، ثم عاد يجلس في كرسي تحت شجرة، في فسحة قبالة البيت، تطل على أشجار أخذت تتعافى من اليباس، والاخضرار يجتاحها كما يجتاح اللون الوردي وجه فتاة لفرط الخجل، تكابد دوار القبلة الأولى، وراح يقرأ في دفتر يومياته الذي لم يفارقه مذْ غادر القرية:

«مضى عام على عودتي لعمان، يا بارعة،

كنت وأنا أجدني كورقة مهملة تتقاذفها الرياح في تلك المدينة الفرنسية، أقاسي ملامحَ ليست لي، وعالماً لم يعد يراني إلا وحشاً، كنت أفكر بك.

حينما يشتد على رقابنا خيط الوجع، نصبح بحاجة للوطن أكثر من أي وقت آخر. في حياة المرء وطنان، امرأة، مثلما نرخي ليد قلبها حبل قلبنا فترفعه للريح كالطائرة الورقية، نرخي لصدرها الرأس، فيغمره الدفء، وتمسح بالماء الروحَ، رباتُ الحنين، ووطن حينما تتبعثر شظايانا، يلملمها على غفلة من خسراننا، ومن فقدان الأمل.

مضى عام على عودتي لمدينة أحببتها، كما لم يحب رجل مدينة من قبل، بكل ما في قلبه من شغف. مدينة اخترتها كملاذ، لواحد مثلي يصارع فكرة عودته للقرية بشكل جديد، إذ لم أكن متيقناً من أن أحداً سيقتنع بأنني أنا الذي غادرتها ذات مساء، ودموع الفراق تسح حتى على خدود الشجر.

على زجاج المحال العريض، أراني كوحش فر من غابة زمن بدائي،

بينما المارة يصنعون بيني وبينهم مسافات أمان، لم أستطع تجسيرها. أراك بينهم تكابدين دموعاً حارقه، أمد يدي، وأنسى أن الطيف عصي على اللمس، فأعود لغرفتي الرطبة، والمدينة كل ليلة تلفظني أكثر مما مضى، وتتسع مسافات الأمان التي يصنعونها بيني وبين أناسها، ألقي بدني في سريري، وأبقى أكتب لك إلى أن يسقط القلم من يدي، فيأخذني النوم إلى حيث تصحو الكوابيس، فترهق روحي التي لن تنجو مما هي فيه، إلا وأنت معي.»

اختفت الشمس وراء الجبال، كضحكة تتوارى من فم طفل يتماثل للنوم، فسرَت العتمة في بدن الأشياء، وسكنتْ أصوات النهار، لتجيء أجنحة الليل، تنقل صوت كلب حزين يعوي في أطراف القرية، وصوت امرأة شاكٍ، تنادي أبناءها، وتهددهم بالغول.

اشتعلت إنارات البيوت، واحداً تلو الآخر، نظر ابن القصاد إلى البيت الذي ولد فيه، فتناهى لمسمعه صوت صراخ طفل وليد يجيء من دواخله، وسمع صوت أمه تغني له بصوت هامس، بينما حشرجة باكية تخالط صوتها. تناهى لمسمعه وهو يسرح البصر في بيت والده عبر حقل الذاكرة، صوت أخته فاطمة، تعدُ نفسها بعودته من البلدان البعيدة. جاء صوت والده، رخيماً يخالطه دفء الأبوّة، فرآه يجلس قرب شجرة زيتون يتوضأ، ليسيل الماء في حوضها، ثم شاهده بطرف كوفيته يمسح وجهه الباسم، ويرفع شاهده إلى السماء، ناطقاً بالشهادة، وداعياً بالخير والبركة.

تذكر لمعة، وتلك الأيام التي كان يمضيها بمعيتها، يلعبان في الجبال والمنحدرات والسهول، يمتطيان المكانس ويحلمان بالبلدان البعيدة.

وتذكر بارعة وذلك اليوم الأول الذي رآها فيه، سمع كلماتها تحلق من فضاء ذاكرته، وتطوف بقلبه، كفراش يحوم حول الضوء.

نهض من كرسيه، ورمق القرية بنظرة عريضة وعميقة، ثم ترك دفتر يومياته على الكرسي، ونسمة هواء عليلة تعبث بصفحاته، ودخل البيت.

قبالة مرآة علقت على الجدار، رأى وجهه الذي نحتته النار، بمزاج فنان عبثي. أمد يده للمرآة، فأحس بيده تغور داخلها، كأنها ليست زجاجاً، بل نافذة عبرتها يده. راحت أصابعه تمسح وجهه، ودمعة وحيدة تسح عليه، من عين وحيدة، فمسحها برؤوس أصابعه، وأخرج يده من تلك الكوّة. ثم ابتعد خطوات إلى الوراء، وهو يرى وجهه يتلاشى منها، كستارة مسرح تُسدل ببطء، معلنة النهاية.

اتجه إلى سريره بخطوات هادئة، وهو يشعر بنعاس مفاجئ، وألقى ببدنه هناك فغفا، وفي باله يحل صمت لذيذ، يحظى به لأول مرة منذ ليلة حادثة الحريق، كأن تكوينه استراح من كل شيء مرة واحدة، وراح يمشي نحو سكينة أبدية.

***

بخلاف خضر المحمود وبعض الذين عارضوا معه محمد القميحي في ما يقوله عن علي بن محمود القصاد، جمع القميحي عدداً كبيراً من أهل القرية في بيته الذي لم يتسع لهم جميعاً، فوقف عدد منهم متكئاً على الجدران، وتشارك آخرون الجلسة مع البعض، بينما وقف نفر بالباب، يمدون رؤوسهم، ويستمعون لما يقوله القميحي، حين وقف في

منتصف صالة الضيوف، كأنه قائد يعدّ العدة للحرب، ويشحذ همم جنوده:

– هذا العلماني الكافر، عبث بعقول الناس، منذ دخل القرية، تبدل حالها، أصبح لدي شك أن الغول هو نفسه هذا المشعوذ، ورأيتم كم شخصاً فقدنا في القرية، جراء الغول، وكيف ساءت أحوال ساكنيها، لقد أخطأت خطأ فادحاً، عندما لم أعترض على صعوده المنبر، وخطبته بالناس، فقد قال كلاماً معسولاً، لكنه دس به السم، هم هكذا العلمانيون الذين عبثت أوروبا بعقولهم.

توقف القميحي قليلاً عن حديثه، ونظر في وجوه الناس كأنه يقرأ ردة فعلهم:

– بالنسبة لي، لم أصدق أن هذا الكافر قد صعد الجبل وقتل الغول، حتى إنه لم يقل لنا كيف فعل ذلك، إنه هو الغول بحد ذاته، ثم إن الناس صاروا يقدسونه، ويرونه ولياً صالحاً، يتبركون به، وهذا حرام أيها الإخوة، فكيف نقدس رجلاً مرتداً، بات يحقن بشعوذاته عقول الناس، لقد رآه أحد الإخوة لأكثر من مرة يقرأ بالإنجيل، وبكتب أخرى غريبة ومريبة.

دار القميحي حول نفسه، ينظر في وجوه كل من أموا بيته:

– هل ترضون من يهدد دينكم؟

جاءت أصوات غاضبة:

– لا، لن نرضى ذلك.

– هل ترضون شخصاً، يضرب بعاداتكم عرض الحائط؟

اتسعت رقعة الغضب، في وجوه المجتمعين:

– لا، لن نرضى ذلك والله.

قال القميحي:

– منذ أن هيأ سعدون الغاني غرفة لهذا الكافر، ولمعة تلتقي به وتعود قبيل الفجر، معتقدة أن لا أحد يراها. رآها أحد الإخوة لأكثر من مرة، فأخذ يراقبها، إلى أن دخلت غرفته. وها هي قد اشترت له البستان المهجور وبنت له بيتاً، حتى تحلو لهم اللقاءات بعيداً عن أعينكم.

بصوت مستفز، وجه لهم سؤالاً:

– هل يخلو رجل بامرأة، من دون أن يكون ثالثهما الشيطان؟

– لا والعياذ بالله.

ارتفعت حدة صوت القميحي، فبدا آمراً:

– إذن كيف ترضون بمن يهدد دينكم وعاداتكم؟

كان عبد الله المسكوب صامتاً طوال ذلك الوقت الذي أخذ فيه القميحي يحدث من تواجدوا في بيته. لم يفعل شيئاً سوى أنه كان ينظر بوجوه الناس، وهم يستشيطون غضباً، منهم من تثور ثائرته لما سمعه عن علاقة بين لمعة ابن القصاد، ومنهم من تملكه الغضب لكون ابن القصاد ارتد عن دينه، بينما عدد قليل بدا أن رأي القميحي لم يرقهم. اختلطت الأصوات ببعضها، بحيث أن كل واحد أخذ يتحدث بمفرده، فما صار بالإمكان الإنصات لما يقال.

شعر المسكوب كأن وعاء من الماء يغلي في داخله؛ فوقف وصرخ بالناس، فتراجعت أصواتهم إلى أن ساد الصمت:

– أنت تقول يا ابن القميحي إن ابن القصاد مشعوذ، ولم نره فعل شيئاً من هذا القبيل، بل إنه أقفل بابه بوجوه من تداعوا إليه، وتقول

بأنه ارتد عن دينه وتنصّر، ودليلك أنه وشم الصليب على ظهره وراح يقرأ الإنجيل، رغم أن لمعة أثبتت لكم أن ذلك الوشم هو إثر سقطة، حدثت له في الصغر، وأكدها كثير من أهل القرية، ورجل مثل ابن القصاد كان أستاذاً في أعرق الجامعات، يقرأ كل شيء، ثم إنني لم أجد في خطبة ابن القصاد غير تعاليم التسامح والإيمان.

كان القميحي مندهشاً وغاضباً، وهو يسمع ما يقوله المسكوب، الذي صمت قليلاً وعاد يلتفت للناس:

– إن كانت هذه هي العلمانية؛ فأنا علماني إذن.

حينها صرخ القميحي بأعلى صوته، مستعيذاً بالله، فنهض جماعة القميحي ينددون بما قاله المسكوب، فندد كثير ممن كانوا هناك، وصمت البعض. خرج المسكوب غاضباً، وتبعه بعض من كانوا صامتين، لا يروق لهم رأي القميحي، وذهبوا نحو بيت خضر المحمود، فعاد القميحي لحديثه بصوت هادئ أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً:

–لم أتجنَّ على الرجل أيها الإخوة، ما أردته هو أن أبين لكم الحقيقة، أنتم من ستحافظون على قريتكم بدينها وبعادتها وتقاليدها، إن كنتم تقبلون الزنا وترضون عاقبته، فهذا أمر آخر.

وقف جميع من في بيت القميحي، يستنكرون بأصوات غاضبة ما يحدث.

***

في الطريق إلى القرية، حرك سعدون الغاني قرص البحث عن المحطات في مذياع سيارته، فاستقر على موجة بث معزوفة كمنجة

يرافقها عزف بطيء لبيانو، يراوح مابين مزاج الحزن، ومزاج فتى يركض فوق الغيوم.

كان الليل صفحة سوداء، لم يقتحمها سوى ضوء سيارة الغاني، عندما كان يرتعش بفعل الحفر التي أوجعت صدر الطريق. جلست لمعة في المقعد الأمامي، بينما كانت بارعة في المقعد الخلفي، قرب النافذة، تنظر خارجها، كأنها ترى أشياء لا يراها غيرها، إذ كانت ذاكرتها تستعيد مشاهد لحكايتها مع ابن القصاد، منذ اليوم الأول الذي رأته فيه، إلى أن أتتها لمعة، وأشعلت بعتمة روحها مصابيح الأمل من جديد.

أخذت تفكر باللحظة الأولى التي ستراه فيها، حاولت أن ترسم في ذاكرتها صورة لملامحه الجديدة. قالت في نفسها: (لا يهم، سأعرفه مهما تغيرت ملامحه، أنا لم أره إلا بعين قلبي، وعين القلب لا تخطئ. سأضمه إلى صدري، وأرخي جسدي ليضمني إلى صدره، لأشم رائحته التي لم تفارق مخيلتي، لكل آدمي رائحة، وللعاشق رائحة لا يخطئها القلب).

فكرتْ بالكلمات التي ستقولها له، وهل ستقوى على قول شيء بعد كل تلك السنين التي رأتها كحقل، كلما خبت النار من جانب فيه، تشتعل من جانب آخر.

قالت بسرها: (سأرخي لقلبي جديلته، وأقرصه بكتفه أعاتبه على كل ذلك الغياب، رغم أنني أعلم أن لا ذنب له فيما حدث، سأهمس له بأنني ما زلت عذراء، هو يعلم أن العذرية شأن القلب فقط، سأقول له إنني الآن عدت تلك البنت في ذلك الصف المدرسي، الشغوفة

بالروايات، وبالعوالم التي تمجد الحب، والحرية، والإنسانية، لن أنتظر حتى يقدم لي خاتم الزواج، سأزوجه نفسي، مادمت أمتلكها، ونسافر حينها إلى جزيرة لا تضم سوانا، سأقول له دعني أشبع منك، فقد جعتك بما يكفي يا حبيبي).

تظاهرت لمعة بالنوم، وهي ترخي مسامعها لذلك الصوت الموسيقي الآسر، الذي جاد به المذياع، تحدث نفسها (لقد أحببتك يا علي، كما لا يمكن لامرأة أن تفعل، لكنك لست لي، أحببتك، بقدر ما أنا سعيدة الآن، بأني سأجعلك سعيداً كما لم تتوقع، فالحب هو أن تكمل طريقك إلى حيث يعتقد الآخرون أنه النهاية، بينما نمضي وفي الذاكرة ما يعيننا على الحياة، مثلما يوجعنا في أحيان كثيرة، سأتزوج هذه المرة من رجل غيرك، وأقفل قلبي على كل تلك السنين، أداريها بركن قصي لن يصلها أحد، إذ يمكن للمرأة أن تعيش حياة يعمرها الحب، بينما في عوالمها السرية، هنالك ضوء ينير لها الطريق، إنك أنت يا ابن القصاد، أنت ضوئي الذي لن يخبو).

كان سعدون الغاني وسيارته تقترب من القرية، يفكر بأمر صديقه ابن القصاد الذي لم تكن رحلة حياته هينة، لقد رآه يسير في حقل مشتعل بالنيران، فيبدو كحصان يتقافز من هنا إلى هناك، مكابداً ألسنتها الحارقة. شعر بغبطة وهو يرى صديقه يقترب من الفرح، ففكر الغاني بنفسه ولمعة تغفو في الكرسي قربه، ورائحة عطرها تمتطي نسمة الهواء التي تعبر نافذة السيارة. قال في نفسه: (سأصرح للمعة برغبتي بالزواج بها، ولن تمانع ذلك، سأعمل أكثر من أي وقت مضى، وأبني بيتاً، سيشهد صوت أطفالي الذين حلمت بهم طوال عمري، وسيصبح

لي شأن في القرية، سأتخلى عن كل عاداتي التي تزعجهم، وأجاملهم بأفراحهم وأتراحهم، سأحاول أن أحالف الحياة).

صعدت السيارة المنحدر الذي تمتد منه طريق إلى القرية، ثم انعطفت إلى الشمال فسلكت طريقاً أخرى نحو البستان الذي أقيم فيه بيت ابن القصاد الجديد. أخذ قلب بارعة يخفق، ويزداد نبضه، فودت لو تترجل وتكمل المسافة جرياً نحو البيت. مرت السيارة عبر طريق استحدثت بعد ترميم البستان، حيث لاحت على طرفي الطريق وتحت ضوء السيارة أشجار جديدة، وورود، ومحاصيل لنباتات صيفية.

ما إن بان البيت عبر زجاج السيارة الأمامي، حتى صرخ سعدون الغاني مذهولاً، وهو يرى عدداً كبيراً من الناس يتجمعون حول البيت، يحملون مشاعل، بينما البيت تتصاعد منه ألسنة النار، فزاد من سرعة سيارته، وأخذت لمعة تصرخ بأعلى صوتها وهي ترى محمد القميحي يقف قبالة الناس الذين تفجر الغضب من وجوههم وهم يهتفون:

– الزاني والمرتد، والكافر، ما له سوى أن يحرق، فيتحول إلى رماد.

هبطت بارعة من السيارة، وقد أصابها صمت غريب، كأنها لا تعي ما يحدث. كانت تراقب الحريق الذي، ارتسمت صورته في بؤبؤي عينيها اللتين لم تَنُمَّا إلا عن صمت، وراءه ضجيج جنائزي.

هجم سعدون الغاني على البيت، الذي صار كتلة من النار، لكنه لم يستطع أن يدخله، فعاد إلى سيارته، واستل بلطة طويلة وحادة، وهجم بها على جماعة القميحي، ففروا هاربين عبر الشجر، ومنحدرات البستان، وما تبقى سوى جماعة خضر المحمود، الذين انفصلوا عن جماعة القميحي، إذ كانوا يصرخون بأصوات متفاوتة، ومعهم عبد الله

المسكوب، وحنة، بعد أن وصلوا متأخرين واشتبكوا مع جماعة القميحي، لكن أحدهم أفلت، وأضرم النار ببيت ابن القصاد من كل الجهات، فباءت محاولاتهم لإنقاذه بالفشل، فأخذوا يرددون بأسى:

– أحرقوا المبروك، أحرقوا المبروك.

تهالك سعدون الغاني على الأرض، فسقطت البلطة من يده، كما سقط رأسه على التراب، وهو يبكي، ناشجاً:

– لاحقتك النار يا صديقي طيلة حياتك من دون ذنب، إلا لأنك أحببت الحياة، وأحببت امرأة رأيت فيها ما لم يره الآخرون من الحياة.

عندما تراجعت ألسنة النار بعد ساعات، وعبرت لمعة إلى الداخل عادت وفي يديها رماد لجثة علي بن محمود القصاد، فنثرتها في الهواء وهي تنوح بينما صدى صوتها، يتقافز بين أشجار البستان.

مشت بارعة، بعد أن أمضت كل ذلك الوقت صامتة، نحو كرسي تحت شجرة قبالة البيت، أخذت دفتراً كان ملقى عليه، قرأتْ منه أول كلمة، ثم حملته وانحدرت عبر الطريق التي تركض خارج القرية، فلحق بها سعدون الغاني بسيارته. وبقيت لمعة جالسة قبالة البيت، لا يصدر منها سوى أنين، اختلط بنواح خفيض لحنَّة وباقي جماعة خضر المحمود.

في اليوم التالي أُلقي القبض على محمد القميحي، وحوكم، هو وبعض من كانوا معه، بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد. أقيمت جنازة للدكتور علي بن محمود القصاد، حضرتها جهات حزبية، وفكرية، وثقافية، وبقيت الصحف ووسائل الإعلام تتناقل خبر اغتياله. واستحدثت جوائز باسمه، أهمها جائزة علي بن محمود القصاد، لمناهضة التطرف.

مضت الأيام كطبعها المعهود، وراح الناس يسمعون صوت امرأة، لم يتبينوا من أين يأتي، وهي تصرخ ليلاً، أثناء نومهم:

– يا ويلكم من الله، يا ويلكم من شبح ابن القصاد، الذي سينتقم لنفسه، ولحميدة الشقرا وسالم الأسمر.

كما وتناقل الناس في القرية، أن شبح ابن القصاد، يخرج في البستان، الذي أصبح مهجوراً من جديد، ولا يصله سوى سعدون الغاني، وجماعة خضر المحمود، الذين راحوا يتبركون بالمكان، كل حين، ويطلبون من روح ابن القصاد أن لا تأخذهم بخطيئة ابن القميحي وجماعته، خاصة أن حنة جُنّت، بعد أن رأت من جديد، غولاً يقف برأس الجبل يتوعد القرية بالموت.

***

قلت لإحدى الفتيات بعد أن أخذت الحكاءة تتهيأ للمغادرة منهية الحكاية، ومعتزلة سرد الحكايات:

– ما اسم هذه المرأة؟

قالت مستغربة من أنني لم أسأل عن اسمها من قبل:

– بارعة، بارعة ابنة عاهد المشاي.

حينها صرخت بذهول، وأنا ألقي بي في حضن الحكاءة:

– أمي، نعم هذه أمي.

لكنني استفقت من نوم بدا طويلاً، أمسح دموعاً خضبت وجهي، وأتلفت حولي، وإذا بي تحت شجرة التوت المعمرة، ولا أحد سواي، حينها قلت لنفسي مذهولاً:

– يا إلهي كل هذا كان حلماً.

راحت ذاكرتي تتعافى من عطبها، فتذكرت أنني غفوت تحت شجرة التوت المعمرة، بعد أن تعبت من جولتي في المدينة، أحاول إجهاد نفسي، لأنام من دون أن يهاجمني كابوس أفاعي النار، الذي داهمني بعد حريق شب في منزلي.

تلفت حولي، وإذا بذاكرتي تصاب بالصحو الكامل، لأجدني قبالة البيت الذي أمضيت فيه سنين عمري الأولى، البيت الذي باعته أمي وسددتْ، بجزء كبير منه، ديوناً مترتبة على جدي لأمي، عاهد المشاي، واشترت بما تبقى منه بيتاً صغيراً، أمضت فيه عاماً، ثم ماتت أسى على ما منيت به حياتها، التي اختتمت بموت علي بن محمود القصاد.

لامست الشجرة بيدي، ورحت أتذكر كيف بقيت أمي سنين، تروي الحكايات لي ولأطفال الحي، الذين كبروا، وأخذتهم الحياة بلجتها، وذاكراتهم تحتفظ بحكايات أمي، بارعة بنت عاهد المشاي.

تركت المكان، وبي غبطة على ما لمسته في ذاكرتي، من قدرة على استعادة روايتي كاملة، من غير أن أغفل عن حرف واحد منها، فقد جاءتني أمي في المنام، وأعادت لي الرواية، فأرواح الأمهات طيور لا تتوقف عن التحليق في سماواتنا، ونحن لا ندري أنها تراقبنا من بعيد، فتتدخل في اللحظات التي نصاب فيها بالعجز والخسارة.

عبرت الشارع الذي يشق مدينة المدينة إلى نصفين، حيث كنت سأنعطف من آخره إلى الشمال، قاصداً المقبرة لأزور قبر أمي، التي بقدر ما أوجعتها الحياة، بقيت مخلصة لحكايات تعول عليها، ولأحلام ما انفكت تضيء دروب حياتها.

بدا لي الشارع صورة ملونة، وأنا أرى نساء سافرات، ونساء

محجبات، رجالاً حليقي الرؤوس، وآخرين يرتدون كوفيات، وثياباً عربية بألوان مختلفة، رجالاً بلحى وثياب قصيرة، وآخرين بقمصان، يلوذون بقماشها الخفيف هرباً من حرارة الطقس، مسلمين ومسيحيين، مساجد وكنائس، سواحاً، وعابري سبيل.

توقفت عند متجر للحلوى أنوي أن أحمل معي شيئاً من الكعك، لأوزعه على الأطفال إكراماً لروح أمي.

ثمة مقهى بجانب المحل، نصبت فيه شاشة تلفزيون عريضة، تجمع قبالتها عدد كبير من المارة، ومرتادو المقهى وسواح أجانب، يتابعون بقلق تقريراً إخبارياً، تبعه فيلم لجماعة متطرفة جديدة، يقطع منتسب لها رأس فتاة لأنها كتبت بضع كلمات عن الحب في صفحتها في الفيس بوك. تبعه فيلم يتطرق للجماعة نفسها، وهم يهدمون مساجد وكنائس، وينفذون حكم الإعدام بمسلمين ومسيحيين، وبأفراد من طوائف أخرى، رمياً بالرصاص، ونحراً بالسكاكين، بينما الرؤوس تتدحرج على الأرض التي لم تشرب من دمائهم شيئاً، رغم عطشها للماء.

أرخيت العنان لجسدي، وغادرت أنحدر عبر الشارع الذي ضج بالزحام، وصوت البائع يتبعني:

(الكعك يا سيدي، ألا تريد الكعك؟)

بينما كنت أرى رجلاً يُلقي، عبر نافذة بيته، بعدد كبير من الكتب القديمة والحديثة، وهو يردد باكياً بمزاج هستيري:

– كل هذه الكتب، ونرى رؤوساً تُجز بكل هذه الوحشية! ثمة خلل إذن، خلل كبير.

(تمت)

أفـاعي النــار SNAKES OF FIRE

الروائي الفـائز بجـائزة البوكر العربيـة للعـام 2021

جلال برجس يكتب بوعي من يؤمن «أن الكلمات طيور محلقة لها نفس طويل على اجتياز المسافات البعيدة». ولعلها من ذلك النوع الذي يخاطب الحالمين لذلك جاء إهداؤه «إليكم يا من كنتم تحلمون». ولكنها كما كنت قد وصفتها لا تبقى في هيئتها الحالمة، فهناك تماس واضح بين المادتين الحلمية والواقعية.

د.رزان إبراهيم

إن قيمة هذا العمل لا تتأتى من فنيته العالية فقط، بل من جرأته في طرح قضايا من الواقع تتوافق مع ما يشغل ذهن المثقف العربي المتعب، وهي قضايا تشكل في ذهن قارئها حالة من الحوار المفتوح الذي لا ينقضي بانتهاء العمل.

د.نضال الشمالي

رواية "أفاعي النّار" حكاية العاشق علي بن محمود القصّاد ، نصّ يحمل في داخله نواة الثّورة ضد ظلمة العقل، واستنكار لاغتيال التفكير، وهجوم بشكل إيحائي على ركون الكثير من الناس للتفسير السّاذج للظواهر والحالات والأشياء.

د.فاطمة نصير/الجزائر

تقوم الرواية على ثنائيات مختلفة، العلم مقابل الجهل، والاعتدال مقابل التطرف، التنوير والعقلانية مقابل الظلامية والانفعال. وهي ثنائيات ذات أثر مدهش في رواية «أفاعي النار» أقام عليها جلال برجس رؤيته الفكرية ومعماره الفني.

د.عماد الضمور

من المفارقات اللافتة للنظر في هذه الرواية والتي تحملُ شجناً عميقاً هي أن يكونَ المستنيرُ مشوّهاً وغيرَ قادرٍ على تقديمِ نفسه للمجتمع والناس بفعل التشويه المادي والمعنوي الذي تمارسه الجماعات المتطرفة وعملها المنهج لتشويه وشيطنة كلّ القوى الباحثة عن التسامح والعلم والتحضُّر وقبول الآخر والاندماج بالمجتمع والحضارة الإنسانيين من دون استعلاء وجمود وتكفير.

مهدي نصير

9 786144 862490